جامعة أسيوط
مركز دراسات المستقبل

النـدوة العلميـة الأولـــى

التاريخ العسكرى والـدور الحربـى لجنـوب مصـر عـبر العصـور

١٧ - ١٨ أبريل ١٩٩٦

تحت رعايـة
السيد الأستاذ الدكتور/ محمد رأفت محمود
رئيس الجامعة

كتـاب النـدوة



رئيس الندوة

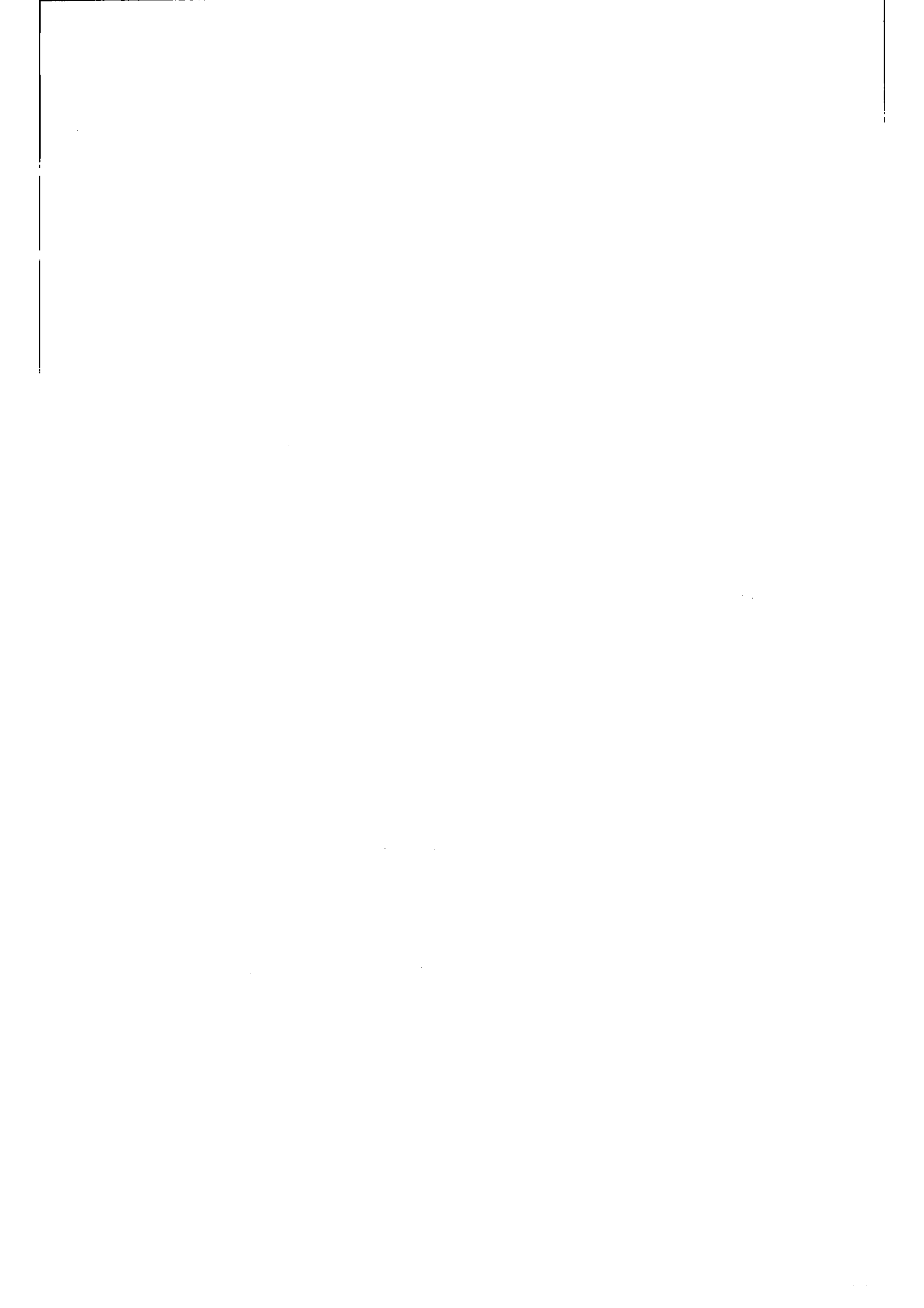
الأستاذ الدكتور / محمد إبراهيم منصور	مدير مركز دراسات المستقبل

مقرر الندوة

الأستاذ الدكتور / رفعت محمد حسن المليجى	مقرر وحدة بحوث المنظمات غير الحكومية بالمركز

اللجنة المنظمة

الدكتور/ محمد عبدالحميد الحناوى	مدرس التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب - جامعة أسيوط
الدكتور/ أسامة محمد فهمى	مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية الآداب - جامعة أسيوط
السيد/ السيد أحمد محفوظ	مدرس التاريخ القديم المساعد بكلية الآداب - جامعة أسيوط
السيد/ حامد عبدالحميد محمد حسانين	معيد بكلية الآداب - جامعة أسيوط



لجنة تحرير كتاب الندوة :

الأستاذ الدكتور/ محمد إبراهيم منصور	مدير مركز دراسات المستقبل
الأستاذ الدكتور/ رفعت محمد حسن المليجى	مقرر وحدة بحوث المنظمات غير الحكومية بالمركز
الأستاذ الدكتور/ سيد عاشور أحمد	مقرر وحدة بحوث الجامعة والنشاط الأكاديمى بالمركز
الأستاذ الدكتور/ أحمد سيد إبراهيم	مقرر وحدة التعليم والتدريب بالمركز

المحتويات

الصفحة

كلمة السيد الأستاذ الدكتور/ محمد رأفت محمود
رئيس الجامعة

بسم الله الرحمن الرحيم

السادة الحضور من أساتذة الجامعات المصرية والعربية والمؤرخين

السيد اللواء أركان حرب - قائد المنطقة العسكرية الجنوبية

السيد اللواء أركان حرب - قائد مدفعية المنطقة العسكرية الجنوبية

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته

يسعد جامعة أسيوط بمناسبة الاحتفالات بالعيد القومى للمحافظة ومقاومة ابناء هذا الاقليم العريق للحملة الفرنسية عام ١٧٩٩ أن يستقبل هذا الحشد العلمى الكبير ولأول مرة من خلال الندوة العلمية الأولى لمركز دراسات المستقبل عن (**الدور الحربى والتاريخ العسكرى لجنوب مصر عبر العصور**) .

والتى تهدف إلى إبراز الدور الحربى لهذه المنطقة الهامة من أرض مصر واستعراض تاريخها العسكرى العريق ، وتعريف الأجيال الحالية والقادمة بأمجاد هذا التاريخ لنستقى منه العبر والعظات من اجل غد أفضل لشعبنا ووطننا الذى يتوق إلى التقدم والرخاء والسلام . والمنطقة الجنوبية التى نعنيها فى ندوتنا هذه هى تلك المنطقة التى تمتد جغرافيا من جنوب القاهرة مباشرة فى الشمال وحتى حدود مصر الجنوبية بما فى ذلك الصحراء الشرقية حتى البحر الاحمر ، والصحراء الغربية حتى حدود مصر الغربية وهى تلك المناطق التى تعرضت للغزو والهجمات الخارجية بصورة واضحة خلال العصور التاريخية المختلفة حتى عصرنا الحاضر وكان لها دور كبير فى صياغة هذا التاريخ . ولا يقتصر تاريخ هذه المنطقة على هذا التصور الجغرافى داخل الحدود المصرية الحالية بل اتسع ليشمل مساحات شاسعة من شرق ووسط أفريقية حتى منابع النيل فى فترات متقطعة من التاريخ القديم والتاريخ الوسيط ، وبدا ذلك واضحا فى عهد محمد على وخلفائه وبخاصة فى عهد الخديوى إسماعيل ، وفى التاريخ الحديث بلغت الامبراطورية المصرية أقصى اتساع لها فى هذه الفترة .

ونظرا لأهمية هذه الندوة العلمية فى كشف اللثام عن تاريخ جزء هام من أرض مصر فقد تبناها مركز دراسات المستقبل بالجامعة الذى تأسس عام ١٩٩٤ كمؤسسة بحثية ذات طابع خاص تهتم بالبحث العلمى فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية بهدف رصد

التحولات المحتملة وتحديد وتحليل القوى والمتغيرات الحاكمة لحركة المستقبل ، وتنمية وصيانة تماسك بنيان الوطن وتعزيز أمنه القومى وسلامه الاجتماعى .

ويضم المركز نخبة من الخبراء والباحثين من جامعة أسيوط وبعض الجامعات الاخرى ومراكز البحوث يغطون عددا كبيرا من المجالات .

واليوم إذ يحتفل المركز بهذه الذكرى التاريخية إنما يحتفل بمناسبة قومية يحاول من خلالها أن يستخلص العبر وأن يكشف عن الدروس المستفادة التى تهم حاضر الوطن ومستقبله .

ولست بحاجة إلى التأكيد على أهمية المنطقة التى نعيش فيها ونحتفل بتاريخها العسكرى والدور الذى قامت به دفاعا عن استقلال الوطن ووحدته ليس فى هذا العصر فحسب وانما فى كل العصور منذ فجر التاريخ القديم .

وها نحن اليوم نسعد بهذا الاجتماع العلمى الأول للمركز فى هذه الندوة التى نأمل أن تحقق الهدف المرجو منها خلال هذا التعانق والالتحام الوطنى بين أساتذة الجامعات المصرية والعربية ومؤرخى قواتنا المسلحة الباسلة .

ولعلى انتهز هذه الفرصة لأرحب بضيوف هذه الندوة والمشاركين بها الذين قدموا من الجامعات المصرية والجامعات العربية وكذلك من قيادة المنطقة العسكرية الجنوبية وعلى رأسها **السيد اللواء أركان حرب / ممدوح كامل عبداللطيف** قائد المنطقة . الذين قدموا لهذه الندوة رعايتهم الأدبية والمعنوية وأسهموا بكتاباتهم وأبحاثهم فى إثراء إعمال هذه الندوة .

وفقكم الله ورعاكم وسدد على طريق الخير خطاكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،،

كلمة الدكتور / محمد ابراهيم منصور

مدير مركز دراسات المستقبل ورئيس الندوة

السيد الأستاذ الدكتور / رئيس الجامعة بالنيابة

السيد اللواء أركان حرب قائد المدفعية بالمنطقة العسكرية الجنوبية

السيدات والسادة أعضاء الندوة العلمية الاولى لمركز دراسات المستقبل يطيب لى أن أستهل حديثى إليكم فى هذه المناسبة العلمية والقومية بترحيبى بكم واعتزازى بوجودكم بيننا فى رحاب مركز دراسات المستقبل الذى يعتز اليوم بتنظيمه لهذه الندوة التى دعا اليها حول " **الدور الحربى والتاريخ العسكرى لجنوب مصر عبر العصور** " وليس مفارقة أن يدعو مركز علمى قام من أجل استشراف المستقبل الى ندوة علمية تبحث فى أمر من أمور الماضى وتسبر أغوار التاريخ ، فالمستقبل هو الحلقة التى لم نرها بعد فى سلسلة التاريخ .. والقراءة الصحيحة للتاريخ تقود إلى قراءة صحيحة للمستقبل .. ونحن عادة لا نقرأ التاريخ لنهاجر إلى الماضى أو استرجاعه لنعيش فيه ، فالهجرة إلى الماضى مرض يصيب الذين يعجزون عن صياغة المستقبل ولا يقدرون على الاستعداد له ، وانما نحن نقرأ التاريخ استعدادا للتقدم نحو المستقبل والتعامل مع معطياته وتحدياته تلك التى تصلح وسائلنا فى التنبؤ بها أو تلك التى تظل خارج قدرتنا على التنبؤ .

أن الندوة الأولى لمركز دراسات المستقبل حول " **الدور الحربى والتاريخ العسكرى لجنوب مصر عبر العصور** " مناسبة تستحق أن نقف قليلا عند دلالاتها والمعانى الكامنة وراءها والدروس المستفادة منها .

أولا : ان هذه الندوة تعقد فى ذكرى يوم جليل من أيامنا القومية .. وهو يوم انتصار الجماهير الشعبية فى قرية مصرية صغيرة هى قرية بنى عدى - فى صعيد مصر - على فرقة من فرق الحملة الفرنسية كانت تطوى تحت سنابك خيولها تراب الوطن فى طريقها لبسط نفوذها على صعيد مصر ليدين لها الوطن كله شمالا وجنوبا ، وتخضع لها البلاد فى الدلتا والصعيد .

ثانيا : والمعنى الثانى الذى يستحق التأمل هو ما ينطوى عليه موضوع الندوة نفسه من دلالات مهمة ربما كان أخطرها الأهمية التى يتبوأها صعيد مصر تاريخا وحاضرا

ومستقبلا .. ففى الماضى كان هذا الصعيد مركز حضارتها وقاعدة أمنها ، وظل فى الحاضر – وسيظل فى المستقبل – عصب نهضتها ووحدتها ..

ثالثا : والمعنى الثالث هو الدور الذى نهض به هذا الجزء العزيز من تراب مصر دفاعا عن استقلالها ووحدتها عبر العصور . فمن الجنوب انبعث أول شرارة لتوحيد مصر بشطريها الشمالى والجنوبى ، ومن الجنوب هتفت مصر بأول نداءات التوحيد قبل أن تشرق عند أبوابها القريبة شموس ديانات التوحيد ، ومن الجنوب انطلقت أول حركة تحرير للتراب الوطنى من جحافل الرعاة الأجانب ، ومن صعيد مصر انتقلت رسالة مصر الحضارية إلى إفريقية مع فتوحات محمد على وأبنائه فى السوادن والقرن الأفريقى .

رابعا : وفى جنوب مصر كان ميلاد مصر الحديثة الموحدة التى قامت لأول مرة فى العصر الحديث فى النصف الأول من القرن التاسع عشر حول أول جيش وطنى تضم كتائبه أبناء الفلاحين المصريين من المسلمين والأقباط . وربما كان ذلك أبلغ معنى يرمز له صعيد مصر فى مواجهة دعاة التفريق والتمزيق باعتباره المنطقة التى قدت من جبالها الوعرة صخرة الوحدة الوطنية التى لا تنكسر ولا تتفتت .

خامسا : وربما كان الدرس الخامس والمهم هو أن هذه المنطقة هى التى تفتحت فيها ذات صباح أحلام جيل من شباب الأربعينيات كان يتوق إلى الحرية والاستقلال وهو يرى جيوش الاحتلال البريطانى تدوس ترابه الوطنى ، ويرى الطغمة الفاسدة المتحالفة مع القصر والاحتلال تسوم أبناء شعبه الذل والهوان . ففى منقباد ، فى جنوب مصر ، نشأت النواة الأولى لتنظيم الضباط الأحرار الذى قاد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، هذه الثورة التى وضعت مصر فى مكانها الصحيح فى قيادة أمتها العربية ، وفى تحرير افريقية و مؤازرة الكفاح الوطنى ضد الاستعمار فى كل مكان . ففى منقباد كان اللقاء الأول بين جمال عبد الناصر وأنور السادات وزكريا محيى الدين وغيرهم من جيل الضباط الأحرار الذى عاش أحلام أمته وأمانيها وقاتل معاركها وتحدياتها .

سادسا : وآخر هذه المعانى والدلالات وربما كان أخطرها هو ما يمثله جنوب مصر اليوم من أهمية كبرى على خريطة الأمن القومى لوطننا العزيز .. هذا الأمن القومى الذى تستفزه اليوم أخطار ثلاثة ؟

- استفزاز الارهاب المتربص بمصر كلها .. تاريخها ومستقبلها ، اقتصادها وثقافتها ووحدة شعبها .
- واستفزاز الخطر القابع فى أعالى النيل يلوح بعصا المياه ويهدد شريان الحياة فى هذا الوادى الخالد .

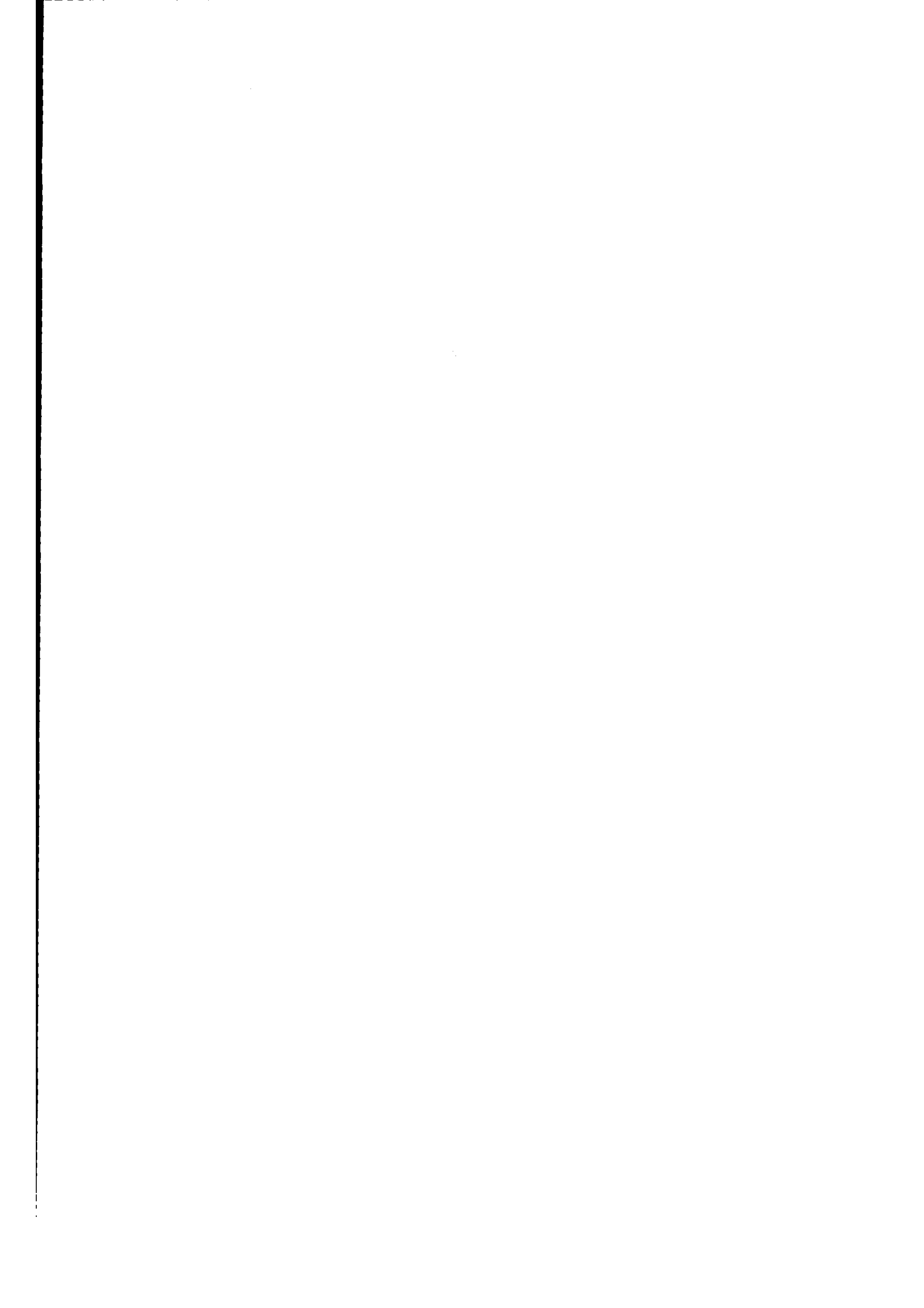
– وآخيرا استفزاز النظام الإرهابى المتستر بشعارات الاسلام فى السودان .. نظام الترابى الذى لايريد مصر القائدة ولايستريح لمصر المستقرة .

ولعل هذه المخاطر هى التى تدعونا اليوم إلى أن ننظر بتقدير كبير إلى المعنى الذى تعبر عنه استعادة السيادة المصرية على جزء عزيز غال فى أقصى جنوب مصر الشرقى من بلادنا ، فى حلايب وشلاتين وأبو رماد حيث تقف اليوم قواتنا المسلحة الباسلة ، درع الوطن وسيفه ، تبسط سلطانها على هذه المنطقة التى تستفزها افتراءات النظام الارهابى فى الخرطوم .. هذا النظام الذى يغامر اليوم باستقلال بلاده ويخاطر بوحدة أراضيه .

هذه أيها الضيوف الكرام المعانى والدلالات التى تعبر عنها هذه الندوة فى هذه الظروف ..

وأخيرا أيها الأخوة دعونى أتقدم باسم مركز دراسات المستقبل بالشكر والتقدير لقيادة المنطقة العسكرية الجنوبية التى شاركت بوفد عسكرى رفيع المستوى فى أعمال هذه الندوة ، وأن نتوجه إلى راعى هذه الندوة **الأستاذ الدكتور / محمد رأفت محمود رئيس الجامعة** بكل آيات العرفان والتقدير بما هيأه لهذه الندوة من ضمانات النجاح .

وتحية لكم جميعا أيها الضيوف الأعزاء .



كلمة مقررالندوة

السيد الأستاذ الدكتور/ رفعت محمد حسن المليجى

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الانبياء والمرسلين والمبعوث رحمة وهداية للعالمين .

السيد الأستاذ الدكتور / محمد على السبيتى نائب رئيس جامعة أسيوط ممثلا عن السيد الأستاذ الدكتور / محمد رأفت محمود رئيس الجامعة .
السيد اللواء أركان حرب/ حمدى لبيب عثمان قائد مدفعية المنطقة الجنوبية العسكرية ممثلا للسيد اللواء أركان حرب/ ممدوح كامل عبداللطيف قائد المنطقة .
السيد الأستاذ الدكتور / محمد إبراهيم منصور مدير مركز دراسات المستقبل بالجامعة ورئيس الندوة .

أبطال القوات المسلحة من قيادات المنطقة الجنوبية العسكرية ، ضيوف ندوتنا من عمداء الكليات ورؤساء اقسام التاريخ وأساتذته فى جامعات مصر ، الأخوة عمداء الكليات أعضاء هيئة التدريس بجامعة أسيوط ، الأخوة والأخوات من ضيوف ندوتنا الكرام ، أيها الحفل الكريم .

لكل مدينة أيامها الخالدات وذكرياتها العاطرات وهذا هو يوم أسيوط ، تلك الدرة المتألقة فى جبين مصر ، وغرته المتأنقة ، والتى يشهد لها الجميع بأن لها تاريخ عريق ، واصل عتيق .

يسطر لها التاريخ أنها قد قدمت أثناء الحملة الفرنسية نموذجا للصمود أمام جحافل الشر والعدوان ، وصار يوم الثامن عشر من أبريل عام ١٧٩٩م وقبل نحو مائتى عام من الآن رمزا للبطولة ، وعيدا قوميا لهذه المحافظة .

ومن هنا جاء اختيارنا للمكان وللزمان ، فمكان هذه الندوة هو (أسيوط) وزمانها هو السابع عشر والثامن عشر من أبريل عام ١٩٩٦ بكل ما يحمله هذا التاريخ من معنى وبخاصة ، ونحن نقترب كثيرا من مطلع قرن جديد يحمل ما يحمله لنا ولغيرنا من تاريخ وأحداث .

ومن واقع الاهتمام باستشراف المستقبل ، ورصد التحولات الاقليمية والعالمية التى تحكم حركته ، ومن واقع الاهتمام بقضايانا القومية وتعزيز أمننا القومى جاء اختيارنا فى مركز دراسات المستقبل بالجامعة لموضوع هذه الندوة (الدور الحربى والتاريخ العسكرى لجنوب مصر عبر العصور) باحثين عن الدور الحربى الهام الذى قام به جنوب مصر فى حماية

الأمن القومي للبلاد خلال الفترات التاريخية المتعاقبة منذ العصور القديمة وحتى وقتنا الحاضر ، من المنطقة الممتدة من جنوب القاهرة وحتى حدود مصر الجنوبية .

وفي محاولة من مركز دراسات المستقبل لإثراء موضوع هذه الندوة – رغم قصر فترة الإعداد لها – ، بالبحوث القيمة والدراسات الجادة الرصينة فقد تم الاتصال بنخبة متميزة من أساتذة التاريخ بالجامعات المصرية والعربية ، والذين يعدون من رموز الحياة الثقافية في مصر ، فلم يبخلوا علينا بجهد ، وجاءت موضوعاتهم متنوعة وثرية تلقى الضوء على تاريخ مصر عبر العصور ، وتأثير الحضارة المصرية على جنوب مصر وأفريقيا ، والمهام الدفاعية لأشهر الطرق الأثرية في صعيد مصر ، ودور القرية المصرية في مواجهة الحملة الفرنسية والتحركات العسكرية في جنوب مصر قبل هذه الحملة ، ومحاولات التهديد التي تعرض لها آمن جنوب مصر في مطلع العصور الحديثة ، كما تعطى صورة عن فنون العمارة العسكرية ودور هذه المنطقة في الصراعات التاريخية خلال فترات متعاقبة من التاريخ .

ومن هنا جاء اختيار موضوعات وبحوث هذه الندوة التي تمتد جلساتها العلمية الأربع اليوم وغدا ، رغم أن ثراء الموضوعات وعمقها يستلزم أكثر من هذه الجلسات والساعات التي سوف تلقى فيها أو تناقش بحوث هذه الندوة العلمية الهامة .ومن واقع الأهمية القصوى للمنطقة الجنوبية العسكرية ودورها الهام في حماية الأمن القومي المصري كان اتصالنا بقيادة المنطقة المتمثلة في أحد أبطال حرب كتوبر ١٩٧٣ ، والذي يعد من أبرز الكفاءات العسكرية المصرية السيد اللواء أركان حرب ممدوح كامل عبداللطيف قائد المنطقة الجنوبية العسكرية الذي حالت ظروف عمل طارئة دون مشاركته لنا في ندوتنا ، وأناب سيادته السيد اللواء أركان حرب حمدي لبيب عثمان قائد مدفعية المنطقة ، ليمثل سيادته في افتتاح هذه الندوة ويكون متحدثنا الرئيسي في الكلمة التذكارية بعد قليل .

كما أن قيادة المنطقة قد تم تمثيلها في هذه الندوة بعدد من أبرز قيادات المنطقة ، نقدم لهم جميعا التحية والعرفان ، ونقدر لهم ما يقومون بـه كعيون ساهرة تحرس منجزات الوطن ، وتقدم نماذج من البطولة والتضحية والفداء في سبيل حماية الأمن القومي المصري .

ومن هنا تظهر المشاركة الفعالة لقواتنا المسلحة والمنطقة الجنوبية في إثراء ندوتنا فكرا ونقاشا ومشاركة .

وحرصا من مركز دراسات المستقبل على التأكيد على الهوية العربية لمصر وانتمائها العربي جاءت دعوتنا لعدد من التاريخيين العرب لحضور فعاليات هذه الندوة ، ويشرفني أن أحيي الأخ الفاضل الدكتور محمد علي محمد القوزي أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة بيروت العربية والذي جاء ممثلا للبنان الشقيق الصامد المناضل ، والذي كان أول من حضروا من خارج أسيوط حيث شرفنا سيادته بالحضور في وقت مبكر من صباح الثلاثاء ، فتحية له وللأشقاء العرب في كل أرجاء الأمة العربية .

سيداتـــى و سادتـــــى

أرجو أن يأذن لى ممثل الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة فى أن نحييه ونحيى صاحب هـذا البيت ، وراعى مسيرته الأستاذ الدكتور محمد رأفت محمود رئيس الجامعة ، ابن هذه الجامعة وأول رئيس لجامعة مصرية من خريجيها ، وهو أحد رمـوز الحيـاة الثقافيـة المصريـة ويمثـل مكانة رفيعة عالية دعت القيادة السياسية الواعية أن تخصه برئاسة هذه الجامعة .

ولقـد كـان لتدعيـم سـيادته لمركـز دراسـات المسـتقبل باعتبـاره رئيسـا لمجلـس إدارتـه ، والاشراف المباشر على تفاصيل هذا اللقاء العلمى الهام ، ودعمـه المـادى والمعنـوى لفعاليـات هذه الندوة الآثر الكبير فيما ترونه اليوم من إنجاز .

ويقتضينا الوفاء أن نذكـر جهـود مـن سـاهم فـى الاعداد لهـذه النـدوة وإنجاحهـا ، ومنهـم الأخوة الافاضل رئيس وأعضاء مجلس إدارة مركز دراسات المستقبل ، واللجنة المنظمـة مـن أعضاء هيئة التدريس بقسم التاريخ بكلية التربية بالجامعة .

موضوعات الندوة



دور أسيوط فى الصراع الإهناسى – الطيبى
خلال عصر الثورة الاجتماعية الأولى

الأستاذ/ السيد أحمد محمد محفوظ
مدرس التاريخ القديم المساعد
كلية الآداب – جامعة أسيوط

لعبت أسيوط دورا مهما على مسرح التاريخ المصرى فى شتى عصوره ، وإن غيب هذا الدور وأخفاه عوامل عدة ، وكان ذلك بفضل الملكات التى وهبها المولى عز وجل لهذه المدينة العريقة ، فهى الحلقة التى تربط جنوب الصعيد بوسطه ، هذا الموقع الذى أتاح لها أن تلعب دورا رائدا وقائدا ومحركا للأحداث ومحور لها .

من أهم هذه الفترات التى نعنيها هى فترة إرتقاء اجتماعى ، نزعم أنها كانت من أهم الأحداث التاريخية ؛ ذلك لأن لها دلالات تاريخية أكثر من السير الملكية أو سرد الأحداث ذات الدلالات التوسيعية على سبيل المثال فى عصر الإمبراطورية الأولى ، بل إن التغييرات الاجتماعية فى رأينا أهم من كثير من المنشآت المعمارية الكبرى المزية ؛ الكبرى للحضارة المصرية فى رأى كثير من الباحثين كالأهرامات الضخمة أو المسلات الرشيقة أو حتى المعابد الفخمة .

فالتطورات الاجتماعية – من وجهة نظرنا – هى الظواهر التاريخية التى يجب أن يقف أمامها الدارس ويحللها مستوعبا لأحداثها وأسبابها ونتائجها ، لأنها تمثل التاريخ الحقيقى للشعوب والتى تظهر ذلك المحرك مانح الحضارة طابعها ، والقوة التى تروى بعرقها ودمائها أرض الحضارة الجرداء لتنبت أشجارا مثمرة وأزهارا متفتحة ، هذا المحرك وتكلم ؛ القوة هى الانسان المصرى .

وعود على بدء فقد كانت هذه التطورات الاجتماعية من الأهمية بمكان ويمكن إدراك هذه الأهمية من انعكاستها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، بل إنه من الممكن أن نتخيل حجم تأثيراتها إذا ماأدركنا أن التغييرات الاجتماعية التى حدثت فى فترة الدراسة ، قد أدت إلى

إجهاض الحكومة المركزية فى عصر الدولة القديمة ومـاأدراك ماالدولة القديمة ، فيكفى أن عين إنجازاتها ذلك الجهاز الإدارى الضخم الذى نجح فى تسخير كل موارد البلاد لخدمة الملك والجهاز المركزى الذى يمثل نسق ثيوقراطى يخدم نظرية الملكية الالهية .

تلك الظاهرة التى قوضت دعائم الملكية الإلهية فى عصر الدولة القديمة ، عرفها المؤرخون باسم " الثورة الاجتماعية الأولى " وهم قد يختلفون حول توقيتها ويتباينون حول تحديد أحداثها ووصفها ولكنهم لايختلفون حول أهميتها ودور الشعب المصرى فى إدارة دفتها.

إن الدارس لتاريخ مصر القديمة حين يصل إلى عصر الثورة الاجتماعية الأولى فإن عدة مشاكل تظهر أمامه وتحتاج منه إلى تمحيص ودراسة ، وأول مايخطر بباله دوافع هذه الثورة التى قام بها المصريون ضد مليكهم ، وهم يعتقدون فى ألوهيته ، وفى الحقيقة أن الثورة لم تكن ضد الملك وحده ، وإنما كانت ضد الكهانة ، بل الآلهة نفسها ، فضلا عن طغيان حكام الاقاليم ، وحدث كل ذلك فى أخريات الأسرة السادسة ، عندما وصلت حالة البلاد إلى درجة كبيرة من التردى جزاء وفاقا لعوامل اقتصادية وسياسية واجتماعية ، فضلا عن عوامل نفسية وأخرى خارجية وكان الوعى الطبقى لدى أفراد الشعب وقتذاك قد وصل إلى درجة دفعتهم إلى القيام بثورتهم المهمة(١) .

ولقد واكبت هذه الثورة فترات حكم عواهل الأسرة السابعة والأسرة الثامنة ، وكان العصر الاهناسى وحكم الأسرتين التاسعة والعاشرة إرهاصة الاستقرار وبشائر نهاية حالة الفوضى والاضطراب التى كانت تسود البلاد ، ولقد لعبت أسيوط وحكامها فى هذا العصر دورا رئيسا ومحركا للأحداث ومعلنا عن أهمية المدينة العريقة فى هذه المرحلة المبكرة .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل الدور الذى لعبته أسيوط فى الصراع الإهناسى – الطيبى ، علينا أن ندرك بداية مبررات هذا الدور ودوافعه ، فمنذ النصف الثانى من الأسرة الخامسة بدأ حكام الاقاليم يستأثرون بالسلطة فى أقاليمهم ، ومن النواحى الإدارية والقضائية والدينية ، وقد جعل بعضهم وراثة الحكم فى أعقابهم قضية مسلما بها ، وترتب على ذلك مايترتب على نظام الحكم الوراثى عادة من احتمال ولاية وريث الحكم منصبه فى سن الطفولة ، وكون كل حاكم

من أولئك الحكام جيشا محليا وأسطولا محليا بما يناسب إمكانيات إقليمه ، وصورت مناظر مقابرهم كثيرا من مناظر الحرب والاستعداد لها(٢) .

فعثر فى أسيوط على ماعرف اصطلاحا بالنماذج وقد استخدم المصرى هذا الأسلوب فى نهاية مرحلة الدولة القديمة فى نهايتها لصعوبة الزخرفة على سطوح الجدران المنقورة فى الصخر ولدينا مجموعتان من تماثيل صغيرة أو نماذج خشبية تمثل بعض فرق الجيش الإقليمى لحاكم من أسيوط يدعى " مسحتى " وتألفتا من مجموعة مكونة من عشرين جندى مسلحين بالحراب والدروع الكبيرة على شكل تروس ، والمجموعة الأخرى مؤلفة من أربعين جندى أيضا ومسلحين بالأقواس والسهام ، وقد وزعت كل مجموعة على عشرة صفوف فى كل صف أربعة جنود وإن لم يرتبوا حسب أطوالهم ولم يميز بعضهم من ناحية الزى أو الشكل عن البعض الآخر مما يعنى أنهم كانوا جميعا من نفس الرتبة(٣) .

ويشير عبدالعزيز صالح إلى أن أفراد هذه الحاميات كانوا يلقون معاملة طيبة من حكامهم ، ويدربون تدريبا مناسبا ، ويضمون أحيانا مرتزقة من النوبيين لحراسة الحواف الصحراوية ، غير أن وجودهم تحت إمرة حكام الأقاليم مباشرة كان يشجع هؤلاء الحكام على التنافس المسلح فيما بينهم ويدفع أقوياءهم إلى محاولة السيطرة على أصحاب الإمكانات المحدودة من جيرانهم(٤) . فضلا عن أنها تتيح لهؤلاء الحكام القوة لفرض كلمتهم وسلطاتهم حتى على الحكومة المركزية ولم تكن القوة وحدها التى أتاحت لحكام أسيوط لعب هذا الدور الخطير ، ولكن تتيح نقوش مقابر أسيوط لنا الفرصة لنلقى نظرة على ماكانت عليه ثروة حاكم الأقاليم ، وهذه الثروة كانت من نوع شديد التعقيد لأن الأراضى والدخل الذى انتقل إليه بالوراثة عن أجداده – أو عن " بيت أبيه " كما يطلق عليه كان منفصلا دائما عن " بيت الأمير " ، أى عن الأراضى والدخل الذى كان يعطى لديوان الأمير فالنوع الأول كان ملكا خاصا له يستطيع أن يتنازل عنه أو يتصرف فيه كيفما شاء ، على حين أن الآخر كان نوعا من الإقطاع التى أقطعها الملك له ، فإذا تصرف فى أجزاء صغيرة من " بيت الأمير " لأخرين فإن ماتصرف فيه من هبات لم يكن له سند من القانون .

وعلى أية حال فلقد كان هذان النوعان من الأراضى مع ماعليها من خدم وماشية وحدائق وغيرها تؤلف أملاكا ضخمة ، يضاف إلى ذلك كل ماكان يحصل من ضرائب ومكوس فكان حاكم الأقاليم يأخذ فخذا من كل عجل يقدم قربانا ، كما كان يتسلم نصيبه من العجول التى

تضحى فى المعابد ، وكان يرسل كهنة الساعات فى المعبد أبقارا كاملة وأغناما إلى " مخازن الأمير" ، فضلا عن الريع الثابت من أملاك المعبد بفضل انتمائه إلى مجمع الكهنة . كل هذه الثروة المتنوعة المصادر كانت عادة تتجمع فى يد شخص واحد هو حاكم الأقاليم(٥) .

فإذا اجتمع لدى حكام أسيوط مزايا القوة والثروة إلى جانب الموقع المتوسط كان طبيعيا - بل ونزعم أنه كان حتميا - أن يلعبوا دورا رئيسا فى عصر ساعدهم فيه ضعف الحكام وتخاذلهم وشيخوخة الجهاز الإدارى وتآكله رغم ترهله ، من هنا دعت الظروف أسيوط للعب هذا الدور التاريخى الذى مازالت مؤلفاتنا ودراساتنا تذكره بكل فخر وإعزاز .

وسنعرض الآن جدولا للترتيب الزمنى للأسر مع أسماء حكام أقاليم مصر الوسطى(٦) لتوضيح موقع حكام أسيوط التاريخى من مجرى الأحداث

	إهناسيا المدينة	طيبة	أسيوط	الاشمونين
٢١٣٠	نفركارع-مرى ايب رع	سهرتاوى انتف الاول	خيتى الاول	جحوتى نخت الثانى
٢١١٨	واح كارع خيتى الثالث	واح عنـــــخ انتف الثانى	تف إيبى	جحوتى نخت الثانى
٢٠٧٠	مرى كارع		خيتى الثانى	

ويبدأ الصراع مع انتقال الحكم فى إهناسيا(٧) إلى الأسرة العاشرة وكان " مرى حتحور " هو مؤسس الأسرة وأول ملوكها وقد عرفناه من نص مشوه عثر عليه فى محاجر حتنوب(٨) ويعتبره محمد بيومى مهران ملكا منفصلا عن خليفته " نفر كارع " الذى ورد اسمه فى بردية تورين (٩) على أن أحدث الآراء فى هذا السياق تعتبر أن " نفر كارع " هو مؤسس الأسرة وكان سابع ملك يحمل هذا اللقب وأطلق عليه مخربش من حتنوب لقب "مرى حتحور"(١٠) أوربما يقرأ " مرايب رع "(١١) وتبعه " واح كارع - خيتى الثالث - مرى كارع ".

وقبل هذا الوقت بقليل أيام الأسرة التاسعة يظهر على سطح الأحداث قطب آخر هو إقليم طيبة (١٢) الذى يبدو أن حكامه قد انتقلوا إليه من مسقط رأسهم أرمنت وقد حاولوا أن يرثوا زعامة الصعيد بعد أن ولت عنه زعامة قفط ، واشتهر أوائلهم باسم الأنانفة ؛ نظرا لتسمى

أغلبهم بإسم " إينيتف ".Iniit.f وكانوا على جانب كبير من الحذر ، فلم يدعوا لأنفسهم فى بداية أمرهم ملكا صريحا ولم يتلقبوا بألقاب الملوك واكتفوا لأنفسهم بألقاب الإمارة ، وبلغوا من حيطتهم أن هادنوا ملوك إهناسيا وربما اعترفوا لهم ضمنيا بسيادتهم أو على الأقل لم ينازعوهم فى البداية سيادتهم بعد أن تبينوا أنهم يفوقونهم سلطانا وقوة وأنها استطاعت أن تمد نفوذها إلى منطقة منف نفسها (١٣) .

ومع انتقال الحكم فى إهناسيا إلى الأسرة العاشرة ، أحس البيت الطيبى بأنه لايقل فى أحقيته للملك عن ملوك الشمال ، فأعلن أمراءه عدم طاعتهم لإهناسيا (١٤) .وبدأوا يكونون مع جيرانهم الأقربين تحالفا ضد الحكام الجدد فى الشمال بزعامة " إينيتف ، سهرتاوى" (١٥) .

وقد دعم حكام طيبة موقفهم خصوصا بعدما نجح " إينيتف الأول " فى الانتصار على " عنخ تفى " حاكم أقليم " نخن "(١٦) والموالى لإهناسيا(١٧) وإمتد نفوذه من قفط على أقل تقدير ليشمل ديندرة والأقاليم التى كانت تحت سيطرة " نخن "(١٨) .

أما حكام إهناسيا ، فشأنهم شأن سائر الحكام الضعاف ، كان عليهم أن يدعموا ملكهم بالتحالف مع بعض حكام الأقاليم الأقوياء ، والواقع أن سلطان ملوك إهناسيا كان ضئيلا بل ومنعدما فيما خلف حدود أبيدوس وشمال ذلك أيضا ويرجع ذلك إلى أن الحكام المحليين فى أسيوط وإن كانوا يدينون بالولاء لملوك إهناسيا إلا أنهم كانوا فى واقع الأحوال أعظم منهم قوة وأعز نفرا وستثبت الأحداث أنهم كانوا يعملون جهد طاقتهم للحفاظ على الكيان الملكى الإهناسى المتهالك المتداعى(١٩) .

واستغل حكام إهناسيا صلتهم القوية بحكام أسيوط كى يدعموا بهم قوتهم فى مرحلة الصراع الثانية والحاسمة مع طيبة ، وكانت جذور هذه الصلة متمثلة فى العلاقات القوية بين البيتين منذ عصر " خيتى الأول " حاكم أسيوط الذى تولى حكم الإقليم ، ولم يزل بعد فى المهد صبيا فكفلته أمة كوصية عليه وعلى حكم الإقليم الذى ورثه بعد وفاة جده لأمه(٢٠) .

ثم تعهده حاكم إهناسيا متتبعا فى ذلك سياسة بعض ملوك الدولة القديمة فى تربية أبناء الحكام الأقوياء فى قصورهم ليشبوا أوفياء لهم وفى ذلك يحدثنا " خيتى الأول " أمير أسيوط فيقول : " لقد كنت محبوبا من الملك ، ثقة فى أمرائه ، وممجدا فى مصر الوسطى ، وقد أدى

ذلك لأن أحكم وأنا طفل طوله ذراع ، ولقد رفع منزلتي في شبابي ، وتعلمت السباحة مع أطفال الملك ، وكنت شخصا جادا في حديثه ، مبرأ مما يسيء سيده الذي رباه طفلا ، ولقد سعدت بحكمي ، وشكرت إهناسيا الإله بسببي ، وقالت مصر الوسطى والدلتا " تربية ملك "(٢١) .

أما عن الدور الذي أداه فهو غير محدد وإن ذكر أنه كان له جيش وأسطول مؤلف من سفن عظيمة وقد جعلها في خدمة مليكه كما إقتضت الأحوال ذلك بمعنى أن كل ما أسداه للملك هو تكوين قوة من الجند وبناء أسطول نهري .

ويظهر من الأحداث هنا أن مقاطعة أسيوط عاشت أكثر من غيرها في خضم الوقائع إذ كانت في قلب المواجهات ، ويمكن متابعة تاريخها ابتداء من حوالي ٢١٣٠ ق.م في عهد الأمير " خيتي الأول " والذي كان مواليا للبيت الإهناسي ومنغمسا في هذا الولاء ، حتى اسمه الذي حمله إنما كان تغييرا صادقا عن مدى الولاء الذي كان يكنه لهذا البيت .

وهو بجانب إنجازاته السياسية والعسكرية يتفاخر بأنه جنب إقليمه ويلات المجاعة فلجأ إلى تقنين توزيع المواد الغذائية . بل إنه وسع الرقعة الزراعية بفضل سياسته الحكيمة في مجال تنظيم الري(٢٢) .

وحاولت طيبة بدورها أن تجمع الأحلاف من حولها ، وربما نجحت في ذلك بعض الشيء ولكنها اعتمدت أكثر ما اعتمدت على حصانتها ، وعلى صلابة رجالها الصعايدة وعلى إذكاء روح الأمل فيهم(٢٣) .

وبدأ الصراع بين إهناسيا وطيبة في صورة خفية أول الأمر ، ثم سرعان ما اتخذ صورته المكشوفة بعد ذلك ، فلقد نجح حاكم طيبة " واح عنخ ، انتف الثاني " والذي ورث الأقاليم الخمسة الجنوبية خلفا " لسهرتاوي " ، والذي استمر حكمه قرابة الخمسين عاما ، نجح في أن يمد حده الشمالي قريبا من أخميم(٢٤) وكوم إشقاو(٢٥) غربي النيل أي حتى الأقليم التاسع شرق النيل والأقليم العاشر غرب النيل(٢٦) .

ولقد كان مكسبه الكبير فى هذه الخطوة الأولى من المرحلة الثانية للصراع وتقدمه الظافر للشمال ، هى مدينة أبيدوس(٢٧) ، ذات الأهمية الدينية التى اكتسبتها من وجود المعبد الأوزيرى من عهد الدولة القديمة ، ووجود مقابر الملوك الأوائل الرمزية فى الصحراء خلفها ، فضلا عن رحلة الحج المقدسة التى كان يفد إليها فيها الناس من كل حدب وصوب ، الاحياء منهم والأموات على حد سواء(٢٨) . فضلا عن أنها كانت تمثل بالنسبة له بوابة الشمال ، فى ذات الوقت التى كانت فيه بالنسبة لملك إهناسيا وحكام أسيوط تمثل قلعة باب الجنوب(٢٩) . ومن ثم فقد توفرت لها بذلك أهمية دينية وعسكرية لكلا الطرفين .

وفى خضم أحداث الصراع يختفى الأمير " خيتى الأول " حاكم أسيوط ويلى حكم الأقليم " تيف إيبى " الذى سار على نهج أبيه وسلفه فى الاصلاحات الداخلية وواصل القتال ضد طيبة لحساب الملك " خيتى الثالث " ، وفى عهده بلغ الإقليم مستوى رفيعا من الرخاء والازدهار فى عهد " مرى كارع " الملك الإهناسى الذى أقام الأمير " خيتى الثالث " حاكما : فقام بترميم معبد أسيوط وجمع جيشا لايستهان بقوته(٣٠) .

ومايمكن أن يضاف هنا أن المجابهة بين الشمال الاهناسى الأسيوطى والجنوب الطيبى لم تكن حربا ضروسا مستمرة ، بل كانت بالأحرى حالة من السلم المزعزع . فاستغل كل معسكر هذه الأوضاع لتدعيم مركزه . وعليه فلقد ولت وانتهت تلك الأيام التى انتشرت فيها المجاعة وعمت القلاقل الاجتماعية وسيتولى المنتصر من المعسكرين توحيد بلاد كانت قد استعادت قواها على وجه اليقين .

وفى ظل صراع الإخوة تمتع حكام مصر الوسطى وبخاصة أسيوط وما حولها بحالة من الاستقلال الداخلى تحت رعاية ملوك إهناسيا وظلوا على تفاخرهم بأعمالهم فى الوقت نفسه ، وأشبع فيهم أهل إقليمهم حبهم للشهرة ، فمدح أحد كتبة أسيوط الأمير " خيتى " بن " تفيى إيبى " الذى يتفاخر بأنه سليل حاكم وابن بنت حاكم ، بقوله : " ما أجمل ماتم فى عهدك ، لقد رضيت المدينة بك ، وماكان مستغلقا على الناس جعلته مكشوفا مباحا من تلقاء نفسك ، عن رغبة منك فى إسعاد أسيوط ، لقد جعلت كل موظف يستقر فى منصبه ، وماعاد أحد يقتتل أو يطلق سهمه ولم يعد طفل يلقى حتفه بجوار أمه ولامواطن بجوار زوجته ، بعد أن هداك رب مدينتك الذى أحبك "(٣١) .

واستمر الصراع نحو ثمانين عاما أويزيد وكانت سياسة إهناسيا إزاء حكام الأقاليم الموالين لها قد أتت أكلها ، فنفعوها فى تنافسها ، واعتادوا على أن يؤكدوا فى نصوصهم ولائهم للقصر الملكى وإن لم يذكروا اسم الملك غير مرات نادرة وكان من أكبر أولئك الحكام : حكام أسيوط فيذكر " تيف إيبى " فى نصوص مقبرته :

" استمعوا إلى أهل الغد ، لقد كنت سخيا مع الناس جميعا .... سديد الرأى ، نافعا لبلده ، سمحا مع الشاكى ، إذا جن الليل (اطمأن) النائم فى الطريق ودعالى وأصبح شأنه شأن من نام فى داره تحرسه هيبة عسكرية .... "

وأعلن الرجل مبدأ أهم من هذا فأعلن إيمانه بأن الشخص النبيل هو الذى يستطيع أن يتفوق بمآثره عن مآثر أبيه وأن جزاءه على ذلك سوف يكون الرحمة فى الآخرة ، وتمكين الحكم فى أسرته بحيث يرثه ولده فى قصره ، فضلا عن حسن سمعته فى بلده ، وتعظيم الناس لتمثاله بعد موته (حين يحمل فى المواكب العامة)(٣٢) .

وظلت الحرب سجالا بين الطرفين وباتت الحدود بينهما بين مد وجذر ولازالت خطوات هذه المعارك وتفاصيلها غامضة ومستغلقة علينا إلى حد كبير ولانعرف عنها إلا النذر اليسير ، ولكن يبدو أن مراحلها الأولى انتهت بانتصار ملك إهناسيا على معاصريه من أمراء طيبة بمساندة حاكم أسيوط " تيف - إيبى " بعد أن دارت بين جيشهما معارك عدة فى منطقة ثنى " أبيدوس " أدت إلى تخريب جبانتها القديمة وبعض أماكنها المقدسة وإنتهت بسيطرة إهناسيا عليها حوالى عام ٢٠٦٥ ق.م(٣٣) .

وقد كتب ملك إهناسيا " خيتى الثالث " فى تعاليمه لابنه إشارتين إلى النزاع الذى قام بينه وبين أمير طيبة ، الذى كان يعد من رعاياه فى الظاهر ، ففى الإشارة الأولى نجد .

" أن مصر تحارب فى الجبانة وتخرب المقابر ..... وقد فعلت ذلك بنفسى ، وقد حدث فعلا هذا " .

وهى إشارة إلى انتهاك حرمة المقابر ولابد أنها تشير إلى جبانة أبيدوس المقدسة وعنها يقول الملك :

" إننى استوليت عليها بالهجوم كالصاعقة " وبعد ذلك بقليل يقول " خيتى " : " تأمل لقد حلت فى زمنى كارثة خربت أحياء طيبة وقد حدث ذلك فعلا ، وقد كنت أنا السبب وقد

أحسست بجرمى بعد أن اقترفته وكان ذلك من سيئاتى ، فاحذر ذلك لأنه من عمل سيئة يجزى مثلها(٣٤) .

أما حقيقة ماحدث فهى غير واضحة لأن المتن غامض ولكن يمكن أن نستقرأ ماحدث من بين السطور على أساس أن كلا من " خيتى " ملك إهناسيا " وإنتف عا " أمير طيبة يدعى لنفسه السلطان على طيبة وجبانتها بأبيدوس وكان ملك إهناسيا يؤازره " تيف إيبى " أمير أسيوط وهما يعتقدان أن هاتين المنطقتين يعدان حصن باب الجنوب لأملاكهما .

والمرجح أنه قامت بعض المشاحنات بين القابضين على إدارة تلك الجهة من كلا المتخاصمين ، مما أدى إلى نشوب حرب وجعل " خيتى " يشير فى تعاليمه لابنه إلى هذا الحادث الأليم ، إذ كانت نتيجته أن نهبت المقابر المقدسة عندهم والتى كانت فى تلك الجهة ، وقد حزن " خيتى " لإرساله الجنود الذين ارتكبوا تلك الفظائع ، وقد شعر بجرمه ، غير أنه لم يكن يعلم الحقيقة إلا بعد وقوعها ، ولاغرابة فإن كل البلاد - لابد - قد ارتاعت من تخريب الأماكن المقدسة التى كانت تعد أقدس بقعة مقدسة فى البلاد المصرية قاطبة .

وقد انتهز " إينتيف " هذه الفرصة ليكيد لعدوه ، إذ حمل مسئولية تخريب الأماكن المقدسة ونهبها على جنوده وأعوانه مما أشعل نار الغضب فى قلوب الشعب ضد " خيتى " مناهضة ومن هذا العهد نجد أن " إينتف " أخذ يحمل لقب " حور " فأطلق على نفسه " حور واح عنخ ، انتف عا " وقد قام " إنتف عا " بحملة نيلية فى أسطول سار به شمالا مظهرا العصيان الصريح ضد ملك البلاد لينتقم لنفسه وشرفه ودينه ولكن محاولته هذه كان مآلها الفشل التام(٣٥).

وفى ذلك يقول أمير أسيوط " تيف إيبى "(٣٦) :

" إن أول مرة حاربت فيها جنودى المقاطعات الجنوبية طاردوا فيها الأعداء إلى أقصى الحدود الجنوبية ، وعندما وصلت إلى المدينة هزمت الأعداد وأقصيتهم حتى حصن باب الجنوب " .

وقد حاول قائد " إينتف عا " كرة أخرى أن يغير على أملاك ملك إهناسيا فكان نصيبه الفشل التام والهزيمة المنكرة .

وتقص علينا النقوش نقلا عن أمير أسيوط[٣٧] : " وقد جاء آخر كأنه الفهد المقدس بجيش مؤلف من أحلافه لملاقاته ، ولم أتوان لحظة عن منازلته فى سفنى وقد حاولت استخدام ريح الشمال وريح الجنوب وكذلك الريح الشرقية والريح الغربية حسب الأحوال الجوية ، وقد انتهت هذه المعركة بأن غرق العدو وسفنه فى النيل وكانت جنوده تفر كالثيران عندما تواجهها الحيوانات المتوحشة رافعة ذيولها إلى الأمام " .

ومع تقدير عامل المبالغة وحب تمجيد الذات فى مثل هذا السير ، يمكن أن نخرج بعدة حقائق منها أن هذه الواقعة أول موقعة بحرية تتم على صفحة النيل ، وربما كانت أول موقعة بحرية – حسب ماورد من مصادر – فى التاريخ وهى بهذا تسبق حروب " رعمسيس الثالث " البحرية فى الدولة الحديثة .

وكان " خيتى الثالث " أخر ملوك إهناسيا العظام ، واتسمت سياسته النظرية بقدر كبير من الحكمة ولكنها على مايبدو – لم تلق نجاحا كبيرا فى الخارج[٣٨] ، ويظهر ذلك من الهيكل الجنازى الذى إكتشفه " ماربيت " عام ١٨٦٠ فى منطقة الطارف بجبانة طيبة لـ" اينيتف الثانى " وبداخله نصب دون عليه ملك طيبة المرحلة المعاصرة لحكم " خيتى الثالث " وبداية نهاية الحكم الإهناسى والبيت الأسيوطى الموالى له فيقول[٣٩] .

" لقد نقلت الحدود الجنوبية (لمملكتى) حتى إقليم واجت (الإقليم العاشر) ، لقد استوليت على أبيدوس والمناطق المحيطة بها وأقيمت شتى قلاع إقليم " واجت " فصارت بوابة لمملكتى .

ويبدو أن الامير الطيبى لم يقنع من الغنيمة بالإياب وهو الذى رأيناه يتقدم تارة ويتعثر أخرى فى عناد وبأس ؛ لذا فمن المرجح أنه عاد مرة أخرى واستعاد أبيدوس حسب المصدر السابق حتى إذا ما مات كانت هذه المدينة المقدسة فى أيدى أمراء بيته .

والجدير بالذكر أنه لو كان الأمر مقصورا على مجرد صراع حاكمى إقليمين من أقاليم مصر ، لكان المنتصر قد قنع بنصره وعاد أدراجه إلى عاصمته ، بعد ما تم له النصر المؤزر ، إلا أن الأمر كان جد مغاير لذلك ، إذ أن " منتوحتب الأول " الحاكم الطيبى لم يكن قانعا بتلك السيادة الجزئية على مصر ، لذا فقد تقدم نحو الشمال ويبدو أنه نجح باديء ذى بدء

فى إسقاط أسيوط ، السند القوى لإهناسيا ، ثم اتجه نحو إقليم إهناسيا ذاتها معقل خصومه ومقر حكم الأسرة العاشرة ، حيث أطاح بحكمها ، مقررا بداية عصر جديد .

ومن كل ماسبق يعنينا فى هذه الدراسة موقف حكام إقليم أسيوط وهم " خيتى الأول " و " تيف الثانى " و " خيتى الثانى " ووقوفهم إلى جانب إهناسيا كحليف قوى حمل على عاتقه عبء مواجهة التقدم الطيبى حتى اندحر إقليمهم أمامه وقد تمسكوا فى تعاقبهم على حكم الإقليم بذلك التحالف فيما يشبه اتفاقا وديا أو التزاما غير معلن إذ كانوا يمثلون منطقة حاجزة بين إهناسيا وطيبة ، وهو تحالف ذهب البعض فى تعليله إلى كونه لا يرجع إلى علاقات الصداقة القوية فحسب ، بل ربما تعداه إلى صلة القربى بين العائلتين ، وهى الصلة التى ربما كان " خيتى الأول " يختلف على أساسها على القصر الملكى ليربى بين أبناء الملك الذى عينه – فيما بعد – حاكما على الأقليم(٤٠) .

ولقد تحلى حكام أسيوط مثل أقرانهم ، بالألقاب الشرفية . إذ تلقب ثلاثتهم بألقاب " الأمير الوراثى ، الحاكم الكبير للإقليم ، حامل الختم الملكى ، السمير الوحيد ، الكاهن الأعلى للإله وب واوات ، رب أسيوط "(٤١) .

كذلك فإن تدخلهم الفعلى فى الصراع لم يجعلهم يغضون الطرف عن الإصلاحات الداخلية فقام خيتى بشق قناة فى إقليمه كان لها أكبر الأثر فى مده بالمياه اللازمة فى فصل الجفاف ؛ مما مكنه من رى الإقليم وزيادة نمائه وقد تحدث عن هذا الرخاء فقال(٤٢) . " لقد كان لدى حبوب كثيرة ، وعندما دعت الحاجة إليها وزعتها على المدينة وسمحت لكل مواطن أن يحمل الحبوب لنفسه وزوجته وكذلك الأرملة وابنها وأكملت كل نقص لم يكن مستوفيا فى عهد آبائى . وملأت (المراعى) بالقطعان (كل) رجل أصبح لديه أغنام كثيرة ، وكان البقر يلد كل مرة اثنين وكان بين صغاره كثير من العجول " .

أما " تيف – إيبى " بن " خيتى الأول " فمن منطلق إسهامه بالنصيب الأكبر فى مواجهة الطيبين فإنه لم ينس هو الآخر أن يفخر بنفسه فيقول(٤٣) : " إنى باسط يدى لأى فرد ، لأننى صاحب نوايا طيبة ، نافع لمدينتى ، محب للمودة ، طلق الوجه للأرملة ، فأنا النبيل لأهله ، وعندما يجن الليل ، يمدحنى من ينام فى الطريق لأنه أصبح آمنا كالرجل .... فى داره ، فالخوف من جنودى خير حام له .... ، وعندما يخلفنى ابنى سيصبح المواطنون

(تحت سلطته) وسيحكم كطفل بيد (طولى) ، وسوف تنعم البلاد فى عهده وستذكر الأفضل ، لأى نبيل يفعل صنيعا للناس ويفوق بصنيعه من يخلفه ، وسوف يبجل من الآن فصاعدا ، وسوف يظل ولده فى دار أبيه ، وسوف تصبح ذكراه عطرة فى المدينة ، وسيعظم الناس تمثاله ، و(سيحفظه) أبناء بيته " .

ولقد قام خلفه " خيتى الثانى " بإعادة بناء معبد الإله " وب واوات " الإله المحلى للأقليم ، وهى فيما نعلم أول سابقة من نوعها يقوم فيها الحاكم ببناء معبد إرضاء لإله إقليمه ورغبة فى تحقيق الخلود المنشود ، وإلى جانب قيامه بترديد المثل الأخلاقية العليا التى رددها سلفه فى سيرته الذاتية ، فقد حرص على الإشارة إلىالتزامه بالأخلاقيات والتعاليم وسجل ذلك فى نقوش مقبرته قائلا(٤٤) :

" كان كل موظف يعمل فى وظيفته بلا مشاحنات ولا خراب بالسهام ولم يقتل طفل فى جوار أمه أو مواطن بجوار زوجته ، ولم يكن هناك عمل سيء ، ولم يقم أحد بعنف ضد مدينته ، مدينة الإله ".

ونقوش مقابر أمراء أسيوط لم تلق الضوء بشكل واضح على الصراع الإهناسى – الطيبى فحسب بل أنها تمكننا من تتبع قواعد الوراثة الإقطاعية خطوة بخطوة . فلقد كان من حق أكبر أبناء حاكم الاقليم أن يخلفه بقية الأبناء المتعاقبين على حكم الإقليم وفقا لنظام البكورة . فإذا ما توفى أخر الأخوة فإن أمر الإقليم يؤول إلى أكبر أبناء حاكم الأقليم ، وهكذا .

أما فى حالة عدم وجود أبناء ذكور فإن وراثة الإقليم تصبح من حق الابنة الكبرى دون أن يصبح لها الحق فى ممارسة السلطة ، أما إذا كان آخر ذكر من سلالة حاكم الإقليم قد أعقب قبل وفاته ولدا قاصرا ، ففى هذه الحالة تقوم أمه بانتحال لقب الإمارة كوصية عليه ليخول لها الحق فى إدارة ممتلكات زوجها بالاقليم وتظل قائمة بالإمارة حتى يصبح ابنها قوى الذراع أى يشب عن الطوق ويبلغ سن الرشد(٤٥) .

وأخيرا فالهدف من إلقاء هذا البحث هو إبراز دور أسيوط فى مرحلة مهمة من مراحل التاريخ القديم ، والواقع أن الدراسات الأثرية أو دعنا نقول التاريخية وبمعنى أشمل الدراسات الإنسانية قاصرة فى هذه المدينة الكبيرة رغم وجود هذه الجامعة العريقة التى نحن فى رحابها الآن .

وهى كلمة حق نقولها فى هذا المحفل الموقر أمام جمع مهيب من علماء مصر الأفاضل فنحن من هذا المكان ندعو القائمين على إدارة الجامعة صونا لتراث أسيوط الآثرى والتاريخى ورغبة فى وضع أسيوط فى موضعها المفروض من التاريخ والآثار ، فدعونى أيها السادة الأساتذة أؤكد أن آثار أسيوط فى أهميتها الحضارية والتاريخية فضلا عن أهميتها الاقتصادية المرتقبة إذا ماوضعت على خريطة السياحة المصرية - لاتقل بأى حال من الأحوال عن محافظة المنيا بل تعد لها وتكاد تفوقها .

فكاتب هذا البحث يدعوكم إلى زيارة مقابر " مير " أو مقابر الهمامية أو لجبل أسيوط الغربى أو لمتحف الامريكان أو غيرها من الأثرية المهمة ، بل أننا نؤكد أن أعمال الحفائر فى أسيوط ستظهر كثيرا من الوثائق التاريخية والآثار التى ربما ضيعناها بدعوى الإنشاء والإعمار ثم بإهمال متابعة ومراقبة هذه الإنشاءات وتجاهل الحفائر الأثرية فى هذه المواقع فكأننا بذلك نعارض هدف دولتنا الأكبر وهو التنمية الممتدة وضيعنا بأيدينا أمانة حملتها لنا الأجيال السابقة لنوصلها إلى أبنائنا وأحفادنا سليمة ، فدعونا لا نفرط فى تراثنا وماضينا المشرق علنا نجد فيه ما يضيىء طريق تنميتنا ومستقبل بلادنا .

لذا كان واجبا على جامعتنا العريقة أن تفتتح قسما للآثار المصرية تلقى على عاتقه أعباء الحفاظ على آثار أسلافنا ودراستها وتسجيلها ونشرها نشرا علميا قبل أن يقضى الزحف العشوائى على آمالنا وطموحاتنا .

الهوامـــــش

١- **محمد بيومى مهران** : مصر والشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، الاسكندرية ، ١٩٩٣ ، ص٤٩٦

٢- **عبدالعزيز صالح** : الشرق الأدنى القديم ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٨٤ ، ص ١٥٢ .

٣- CGC 257 , CGC 258

٤- **عبدالعزيز صالح** : المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

٥- **ادولف إرمان وهرمان رانكه** : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ، ترجمه عبدالمنعم أبوبكر وراجعه محرم كمال ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٨٩ .

٦- نيقولا جريمال : تاريخ مصر القديمة ، ترجمة ماهر جويجاتى مراجعة زكية طبوزاده ، القاهرة ١٩٩١ ، شكل ٦٨ .

٧- **إهناسيا** : هى الأقليم العشرون من أقاليم مصر العليا وإسمه " نعر - خنتى " وإسم عاصمته " نن - نيسوت " وفى اليونانية هيراقليوبوليس وإله الاقليم هو " حر - شف "

M.G. Mokhtar ; Ihnasya El-Medina , in : BE 40 (1983) .

٨- R.Anthes ; Die Felsninschriften von Hantub,Leipzig 1928, pl.7, p.14

٩- **محمد بيومى مهران** : المرجع السابق ، ص ٥٣٠ .

١٠- J.Vercoutter ; L`Egypte jusqu`a`la Fin du Nouvel Empire , in : P. Leveque, p . 143 .

١١- LA`Vll , p. 1441, h.5.

١٢- **طيبة** : هو الأقليم الرابع من أقاليم مصر العليا وإسمه " واست " وعاصمته " واست " أما إسمه اليونانى ديوس بوليس ماجنا أو طيبة وألهتها أمون وموت وخونسو إلى جانب مونتو والإسم الحديث الأقصر .

١٣- **عبدالعزيز صالح** : المرجع السابق ، ص ١٥٣ .

١٤- **أحمد فخرى** : مصر الفرعونية ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ١٨٤ .

١٥- حسن محى الدين السعدى : حكام الأقاليم فى مصر الفرعونية حتى نهاية الدولة الوسطى ، الاسكندرية ١٩٩١ ، ص ١٦٣ .

١٦- **نخن** : هو الأقليم الثالث من أقاليم مصر العليا ومدنه هى نخن ونخب وايونيت وأسمائهم اليونانية هى هيراقيو بوليس وليتوبوليس وآلهته هى حور ونخبت وخنوم والإسم الحديث هو البصيلية بأدفو

١٧- **نيقولا جريمال** : المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

١٩- **سليم حسن** : مصر القديمة ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٤١٧

٢٠- J.H. Breasted ; Ancient Records of Egypt , I , Parg .189 .

٢١- Ibid . Parg . 190

٢٢- **جريمال** : المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

٢٣- **محمد بيومى مهران** : المرجع السابق ، ص ٥٤٥ .

٢٤- **أخميم** : هو الأقليم التاسع من أقاليم مصر العليا وإسمه المصرى " مين " (خمم) وعاصمته " بر - مين " (إيبو) وإسمه اليونانى بانوبوليس وإلهه مين .

٢٥- **كوم إشقاو** : هو الأقليم العاشر من أقاليم مصر العليا وإسمه المصرى " وادجت " وأهم حواضره " بر - وادجت " " ودجو - قا " وإسمه اليونانى افردويت بوليس - انتيو بوليس وآلهته هى " وادجت " و " حور " .

٢٦- **حسن السعدى** : المرجع السابق ، ص ١٦٩ .

٢٧- **أبيدوس** : هو الأقليم الثامن من مصر العليا واسمه المصرى " تا - ور " وعاصمته هى " ثنى " (أبجوم) وإسمها اليونانى ثينيس وإلهتها هو " خنتى - امنتى " - " أوزير " - " انحور " .

٢٨- WINLOCK : THE Rise and Fall of Middle Kingdom in Thebes , New York 1947 , pp. 12 - 13 .

٢٩- Ibid. , p. 16 .

٣٠- **جريمال** : المرجع السابق ، ص ١٨٦ .

٣١- BAR, I , Parg . 404 .

٣٢- **عبد العزيز صالح** : المرجع السابق ، ص ١٥٤ - ١٥٥ ، Ibid ., Parg . 395

٣٣- **عبدالعزيز صالح** : حضارة مصر القديمة وآثارها ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص٤٠٧ - ٤٠٨ , op - cit, p. 10

٣٤- **سليم حسن** : المرجع السابق ، ص ٤٣٠ .

٣٥- المرجع السابق ، ص ٤٣١ .

٣٦- BAR , I , Parg . 405

٣٧- Ibid , Parg 406

٣٨- **جريمال** : المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

٣٩- CGC 20512

٤٠- Hayes : The Scepter of Egypt , I, New York 1953 , p. 468

٤١- BAR , I , Parg . 179 .

٤٢- Ibid. , Parg . 189 .

٤٣- Ibid ., parg . 181 .

٤٤- Ibid ., Parg . 180 .

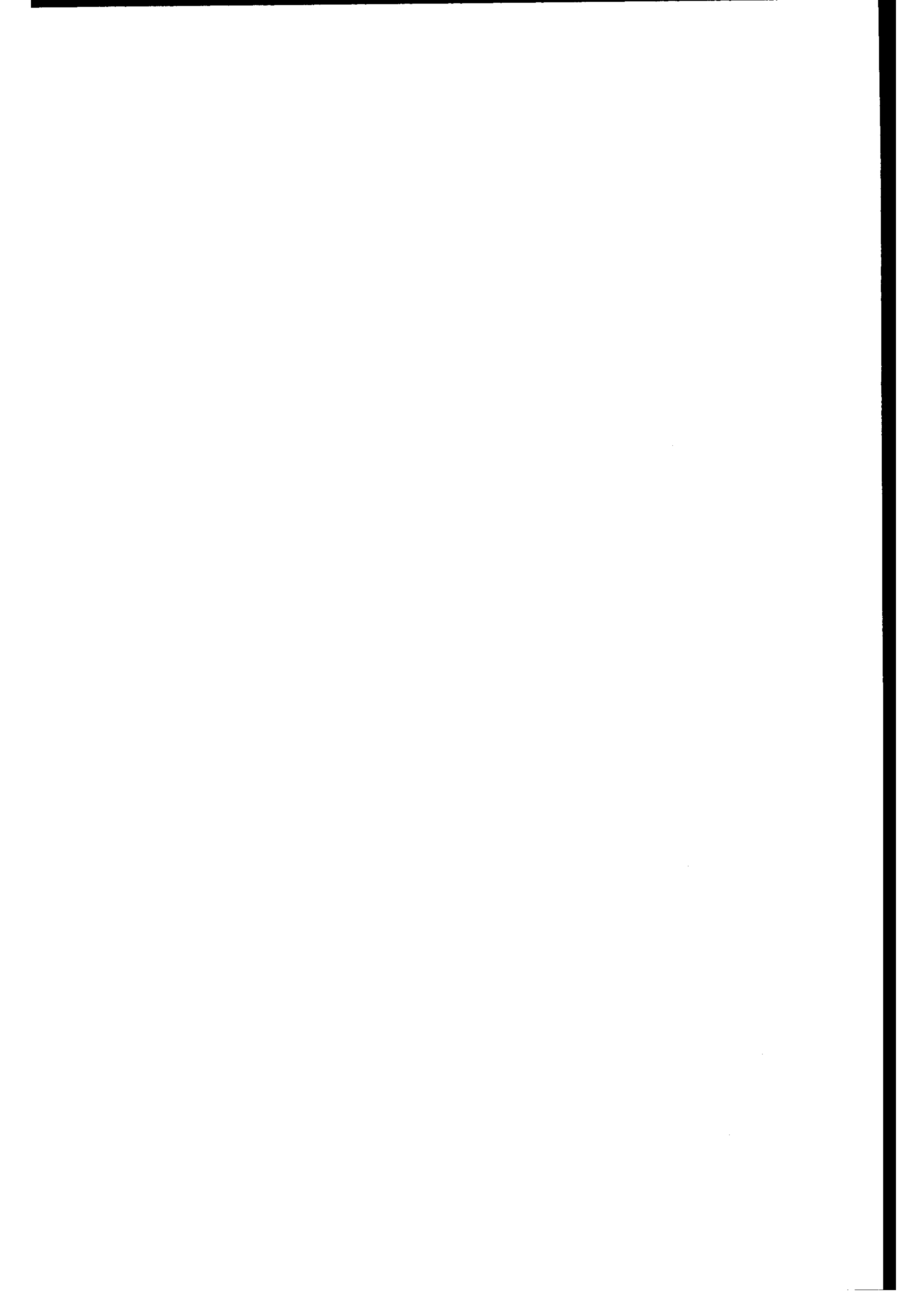
٤٥- Ibid ., Parg . 182 .

الاختصـــــــارات

BAR : Breasted , G..H : Ancient Records of Egypt

CGC : Catalogue General du Cairo .

LA : Lescicon der Agyptologie .



صورة من فنون العمارة العسكرية لبعض مدن صعيد مصر
(على ضوء نصوص لوحة النصر الكوشية)

دكتور/ عادل سيد مصطفى
مدرس التاريخ القديم
كلية الآداب - جامعة المنوفية

عندما تعرضت مصر للغزو الكوشي حوالى عام ٧٢٨ ق.م ، تصدت له سبع عشرة مدينة جنوب مصر (خريطة ١) ، أهمها " ونو " (الأشمونين) ونفروس و " تا - دهنت - ورنختو " (طهنا) و" حوت بنو " (الحيبة) و" بر - مجد " (البهنسا) و" ننى نسوت " (إهناسيا المدينة) و" بربج " و" بر - سخم - خبر رع " (عند مدخل الفيوم) وأخيرا " اثت - تاوى " (اللشت أو فى مجاورات بمها) (١) . وقد وصفت نصوص لوحة الغازى الكوشى " بى " (عنخى) - التى نقشت عقب عودته إلى نباتا لتخلد انتصاره - جانبا مما اكتنف هذه المدن من عمارة عسكرية وما اتخذته من تدابير زيادة فى منعتها . ولئن تعرضت نصوص هذه اللوحة لدراسات عديدة يضيق المقام عن الخوض فيها ، إلا أن أغلب هذه الدراسات تناولتها إما بالترجمة ، أو بالتعليق على نصوص الفنون القتالية (التكتيك العسكرى) وتحليل فحواها ، إلا ماتضمنته من إشارات إلى عناصر العمارة العسكرية لهذه المدن ، ومفرداتها فى اللغة المصرية (٢) .

كان الغرض من إقامة التحصينات العسكرية فى هذه المدن - فيما تصوره البعض دون سند مصدرى - هو درء أخطار الأقاليم المجاورة ، فحالوها حروبا اهلية يشتد وطيسها بين الحين - والآخر حول حدود الأقاليم ، استوجبت إقامة القلاع والحصون ، وغيرها من أنماط العمارة العسكرية فقد رأى " شبلنجر " أن كل حاكم من حكام هذه المدن كان مضطرا إلى الدفاع بعنف وضراوة عن قلاعه إزاء هجوم الأقاليم المجاورة (٣) . وراح " ديفيد اوكونر " يدعم هذا الرأى ويحاول سبر أغوار نهاية الدولة الحديثة ، لعله أن يجد مبررا لهذه العمارة العسكرية ، فهو يرى أن ظهور المدن المحصنة والمسورة ، إنما بدأ منذ أواخر عصر الدولة الحديثة ، وما التحصينات الضخمة بمعبد رعمسيس الثالث (مدينة هابو) إلا مؤشر على

وجود نماذج مماثلة فى أماكن أخرى ، وأن هذه العمارة بلغت ذروتها منذ نهاية القرن الثامن ، حيث أشارت لوحة النصر الكوشية إلى تسع عشرة مدينة محصنة ، تبدأ من مصر الوسطى وعلى طول امتداد النهر شمالا حتى الدلتا ، وهى تعكس أو تصور حالة من الاضطراب والحرب الأهلية والغزو فى هذا العصر ، وأن أغلب التغييرات الإدارية إنما صحبتها فى العادة إضافات فى عمارة هذه الحصون (٤) .

ولكن هناك بعض التلميحات التى وردت فى نصوص لوحة النصر ذاتها ، تتصل بالغرض من تلك الحصون ، منها

أولا : أن كل المدن الواقعة على الضفة الشرقية لنهر النيل مثل (" حوت بنو " و " تاى – وجاى " و " وحوت نسوت " و " برنب تبواحت ") كانت مدنا غير محصنة (باستثناء طهنا) إذ لم تتحدث نصوص اللوحة عن اقتحام هذه المدن – عسكريا كسائر المدن لامن جانب القوات الكوشية ، ولا (بعنخى) نفسه ، بل إن الإشارة الوحيدة إليها – عندما فتحت لـ " تاف نخت " – خلت من أية تلميحات إلى أسوار أو حصون (٥) . أى على النقيض تماما من وصفها لحصون وأسوار مدن الغرب قاطبة .

ثانيا : أن مدينة مثل " بر – مجد " (البهنسا) لم تكن لها تطلعات عسكرية ، ودواعى موقفها هذا – طبقا لدارسة كسلر التى خص بها الأقاليم الإدارية فى نصوص لوحة النصر – أن " بر – مجد " كانت تهيمن على طريق القوافل المتجهة إلى واحة البحرية ، وعلى حركة المواصلات على امتداد بحر يوسف فى الوقت ذاته (٦) .

ثالثا : أن نصوص اللوحة أشارت إلى ماسلكه " نمرث " من هدم أسوار نفروسى ومدينته ، بينما استعصت على " بى " عند حصارها (٧) ، وهو مايحمل على الاعتقاد بإعادة تحصينها ضد الغازى الكوشى .

رابعا : أن " بى " عند وصوله إلى " منف " وجد أن أهلها زادوا فى استحكامها ببناءات جديدة (٨) .

ويستنتج من ذلك أن إقامة هذه التحصينات إنما تركزت فى الغرب دون الشرق ، ليس لأسباب محلية بقدر مايشير إلى أخطار خارجية تردد صداها منذ أواخر الأسرة العشرين

مرارا ، وقد تمثلت فى تلك الموجات التى دأبت قبائل الماشواش والربو عل شنها ، إذ وجدت طريقها بسهولة إلى طيبة ومصر الوسطى والدلتا (٩) ، وكانت أخطارها لاتزال كامنة فى أفق الغرب حتى الغزو الكوشى لمصر (١٠) التى زادت فى تحصين مدنها إزاءه . أما القول بغير ذلك فهو يناقض وحدة الدلتا ومدن صعيد مصر ضد الغازى الكوشى ، كما يتجلى من المصدر ذاته الذى يخلد انتصاره .

تضمنت لوحة النصر عددا من عناصر العمارة العسكرية التى اكتنفت مدن صعيد مصر ، وعلى الرغم من ذلك فلم تقدم إلينا إطارا مفصلا لتحصينات مدينة بعينها ، إلا ما أشارت إليه من تحصينات فى مواضع متفرقة ، لتثير أمامنا بضعة محاور لتساؤلات ، حول طبيعة هذه العناصر المعمارية ، وتحقيقها من الوجهة اللغوية ، فضلا عن أهميتها ، وأين هى من آثار الحصون والقلاع وتمثيلها فى المناظر ، وهل فى تجميعها أخيرا ما ينهض دليلا على تصور محتمل لشكل هذه المدن المحصنة ؟

- سبتى [hieroglyphs] (نصوص ١-٤،٧،٨)
- ختم (ختمو) [hieroglyphs] (نصوص ٤،٥،٦)
- شم (ت) أو شمو (ت) [hieroglyphs] (نصوص ٧،٨)
- سات (ساوت) [hieroglyphs] (نصوص ٥،٩،١٠-١٢)
- انبو (ت) [hieroglyphs] (نص ٤)

ترجم البعض " سبتى " (فى نص رقم واحد) لتعنى " بوابة " أو " بوابة محصنة " (١٢) بينما رأى البعض فيها " سور دائرى " يكتنف المعبد أو المدينة لحمايتها (١٣) وذهب " جريمال " (وهو أحدث من تناول نصوص اللوحة بالترجمة والتعليق) إلى أن " سبتى " يمثل اصطلاحا فنيا عاما يشير إلى تحصينات مكان ، وترجمها بمعنى " سور " فى الفقرة ذاتها :

" [Aucune] enceinte [des] nomes du sud n' a ferme < ses portes>(١٤)

وقد اعتبر أن أبوابها يجب أن تشغل الفراغ المهشم فى النص . ولكن العلامة [hieroglyph] تستوجب قراءتها (Syllabic) أى ليست مخصصا للفعل " ختم " (١٥) ليقرأ

النص (ن ختم برن سبتى ... نو سبوت نو رسى) أى لم تغلق بوابة (أوباب مجازا) سور (١٦) فى أقاليم الجنوب " .

ولعل هذا الباب يشير إلى النقاط الحصينة فى " سبتى " ، والتى أشارت إليها النصوص بعبارات متباينة :

– فعند حصار " بر سخم خبر رع " (نص ٥) : ختم. ف ختم (أى قلعته مغلقة) .

– وعند حصار " إثت تاوى " (نص ٤) : جم ن. ف سبتى ختم (أى وجد سوره محكما (أو مغلقا) .

– وعند منف : [illegible] (١٧) (عندئذ أغلقوا قلعتهم) .

كما أن هذه القلاع كانت تشرف على مداخل المدن ، التى لايتأتى الاستيلاء عليها إلا بسقوط تلك القلاع (١٨) التى تعد بوابات " سبتى " .

ويتصل بـ " سبتى " تحصينات أخرى عساها أن تتجلى مما أشارت إليه نصوص وصف تحصينات " منف " ، ونعنى بها شمو (ت) :

– سبتى قد (١٩) شسم (ت) ور (نص ٧) أى (سبتى عمر بـ (أو تكتنفه) شمست عظيمة ..)

– عحع ن حم . ف مآ . س م نخت سبتى خى م قد ن مأو شمو (ت) = (نص٨) أى (عندئذ رآها جلالته منيعة ، سورها رفع بعمارة جديدة شمو (ت) (٢٠) .

ترجم " برستد " كلمة " شمت " بمعنى " شرفات " Battlements (أو فتحات جدارية يصوب المدافعون من خلالها) ، وترجمها " جاردنر " و " جريمال " بمعنى " سور أو متراس " وأنها تمثل – على رأى جريمال – نظاما دفاعيا خاصا (٢١) . على الرغم مما أورده " جاردنر " من شواهد عديدة تمثل " شسمت " جزءا من سور ، وتطابق قاعات تحمل اسم " عنرت " (شرفة علوية تطل على البحر يقعد فيها أمير جبيل) (؟) ، بينما رأى فيها " شولمان " أبراج زوايا الحصن(٢٢) وأثبتها المعجم " جزءا من السور الذى يكتنف حصنا أو معبدا ويستخدم فى الأغراض الدفاعية (٢٣) .

إن ترجمة " شمت " بمعنى (سور) قد تخرجنا عن المعنى الدقيق ، لاسيما وأنها تمثل جزءا من سور (سبتى) ، أما أن تعنى (حاجز أو متراس) لهذا السور فقد تبدو أكثر

قبولا ، خاصة وأن النص يشير إلى أنها زادت هذا السور منعة (عبر م نخت ن جم تو وات نت عحا ر. س) . ولايظن أن هذه المراكز الحصينة (شسموت) على امتداد السور (سبتى) - طبقا للمعجم - كانت تخلو من حامية أو قوات ، تتخذ لنفسها ساترا فى شكل أبراج كما ذهب " شولمان " أو شرفات كما تصور " برستد " . وإن صح أن كل هذه التفسيرات لكلمة " شسموت " مجتمعة هى توصيف لهذه النقاط العسكرية ، وإن تناولتها من جوانب مختلفة ، فعساها تلك الأبراج أو الشرفات المنخفضة التى تكتنف السور الخارجى (سبتى) ، كما فى حصن بوهن (عصر الدولة الوسطى ، شكل١) . وتصل ارتفاعاتها إلى سبعة أمتار ونصف ، بينما لايتجاوز ارتفاع السور " سبتى " الذى أقيمت عليه ستة أمتار ، بما يشير إلى أنها أقيمت أعلى هذا السور كما يصفها النص ، ولعل أشكالها أن توحى بما سبق أن أثاره " جاردنر " بأن لكلمة " شسمت " علاقة باسم الكلب (شسم) ، إذ تبدو كما لو كانت قاعية أو رابضة ، فضلا عن وظيفتها الرئيسية فى مطاردة المهاجمين للمدينة إلى جانب معاونة جنود الحامية الذين يعتلون الأسوار العالية ، كما سيتضح من دراسة اسمها فيما بعد .

ويستنتج مما تقدم أن الـ " سبتى " سور خارجى يكتنف المدينة ، وله أبواب تحميه قلاع (ختمو) وتتوزع الـ " شسموت " على امتداد هذا السور لتشكل مراكز دفاع أمامية لرد المهاجمين ومطاردتهم . وإذا كانت نصوص لوحة النصر قد أشارت إلى " شسموت " منف فقط ، فلأن إتقان عمارتها وإخراجها وإنما قد لفت نظر مؤلف النص أو الغازى الكوشى ، فضلا عما نالته تلك المدينة عبر العصور من تحصينات كان من بينها عمارة الـ " شسموت " التى شاعت فى عصر الدولة الوسطى ، ولا يعنى ذلك أن كل أسوار مدن جنوب مصر قد خلت منها !

إن موقع الـ " ساوت " من تحصينات مدن (" طهنا " و " بر سخم خبر رع " و " إهناسيا المدينة " و " منف ") وفقا للنصوص (٥،٩،١٠-١٢) غير معروف . وقد ترجم " برستد " و " جريمال " كلمة " سات أو ساوت " بمعنى سور أو أسوار (٢٥) ، وإن أضاف " جريمال " أنها تعد جزءا من الـ " سبتى " ، إلا أن ترجمته لسائر عناصر هذه العمارة العسكرية على أنها " جدران أو أسوار " - وفق المخصص العام [illegible] - دون تحديد أو توصيف فنى لها قد يقلل من قيمة هذه الترجمات وأهميتها . فموقع الـ " ساوت " ، ومالها من علاقة بـ " سبتى " إنما يتضح من وصف تحصينات منف ، إذ تعرض النص إلى ذكر " سبتى " فى موضعين :

أولهما : عند وصف منف بأنها محاطة بهذا الـ " سبتى " ... والنهر يجرى حول جانبها الشرقى (نص٧) .

ثانيهما : عندما وصل " بى " صباح اليوم التالى إلى شمال المدينة ، فوجدها منيعة ... إلا " أنه :

" (٢٦) جم ن . ف مو ردى وات ر ساو (ت) "

أى (وجد الماء سلك طريقا إلى ساو (ت) . فانقطع من هنا ذكر " سبتى " ، وصار التعامل فى الهجوم على المدينة بتسلق الـ " ساوت " مباشرة (نص١٢) لأسباب أهمها : أن الماء أغرق الـ " سبتى " ، وأوضحت السفن ترسو عند (ساوت ؟) (٢٧) وكان ذلك باعثا على تلك الفكرة التى تفتقت عن ذهن الغازى ، بتثبيت السفن إلى جوار بعضها بحبال مقدماتها التى شدت إلى بيوت المدينة (٢٨)

وثانيا : أن سائر الاقتراحات التى طرحت بين يدى مجلس حرب الغازى إنما اتخذت من " ساوت " نقطة البداية فى اقتحام المدينة (نص١١) – خى ن ساثو ر ساو (ت) . س (٢٩) نرفع الأرض إلى (جوار) ساو (ت) – ها " وقد أمر " بى " على التو بأن (نص١٢) : سنب (٣٠) ساو (ت) عق برو حرى تب اتر " أى (اعتلوا الـ ساو (ت) وادخلوا البيوت المطلة على النهر) .

ولكن هل غرق الـ " سبتى " بمياه الفيضان حقا كان سببا فى تنفيذ الاقتراح بإقامة منحدر أرضى على الـ " ساوت " مباشرة ، لا الـ " سبتى " ذاته ؟ لعل ذلك يتبين من إشارة النصوص ، عندما تقدم " بى " إلى إقليم الأرنب (الأشمونين) عقب الاحتفال بعيد " أوبت " فى الشهر الأول من فصل الفيضان ، اليوم التاسع (نص٣) : " ايرت ثررى ر حبس سبتى شس باك ر سخى ستيو حر ستى خاعو حر خاع عنو " أى (جعل منحدر أرضى (٣١) لتطويق سبتى ، رفع نصب خشبى (سلم ؟) (٣٢) لرفع الرماة ، عندما يرشقون والراجمات (أو النبال)(٣٣) عندما ترمى بالحجارة)

ويتجلى من ذلك أن " بى " إنما اتبع الخطة ذاتها التى نفذها ضد منف ، ولكن وجه الاختلاف أن المنحدر الأرضى هنا أحاط بالـ " سبتى " وليس الـ " ساوت " ، فعسى أن يكون لنا فى قراءة التاريخ ما يبرر ذلك ، إذ يكون الفيضان على أشده فى الشهر الثالث تقريبا ، ربما عندما وصل " بى " إلى منف !

ويستنتج من كل ماتقدم أن " ساوت " ليس جزءا من " سبتى " ، بل منفصل عنـه تمامـا ، وأن هذا الأخير استحكام ضخم يشكل خط الدفاع الأول عن المدينة ، وهو أقل ارتفاعـا – كمـا سبق وأشير – من " ساوت " . وإذا كان " بى " لم يوضح أسلوب تسلقه ، إلا أن اقتراح بعض رجاله بإقامة منحدر أرضى (ساثو أو ثررى) ، ثم ترفع عليه سلما خشبيا (باك) لبلوغه – إنما يضعنا أمام تصور وتقدير ذاتى لما كان عليه الـ " الساوت " من ارتفاع يجعلـه كفئا لخط الدفاع الثانى عن المدينة ، وهو استنتاج قد يصدقه ماتقدمه كلمة " سا (سات < ساوت) من مترادفات عديدة ، كالظهير والحامية والسند (٣٤) . أما من حيث دلالتها الفنية والمعمارية ، فهى دعائم جدارية ، تشكل نقاطا حصينة على امتداد ظهير " سبتى " (السور الخـارجى) ؛ كما يتجلى من وصف حصار " تاف نخت " لمدينة " نن نسوت " ، عندما حدد لكل حـاكم من حكام المدن مهمته (نص٩) : حاتى عا نب رخ سا (ت) . ف دى . ف س نب حمس حر بسش . ف م حاتيو – عا ، حقاو حوت أى (إن كل أمير يعرف سائه ، جعل (أى تـاف نخت) كل رجـل يمكث عند قسمه (٣٥) (المنـوط بـه) من الأمـراء العظـام ، حكـام المدن المسورة) .

إن " سات " فى صيغة الإفراد تشير إلى تعدد وامتداد هذه الدعائم الجدارية التى وصفتهـا نصوص اقتحام (بر سخم خبر رع) بأنها ناهضة أو عالية (نص٥) : جم ن . ف بر سـخم – خبر رع ساوت . ف تسى(ت) (٣٦) ختم . ف . ختم .

ويبدو أن الـ " ساوت " تتطابق مع معنى " انبو " ووظيفته ، إن لم تكن هذه الأخيرة جزءا منها ، فقد وصف (نص٤) حال " اثت تاوى " : " جم ن . ف سبتى ختم انبو مح م مشع قن نو تا – محو " أى (وجد سبتى مغلقا ، انبو مفعمة بجنود الشمال الشجعان) .

فمن المحتمل أن " إنبـو " حلت هنـا محـل " ساوت " لتميزهـا عـن " سـبتى " ، إذ كـانت " إنبو " – وفقا للنص – على مستوى مـن الارتفـاع عن " سبتى " يسـر معـه للغازى " بـى " رؤية مابها من جنود . ومن الصعـب ترجمـة " إنبـو " بمعنـى (جـدران ضخمـة) كمـا ذهـب " جريمال " (٣٧) فإن صح أن " إنبو " فى صيغة الجمع لتلك الواردة فى (أجرومية امنمؤبى : (٣٨) فإنمـا تستوجب قراءتهـا (إنبـوت) مثـل (سـات وسـاوت) ، ولاتعنـى جدرانـا علـى وجـه الدقـة (فـالجدران لا تمـلأ بـالجنود) بقـدر مـايومىء المخصـص (بعد) مـن إشـارة إلـى أمـاكن تعلـو الجـدران أو المتـاريس ، محصنـة بسـياج ذى

زخارف ، كما يتبين من صيغة المفرد المؤنث ، الذى أثبته المعجم (٣٩) . فالمخصص الأخير لهذه الكلمة يشير إلى الزخرفة التى تتوج الحافة الدائرية لشرفات الأبراج الناهضة ، التى تصور دعائم ومتاريس - ناتئة فى هيئة نصف دائرية - (ساوت) لأسوار الحصون (شكل ١، ٢) (٤٠) . وكانت هذه الشرفات أو المنصات التى تعلو الـ " ساوت " تفعم بالجنود ، إذ تتخذ منها ساترا ، وتجعل زمام السيطرة وردع المهاجمين فى يد أولئك الجند ، الذين كان بوسعهم أن يمطروا العدو بسهامهم من عل . واكتنفت هذه الشرفات أو المنصات منذ عصر الدولة الوسطى كوات (مزاغل) ، رؤى الاستغناء عنها منذ عصر الدولة الحديثة ، خاصة فى حصون النوبة ، إذ أدرك المصريون أن وقوف الرماة فى خنادق متصلة أعلى المتاريس (ساوت) وعلى ارتفاع عشرة أمتار ، لهو نظام دفاعى أكثر فعالية لرشق المهاجمين (٤١) . ربما لأنه كان يتيح مساحة أوسع من الحركة للمدافعين .

كما تتجلى هذه الـ " انبوت " أيضا فى بقايا منظر بالرمسيوم لقلعة " دابور " السورية التى استولى عليها رعمسيس (الثانى) (٤٢) ، إذ صورت خنادق متصلة ومكشوفة أعلى متاريسها وأسوارها ، وقد خلت من كوات ، ومانراه فى تصميم الحواف العليا لجدران هذه المنصات من أهمية دفاعية - ربما وفق وجهة نظر المهندس العسكرى - فى التصويب من خلال وحدات هذا التصميم قد تتلاشى هذه الأهمية ازاء تصوير المدافعين ، وقد وقفوا وصدورهم فى وضع مكشوف دون ساتر ، لم لا ! وارتفاعها لايتجاوز خاصر المدافع ! (يقارن منظر ١) .

ليس هناك ماهو أكثر أهمية مما تلقيه بقايا منظر قصر " آشوربانيبال " - فى " نينوى " بالمتحف البريطانى (٤٣) - من أضواء على تصميم جانب من تحصينات العصر ذاته . إذ يصور جانبا من المعارك التى دارت رحاها إبان غزوه لمصر حوالى ٦٦٧ أو ٦٦٣ ق.م (٤٤) لاسيما الحصار الذى طوق به إحدى مدن صعيد مصر ، يرجح أن تكون طيبة ؟ (منظر ١ ، شكل٢) (٤٥) . وتحملنا تفاصيل تحصينات هذه المدينة على مطابقتها مع تلك العناصر المعمارية ، والمفردات اللغوية التى طرحتها لوحة النصر الكوشية ، إلا أن هذا التطابق يستوجب تحديد ثلاثة عناصر رئيسية تضمنها المنظر :

أولا : السور الدائرى المنخفض (٤٦) الذى تتسع منصته لوقوف مهاجمين - على الأقل - إلى جوار بعضهما يوجهان سهامهما فى ساحة تتيح حرية التحرك (إلى اليمين من المنظر) . ويلاصق هذا السور منحدر أرضى ، كان قد أقامه الآشوريون ، على مايبدو لارتياد هذا

السور ، إذ كان يمثل أولى العقبات التى يتعرض إليها مقتحمو المدن والحصون(٤٧) وقد صور المنظر نزول الأسرى من الليبيين والكوشيين من فوقه (٤٨) وسط حراسة آشورية مشددة .

ثانيا : رفعت ثلاثة سلاليم فوق السور الدائرى لترتكز أطرافها العليا على المتاريس البرجية والجدران الخلفية ويرتقى هذه السلاليم رماة الآشوريين ، وحاملو التروس .

ثالثا : يظهر آشوريان (إلى اليسار) وقد هما بنقب قواعد المتاريس لتقويضها باستخدام آلات النقب التى تبدو فى شكل الخوابير (أو العتل) ، كما تظهر كتل الحجارة أو الطوب المقلوع وقد تطايرت ، حاول الفنان أن يبدى بها همة وحركة فى الإنجاز .

ويستنتج من توصيف المنظر هنا . أن السور المنخفض والمنحدر الأرضى الذى رفع ملاصقا له ، والسلاليم الخشبية التى يرتقى عليها رماة الآشوريين ، ما هى إلا ترجمة حركية وتطبيقية لخطة حصار إقليم الأرنب ، من حيث إقامة منحدر أرضى (تررى) ملاصق للسور المنخفض المصمت (سبتى) ورفع النصب الخشبية أو السلاليم (باك) ليرتقى من فوقها الرماة (نص٣) ، وقد إتبعت الخطة ذاتها – كما سبق – إزاء " منف " ولكن الإقتحام بدأ بالـ " ساوت " لا الـ " سبتى " الذى أغرقته مياه الفيضان . ولكن هل المتاريس التى استندت إليها الأطراف العليا للسلاليم فى منظر قصر " آشور بانيبال " هى – كما سبق – الـ " ساوت " الظهير لـ " سبتى " (؟) .

ليس لدينا سوى دليل نصى واحد ، يتبين من حصار " تا دهنت ور نختو " (طهنا) عندما حاربها الكوشيون ، وقد وجدوها مفعمة بجنود الشمال الشجعان (نص١٠) :
عح ن ايرت يون – ن – مس ر . س سغنن ساو (ت) . س . أى (عندئذ استخدمت آلة النقب ضدها ، فهدمت ساو (ت) ها ".

وهذه هى الإشارة الوحيدة التى أوردتها نصوص لوحة النصر فيما يتصل باستخدام آلة نقب الجدران ولكن هل هى ذاتها التى صورت فى أيدى جنود " آشور بانيبال " (؟) .

لقد تعرض اسم هذه الآلة (يون – ن – مس) للعديد من التفسيرات ، ومع ذلك ليست هناك ترجمة أو توصيف قاطع لها . فهى المنجنيق على رأى (برستد وشولمان) أو برج

خشبى مزود بمنجنيق على رأى آخر ، أو سلم للارتقاء على رأى ثالث ، بينما أثبتها المعجم " هادم الجدران " (٤٩) وقد ناقش " جريمال " سائر الآراء ، ورجح الترجمة الحرفية للإسم (برج الاقتراب) أو هو (برج متحرك ؟) ، وقد استند إلى أن هدم الأسوار ليست له علاقة بآلة خشبية . وإن آثار شكوكه فى موضع آخر من مؤلفه (٥٠) . فإن صح أن الفعل " سغنن " (لا سشنن كما قرأه جريمال) (٥١) فعل سببى Causative verb لـ " غنن " (٥٢) فلعل ذلك يشير إلى أن هدم الـ " ساوت " كان نتيجة مباشرة لنقبه وتقويضه بهذه الآلة ، فهى إذن آلة نقب وتقويض لاهدم . وهذا يستوجب تفسيرا جديدا لهذه الآلة ، مع استبعاد ترجمة " يون " إلى " برج " ، بل على الأحرى " عمود " أو " دعامة " خشبية " (طبقا للمخصص)(٥٣) .

أما فعل (مس) فله مترادفات عديدة ، اللافت فيها : " أدخل " و "شد أو جر " (٥٤) ولنا أن نختار منهما واحدة أو نختارهما معا : بمعنى (عمود الدخول أو عمود الشد والجر أو حتى عمود الدخول والجر أو الشد) ، ولما كانت هذه الالة تتعامل مع الجدران ، فإن وظيفتها - وفق الترجمة - اقتلاع الحجارة ، وهى تمثل عصا غليظة ، ربما ذات سلاح معدنى مستطرق أو مدبب يولج فى الجدران ثم يشد بأسلوب عمل العتلة ليخرج قوالب الحجارة ، لذلك فإن من بين مترادفات (مس) " يجلب " (٥٥) ، وهى آلة أولية بسيطة استخدمت - على الاقل - منذ بداية الأسرات (٥٦) ولعلها بذلك أن تطابق تلك المصورة فى منظر قصر " آشور بانيبال " .

ولقد ثبت فى غير موضع من البحث أن الـ " سبتى " يمكن السيطرة عليه من خلال الساتر أو المنحدر الأرضى ، أما الـ " ساوت " فقد استخدمت هذه الآلة البسيطة لتقويضها بما يشير إلى أن المتاريس البرجية الخمس (ليست أربعة كما رآها " برونر ") (٥٧) كانت تمثل الـ " ساوت " ، وهى على غرار تلك المصورة فى قلعة دابور ، وحصون النوبة ، من حيث خنادقها العلوية وشرفاتها ، وتصميم حوافها وإن زادت عليها تلك الشرفات الجدارية التى يقف فيها بعض المدافعين عن المدينة ، كما صور إلى جوارها - لأسفل بقليل - بابين إلى اليمين واليسار لعلهما يؤديان إلى داخل المدينة . فيشير نص حصار (طهنا) إلى أنه وقعت مذبحة عظيمة فى وسط المدينة (خايت عات ايم . س) ، عقب هدم الـ " ساوت " مباشرة .

خلاصة وتعقيب

لم يكن تشييد عمارة المدن العسكرية فى مدن صعيد مصر إلا لـردع الأخطـار الخارجية التىأزعجت البـلاد ، سـواء كـان مصدرهـا الماشـواش والربـو فـى الغـرب أو الكوشـيون فـى الجنوب - ويمكن استخلاص العناصر الرئيسية لعمـارة التحصينـات العسكرية بمـدن صعيد مصر على وجه الخصوص ، من حيـث اشتمالها علـى سـور دائـرى ضخـم (سـبتى) كـانت تكتنفه سواتر جدارية (شموت) ذات شرفات ترتفع عن مستوى السور ، بها كوات أومزاغل يصوب من خلالها أهل المدينة . وتعد مع الـ " سبتى " خط الدفاع الأول عن المدينـة . وتـأتى الـ " ساوت " لتمثل خط الدفاع الثانى (حامية المدينة) ، الأعلى ارتفاعا ، وتمتد الـ " ساوت " على امتداد هذا الخط لتصور متاريس برجيـة ناتئـة عـن الجدران فـى هيئـة نصـف دائريـة ، وتعلوها منصات أوشرفات متصلة بخنادق تعلو الجدران يطلق عليها اسم (انبوت) ، وتتمـيز حوافها العليا بتصميمات ⌓⌓ جعلت سواتر للرماة من فوق المنصــات ، ولانعـرف إن كـان هؤلاء الرماة لم يدركوا وظيفتها الرئيسية وأهميتهـا فوقفـوا وصدورهـم فـى وضـع غـير آمـن ودون ساتر ، أم أن الفنان تغافل عن توظيف هذه التصميمـات رغبـة فـى اظهـار المدافعين ! وتكتنف هذه الـ " ساوت " أبـواب يظـن أنهـا أبـواب المدينـة ، والتـى أشـارت إليهـا النصـوص مقترنة باسم " ختم " (أى قلعة أو حامية) وهى تسمية عامة تشـير إلـى النقـاط الحصينـة فـى الأسوار خاصة الـ " ساوت " فالاستيلاء عليها يعنى سقوط المدينة كما إتضـح فـى " طهنـا " و " منف " حيث كان على الكوشيين أن يقتحموا المنازل عقب اعتلاء الـ " ساوت " .

وقد يبدو من العبث محاولة المطابقة أو حتى مقارنة أطلال مدن صعيد مصر القديمة مـع هذه العناصر من العمارة العسكرية بعد مضى مايقرب من ألفين وسبعمائة عام يظن أنها نـالت جانبـا كبـيرا مـن التطويـر والتغيـير عـبر العصـور ، إلا إذا كـانت قد هجـرت عقـب الغـزو الكوشى . ولكن من المحتمل تصور طابع تحصينات هذه المدن وفقا للعناصر المعماريـة التـى أشارت إليها نصوص اللوحة موضوع هذا البحث . فالإشارة إلى " سـبتى " مدينـة الأشـمونين واللشت أو مجاورتها (بمها أو متانيا) ، ومنف إنما يستنتج منهـا طـابع تحصيـن هـذه المـدن الثلاثـة بـأن اشـتمل علـى سـاتر العنـاصر المعماريـة السـابقة ، ويغلـب علـى الظـن أنـه طـراز تحصين عصر الدولة الوسطى (حصن بوهن ومرجيسة) ، على الرغم من إشارة النصـوص إلى " شمو " منف فقط ! . أما مدن أخرى مثل " طهنا " و " بر سخم خبر رع " (عند مدخـل الفيوم) و " إهناسيا المدينة " . فكان اقتحامها بـاعتلاء الــ " سـاوت " مباشـرة (باستثناء منـف وقد سبق بيانه) أو بتقويض هذه الـ " ساوت " وهدمها (كما فـى طهنـا) أو الحصـار السلبى

لـ " ساوت " إهناسيا ، الذى باشره " تاف نخت " ، دونما إشارة إلى " سبتى " . أى أن هذه المدن اعتمدت على خط دفاع واحد ، وربما شاع هذا الطراز فى عصر الدولة الحديثة خاصة فى حصن بوهن . فبينما تصف النصوص منعة مر - تم (ميدوم) واستغلاقها على الغازى دون وصف لعناصر التحصين عجل مؤلف النص دون سابقة (دى ن . س عحا م ايب . س) أى جعلت الحرب فى قلبها (؟) ، أما ما بقى من مدن صعيد مصر خاصة تلك الواقعة على الضفة الشرقية للنيل فلم تشر النصوص (باستثناء طهنا) إلى مالها من حصون إن وجدت . ولعلنا نجد فى منظر قصر آشور بانيبال أصدق مثال لشكل وطبيعة تحصينات جنوب مصر التى يمكن مقارنتها ، إن لم يكن مطابقتها مع تحصينات الأشمونين (إقليم الأرنب) ، فضلا عما انتواه الفنان من تصوير دونها من مدن صعيد مصر .

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

(٦)

(٧)

(٨)

(٩)

(١٠)

(١١)

(١٢)

(1) GSTP, P1. V, 1. 3 - 4

(2) GSTP, P1. V, 1. 7.

(3) GSTP, P1. VI, L. 32.

(4) GSTP, P1. 1X, L. 83

(5) GSTP, P1. 1X, L. 77.

(5) GSTP, P1. X11, L. 145

(7) GSTP, P1. 1X, L. 88.

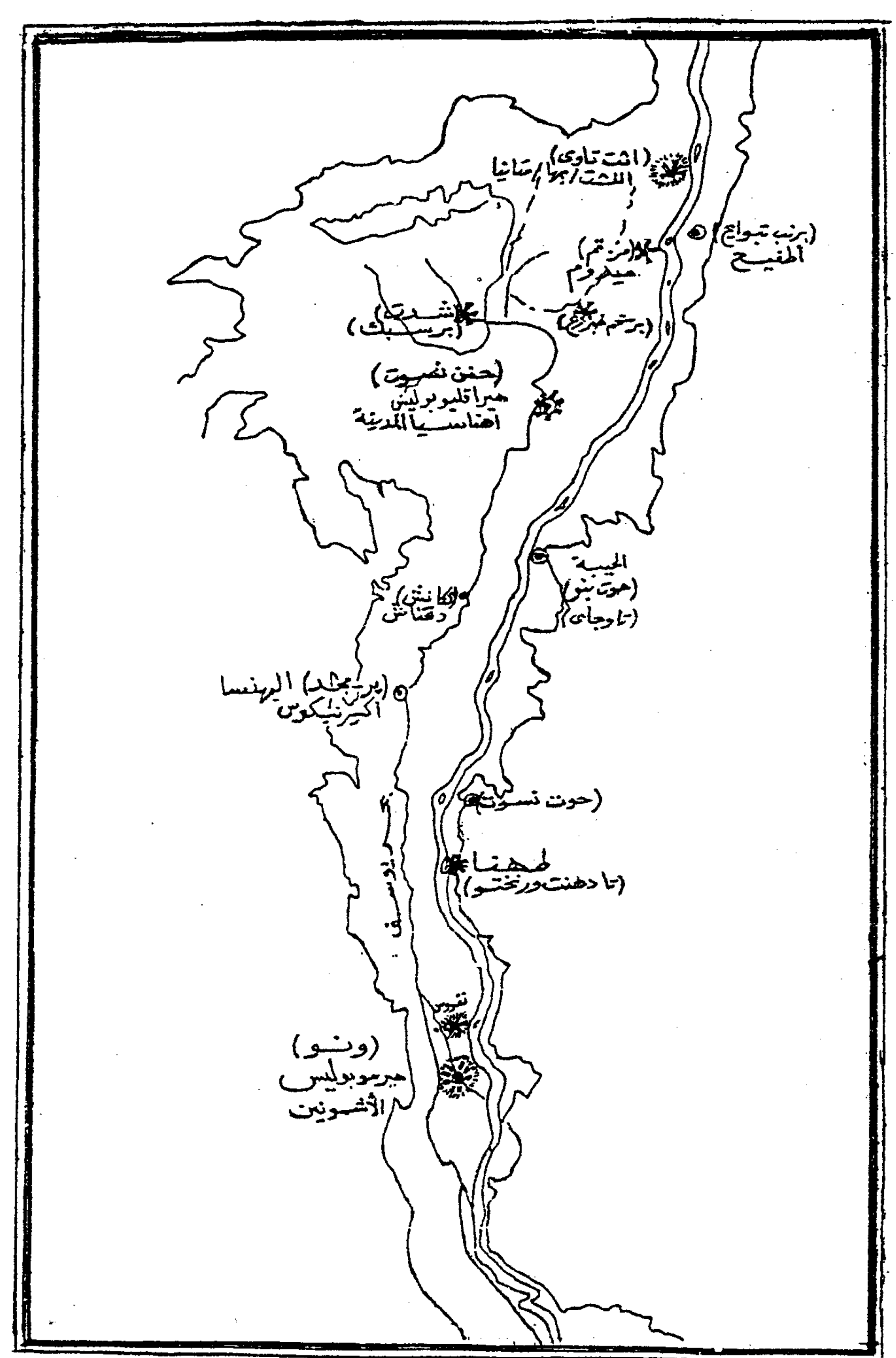
(6) GSTP, P1. 1X, L. 90.

(9) GSTP, P1. V, L. 5.

(10) GSTP, P1. VI, L. 28.

(11) GSTP, P1. 1X, L. 91

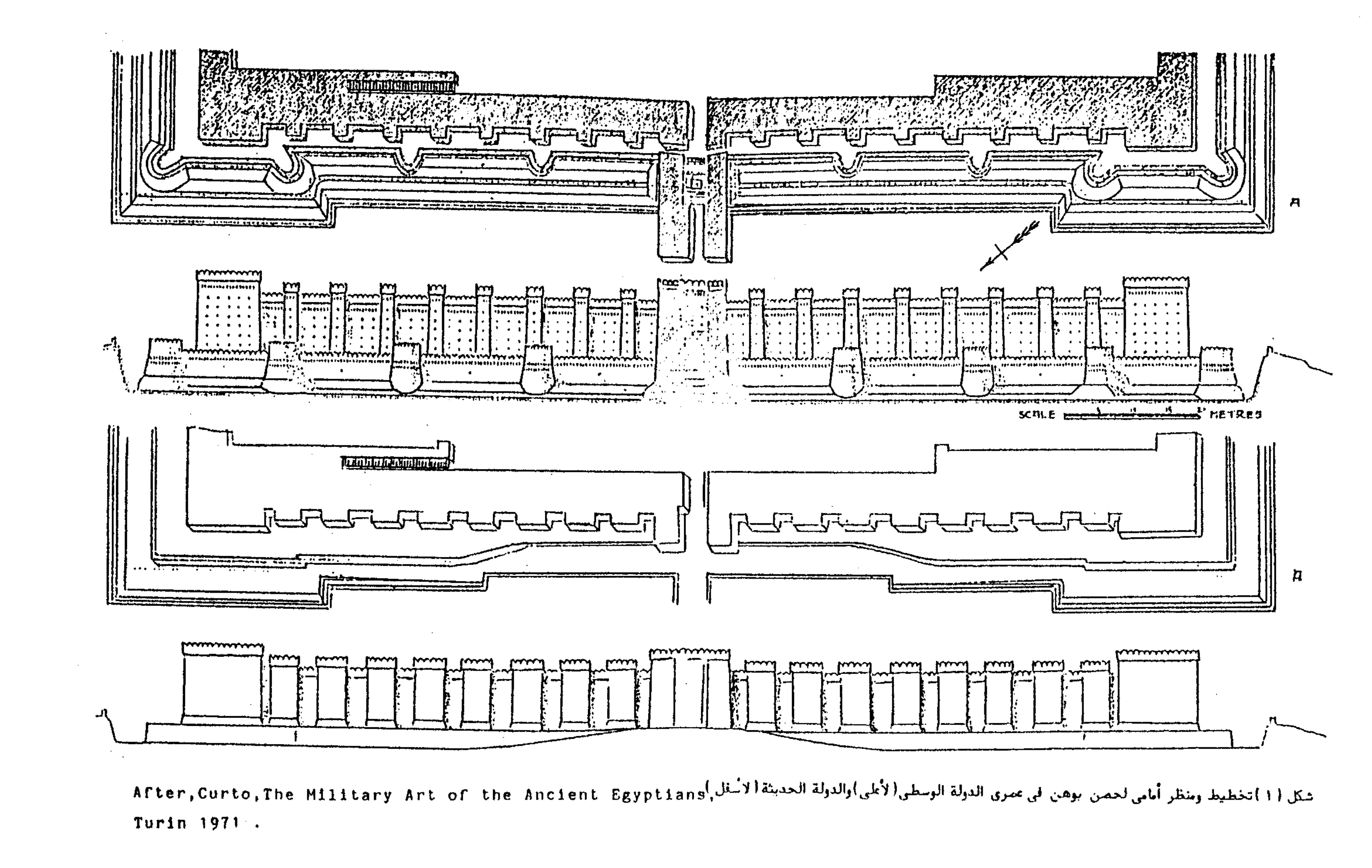
(12) GSTP, P1. 1X, L. 95.



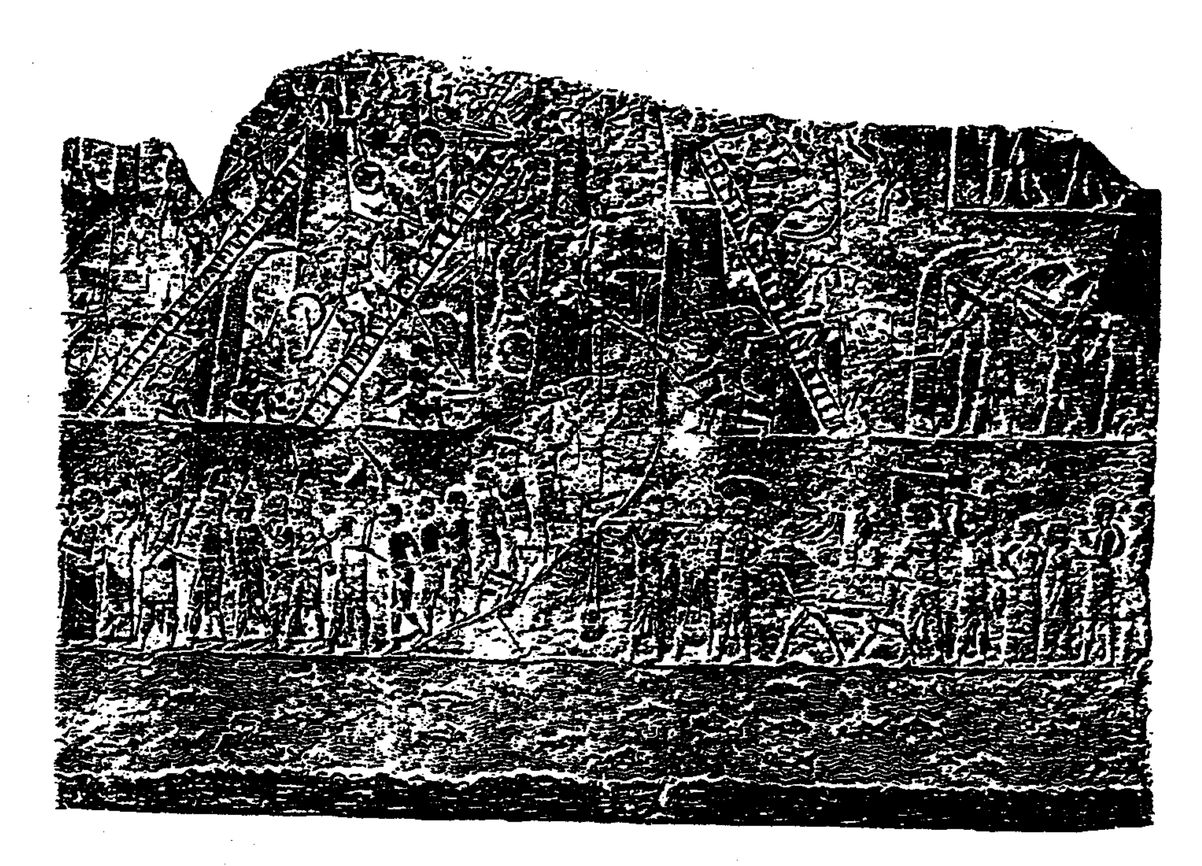
خريطه رقم (١) بأهم مدن صعيد مصر المحصنة

مدن ذات أسوار مزدوجة ⊙ مدن غير محصنة ؟ مدن محصنة بـ " ساوت فقط"

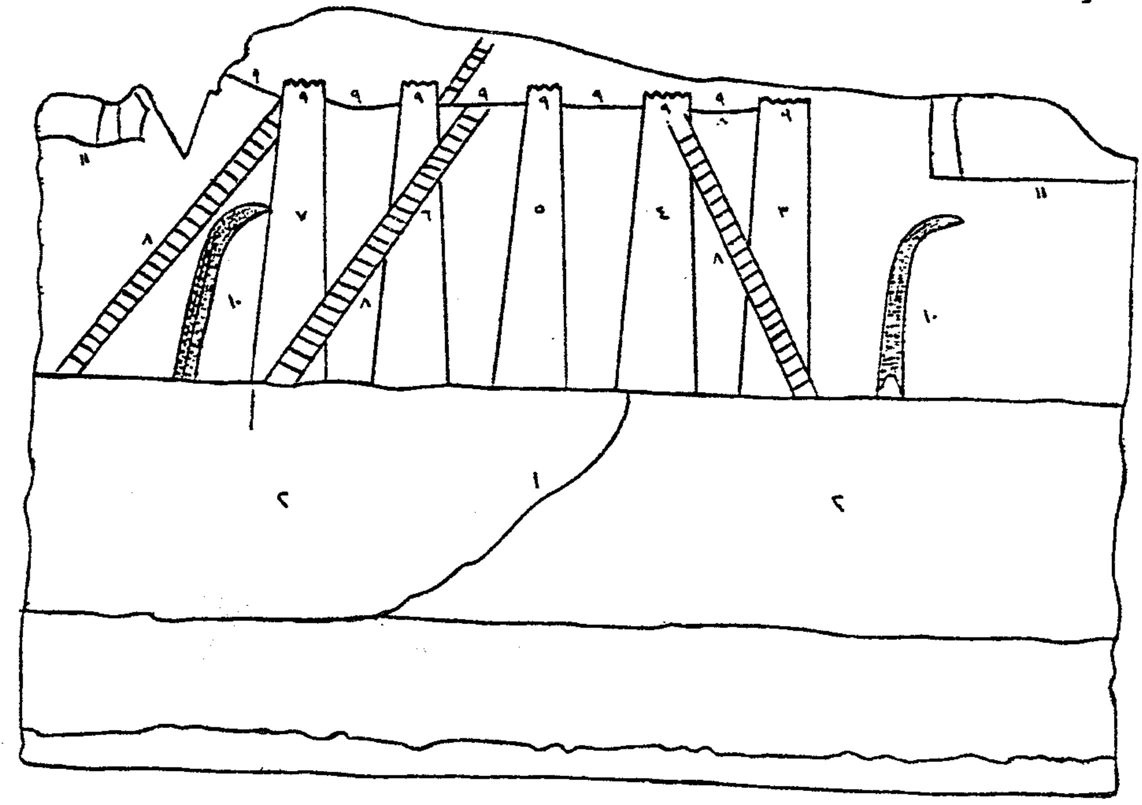
After,Kessler,SAK,9, 1981,p,221



شكل (١) تخطيط ومنظر أمامي لحصن بوهن في عصري الدولة الوسطى (لأعلى) والدولة الحديثة (الأسفل) After, Curto, The Military Art of the Ancient Egyptians, Turin 1971.



After, Smith, Inter-Connection in Ancient Near East, Fig.163. (منظر ١)



(شكل ٢) إعداد البحث (١) ثرى (منحدر أرضى) (٢) سبتى (السور الخارجى للمدينة) ٠ (٣-٧) ال ساوت (المتاريس البرجية) (٨) باك (سلم أوحامل خشبى) ٠ (٩) إنبوت (شرفات وخنادق المتاريس البرجية) ٠ (١٠) بابا المدينة ٠ (١١) شرفة جدارية

حـواشـى البحـــث

يراجع عن مواقع هذه المدن :

(١) Gardiner, A..H., AEO. * = Gardiner , Ancient Egyptian Onomastica, Vol. II, Oxford 1947; Montet, P., Geographie de l'Egypte Ancienne, part. II, Paris 1960; Helck, W., Die Altagyptischen Gaue, TAVO, n.5, Wiesbaden 1974 .

(٢) ينظر عن هذه الدراسات حتى عام ١٩٠٦ :

Breasted , ARE , * IV = Breasted, J.H., Ancient Records of Egypt, Vol. IV. Chicago 1906 , p. 406 , note (a) .

ويستعرض البحث لتناول أحدث هذه الدراسات - كما سيتضح - فى صياغة مادته .

(٣) Spalinger, A., " The Military Background of the Campaign of Piye (Piankhy) , SAK, 7, 1979, p. 281

(٤) David O'Conner, " New Kingdom and Third Intermediate Period " in : Ancient Egypt, A Social History, Cambridge 1984, p.248 f .

(٥) GSTP = La stele triomphale de Pi (ankh) y au Musee du Caire, (JE . 48862 et 47086 - 47089) = MIFAO, 105, 1981, p1.V,L.3- 4 .

(٦) Kessler, D., Zu den Feldzugen des Tefnachte, Namlot und Pije in Mittelagypten, " SAK, 9, 1981, p. 239 .

(٧) GSTP , Pl. v , L. 6 - 7 cf. Pl.VI, L. 31 - 32

(٨) GSTP , Pl. IX, L. 88, 90 .

(٩) Cerny , J., Egypt from the death de ath of Ramsses III to the end of the Twenty - First dynasty , CAH , Vol. II, Part 2 B, Cambridge 1980, p. 616 -

---

* كل ماتحته خط = اختصارات ستتبع فى توثيق مراجع البحث .

(١٠) Yoyotte, J., Les principautes du Delta au temps de l`Ana - rchie Libyenne = MIFAO, 66, 1961, pp. 142 - 151, 28 - 45.

(١١) يراجع الشكلان الثالث والرابع : GSTP, pl. IX, L. 79, 86.

(١٢) Breasted, ARE, iv, p. 419, 818; Simpson, W., Studies in the Twelfth Egyptian Dynasty : I - II", JARCE, 2, 1963, p. 58.

(١٣) Wb, lv, 95, lof; Gardiner, AEO, II, p. 213*; caminos, R., Late - Egyptian Miscellanies, Oxford 1954, p. 46.

(١٤) GSTP, p. 12, 3; cf .p.16, n. 26; p. 236 (A).

(١٥) لم تشر سائر أشكال فعل " ختم " فى نصوص اللوحة إلى مخصصا ، فذكرت فى السطور ٨١،٨٢،٩٦) وبهذا الشكل (فى سطور ٨٣، ٨٥، ٨٦ ، ١٠٥ من سطور اللوحة)

(١٦) فالسياق الزمن فى النص ليس بحاجة إلى صيغة (سجم ن . ف) لذا فان (بر) فى محل فاعل هنا ، و(ن سبتى) مضاف إليه .

GSTP, Pl. IX, L. 86.

(١٧) تراجع دلالة بر (با) مع كلمة ختم فى (ختم بر واج ور = ثارو) :

Gardiner, AEO, I, p. 33*, II, p. 202*; GSTP, p. 84, n. 237.

(١٨) وفى قصة الاستيلاء على " يافا " :

Wilson, J., The Taking of Joppa, in : ANET (ed. Pritchard. J., Princeton - 1969), p.23.

Meeks, ALex, III, p. 304.

(١٩) " قد " تعنى شيد أو عمر أو يكتنف (أو يدور على برج مثلا)

(٢٠) ان " تسمو (ت) " هنا بدل Apposition لعمارة جديدة .

(٢١) Breasted, ARE, IV, p. 433, 859, 861;cf. Gardiner, Gardiner, AEO, II p. 213*; cf. p. 210*; CSTR, p. 112, n. 322; cf. p. p. 116, n. 338.

(٢٢) Schulman, in : Natural History, 73, 1964, p. 19 f. = After Spaliner, SAK, 7, 1979, p. 282, n. 25.

(٢٣) Wb, v,410, 3 - 4; cf. Meeks, ALex., lll,p. 334.

(٢٤) يراجع منظر من الدولة الوسطى ، محمد انور شكرى : العمارة فى مصر القديمة ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٨٧ .

(٢٥) Breasted, ARE, lv,p.420, parg. 819, p.42. parg.838, p. 431, parg.853, p.433, 861;cf,GSTP , p.16 n.26, p.84, n.235, p.236 (A); " outer wall " of Gardiner, Egyptian Grammar , London 1957, p. 587 :

(٢٦) GSTP , Pl.lx,L.89.

(٢٧) نقص فى النص هنا GSTP , pl.lx,L.89 - 90 .

(٢٨) GSTP , pl.lx,L. 94 .

(٢٩) cf. (r Tsj Trt hr s3w (t) . s gm . n w3t nt rdwy . n) = GSTP . 1 . 92

" ساثو " بمعنى الارض أو التربة " يراجع : Meeks , ALex., lll , p. 240 .

(٣٠) بمعنى يتسلق أو يقفز من فوق . Gardiner , Egyptian Grammar , p. 590 .

(٣١) عن " ثررى " بمعنى منحدر أرضى يراجع : Meeks , ALex., lll , p. 332 .

(٣٢) تعرضت " باك " للعديد من التفسيرات ، فهى نصب من الصقالات ، أو مدرج من الخشب أو سلم ، أو برج خشبى أو منصة .

GSTP , p. 61 , n . 134 ; Breasted , ARE , lV, p. 427, parg. 842, n. (b) ; Wb, I , 430 , 13 .

(٣٣) Wb , lll , 229 , 4 ; Spalinger , SAK , 7, 1979 , p. 282 , n. 25 ; cf . GSTP , p. 61 , n . 135 .

Meeks , ALex., III , p. 237 - 238 .

(٣٤) يراجع معنى العلامة [hieroglyph] وفعلها [hieroglyph] بمعنى " يسد أو يحمى " [hieroglyph] " سات " بمعنى " حامية " ومترادفات اخرى :

Jequier , M. G, Note sur deux Hieroghyphes (II le signe [hieroglyph] sa) , BIFAO, 7,1910,p. 94 - 96 .

(٣٥) عن " بسشت " بمعنى " قسم أو نصيب " يراجع :

Meek, ALex ., III, p.102, 102, Wb, I, 554,4ff .

(٣٦) ترجم " جريمال " فعل " شسى " هنا بمعنى أصلح أو رمم الجدران (ساوت) المتهدمة ، وترجمها برستد " مرفوعة " ، ولكن هذه المدينة لم تتعرض من قبل لحرب أو تخريب ، بل فتحت ابوابها لتاف نخت خشية منه (سطر ٤ من نصوص اللوحة) ، وهذه هى المرة الثانية التى تشير النصوص إليها .

لذلك يبدو أن الكلمة تتصل بوصف الـ " ساوت " لاعمارتها ! يراجع :

GSTP , p.84, 235, cf, Breasted, ARE, lv,p. 431, 853 .

(٣٧) GSTP , p.236 .

(٣٨) Gardiner , AEO II,p. 213 * .

(٣٩) Wb, I, 95, 10 .

(٤٠) عن عمارة هذه الأبراج الناتئة فى حصون النوبة وسوريا يراجع :

Weill , R., L`Art de la fortification dans la Haute antique egyptienne " , Journal Asiatique , 9 series , tome XV , 1900 , p. 110ff .; Clarke , S., Ancient Egyptian Frontier Fortresses,JEA,3,1916,pp.155-179; Badawy, A., " Architekturdastellu - ng (R epresentations of Military Architecture) , LA, I , sp . 415 - 471 .

(٤١) Curto , s., the Military Art of the Ancient egyptians , turin 1971 , p. 36 - 37 .

(٤٢) Ibid , p. 23 , cf , p . 9 (fig . without No.) .

(٤٣) Hall , H.R, La sculpture babylonenne et Assyrienne au British Museum , Paris - Bruxelles 1928 , pl XL .

(٤٤) Leo Oppenheim , A., " Babylonian and assyrian Historical Texts " in : ANET , p. 29 4ff .

(٤٥) cf, Brunner, H., " Ein Assyrisches relief mit einer agyptischer Festunng " AFO , 16 , 1953 , p. 257 - 258 , p. 262

(٤٦) فالمنظر يشير إلى قلعة يحوطها سور دائرى مزدوج ، وتغافل الفنان عن تصوير الفاصل بينهما ، وطراز هذا التحصين يأتى على غرار حصن " مرجيسة " ذى السور المزدوج (عصر الدولة الوسطى) ، إذ تبدو هناك مساحة واضحة تفصل بين السورين يراجع :

Ibid , p. 255 - 257 ; cf , Clarke , JEA , 3, 1916 , pl. 28 .

(٤٧) يراجع فنون وطرق الاقتحام :

Weill , La Art de la fortification ,p. 24off .

(٤٨) عن تحقيق هذا الجانب من المنظر من حيث : الملبس ، الريشة المنتصبة من فوق الرأس وملامح الوجه يراجع :

Brunner , AFO , 16 , 1953 , p. 258 - 260 ; Smith , W. S. , Inter - Conn-- ection in Ancient Near East , London 1965 , pp. 56 - 57 , Fig. 163 ; Spalinger , SAK , 7, 1979 , p. 283 , n . 26 .

(٤٩) Breasted , ARE , IV , p. 426 , parg. 838 ; Schulman , op. cit . , p. 19f ; Wb . I , 54 , 3 : cf Badawy , A ., LA , I , sp . 4

(٥٠) GSTP , p. 48, n . 119 , p. 236f , n . 739.

(٥١) تراجع العلامة فى سطور ١٤٦،٩٦،٥٥،٤٢ من نصوص اللوحة ذاتها . ( ) Gardiner , Egyptian Grammar , p. 591 , 987 .

(٥٢) إن الفعل نفسه (سغنن) استخدم للاشارة إلى ماسلكه نمرث من هدم اسوار نفروس بسبب تقدم تاف نخت (نص٢) خشية أن تسقط فى يد " تاف نخت " فتصبح نقطة حصينة للانطلاق إلى مدينة أخرى كما ذكر النص ذاته . GSTP , L-6-7

أما مدينة " نمرث " نفسه فقد استخدم النص فعل " وهن " بمعنى " هدم " أيضا لكن يبدو أنه كان من الصعب على مؤلف النص أن يحله محل " سغنن " التى تعين السبب . وفى مواضع أخرى استخدمت فيها اساليب أو آلات الحصار كانت تتبع بفعل سببى : cf . L. 32 , 91 .

(٥٣) cf , Meeks , ALex , III , p. 13 .

(٥٤) Meeks , ALex , III , p. 130 .

(٥٥) أى يجلب أو يقلع الحجارة (يقارن لقب " مس - انر ") KRI .II , p.38,8

(٥٦) weill , L`Art de la fort ., p. 112f , p. 239f .

(٥٧) Brunner , AFO , 16 , 1953 , p. 254 .



اتفاقيـــة البقط بين ولايـة مصر الإسلاميـــة
ومملكة النوبة المسيحية ، سنة ٣١هـ
" دراسة تاريخية "

د. أسامة محمد فهمى صديق
مدرس التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة أسيوط

" تقع بلاد النوبة الأصلية (سودان وادى النيل) بين مصر فى الشمال والسودان فى الجنوب وبلاد قبائل البجة فى الشرق والصحراء الكبرى فى الغرب وقبائل البجة هى القبائل التى تقيم فى الأراضى الواقعة بين البحر الأحمر شرقا ونهرعطبرة ثم النيل الأكبر غربا وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية فى الجنوب إلى نهاية أسوان بمصر فى الشمال، وفى القرن السادس الميلادى استقرت أحوال بلاد النوبة وانتشرت المسيحية بين النوبيين وأنشئت مملكة مسيحية ، عاصمتها بلدة " فرس " ، ثم تحولت العاصمة بعد ذلك إلى بلدة أنشئت فى العهد المسيحى وهى " دنقلة القديمة " ، كما أنشئت مملكة علوة وعاصمتها " سوبة " ، وكانت بلاد النوبة (١) ترتبط بمصر بروابط جغرافية وسياسية واجتماعية قوية ومتينة منذ أقدم العصور، وإذا كانت مصر قد تعرضت منذ سنة " ١٨هـ " للفتوحات الإسلامية، وأصبحت " سنة ٢١هـ / ٦٤٢ م " ولاية إسلامية ؛ كان من الصعب أن تظل بلاد النوبة بعيدة عن تيار الفتوحات الإسلامية المتقدم من مصر " (٢) .

" وكانت النوبة فى ذلك الوقت مركزا لمملكة مسيحية قوية ومستقلة هى مملكة دنقلة (مملكة مقرة) (٣) التى امتدت من أسوان حتى جزيرة ساى ومدينة كورتى " (٤) .

محاولات الجيش الإسلامى فتح بلاد النوبة :

لم يقف العرب عند فتح مصر بل اتجهوا إلى تأمين حدود مصر ، ومنها الحدود الجنوبية (٥) ، فان فاتح مصر عمرو بن العاص " لم يغفل تأمين هذه الحدود " . فأرسل

عبدالله بن سعد بن أبى سرح علـى رأس جيش عظيم لفتح بـلاد النوبـة (٦) وكـان ذلـك سـنة ٢٠هـ أو سنة ٢١هـ (٧) .

تحدث بتلر (٨) عن هذه الحملة الإسلامية لفتح بلاد النوبة بقوله " أصبح السـلام سـائدا فـى كل بلاد مصر السفلى وبلاد وادى النيل إلى حدوده الجنوبية عند أسوان ، ولكن السـودان كـان عند ذلك قذى فى عين حكام مصر ، وهو لا يزال كذلك فى كل العصور ، وذلك لأن قبائله لا يسهل قيادها ، وكانت فى جبالها أو صحرائها لا ترضى بدين المسيح بـدلا ولا تحب الدخـول فى الإسلام ، ولا تزال تنظر إلى بلاد مصـر ذات الخيرات على أنهـا غنيمـة لهـا كمـا كـانت لآبائها وأجدادها لا تدع الإغارة عليها .

وقد أرسل عمرو إلى بلاد النوبة جيشا يغزوها ولكنه لم يستطيع أن يهزم أهلها بل أضطـر للعودة ، بعد أن لحقت به خسـارة عظيمـة ممـا أصـاب النـاس مـن سـهام رمـاة النوبـة " الذيـن سماهم العرب كما يذكر ابن عبدالحكم والمسعودى " رماة الحدق " (٩) .

اتفاقية البقط سنة ٣١هـ :

عاود عبدالله بن سعد بن أبى سرح محاولة فتح بلاد النوبة " سـنة ٣١هـ " ، أثنـاء ولايتـه على مصر من قبل الخليفة عثمان بن عفان (١٠) ووصلت حملته إلى دنقله (١١) .

وأمام قوة الجيش الإسلامى ، لـم يجـد ملـك النوبـة بـدا مـن التسـليم وطلـب الصلـح (١٢) ، وعقـدت اتفاقيـة بيـن ولايـة مصـر الإسـلامية ومملكـة النوبـة المسـيحية عرفت باتفاقيـة البقـط *" Pactum "* (١٣) .

أشارت المصادر التاريخية (١٤) إلى اتفاقية البقط لأهميتهـا فـى تحديـد العلاقـات السياسية والاقتصاديـة بيـن ولايـة مصـر الإسـلامية ومملكـة النوبـة المسـيحية ولكـن المقريـزى فـى خططه (١٥) ، أورد تفاصيلها ، فنجده يتحدث عن معنى البقط بقولـه : " البقـط مـا يقبـض مـن سبى النوبة فى كل عام ويحمل إلى مصر ضريبة عليهم فإن كانت هذه الكلمة عربية فهى إمـا من قولهم فى الأرض بقط من بقل وعشب أى نبذ من مرعى فيكون معناه علـى هـذا نبـذه مـن المال أو يكون من قولهم أنا فى بنـى تميـم بقطـا مـن ربيعـة (١٦) ، أى فرقـة أو قطعـة فيكـون معنـاه علـى هـذا فرقـة مـن المـال أو قطعـة منـه ومنـه بقط الأرض فرقـة منهـا وبقـط الشـىء

فرقه . . . . والبقط أيضا ما سقط من التمر إذا قطع . . فيكون معناه على هذا بعض ما فى أيدى النوبة . . . . " ، أما الدكتورة سيدة كاشف (١٧) فترجح " . . . أن كلمة بقط من كلمة Pactum اللاتينية ومعناها عقد أو اتفاق ، وقيل إنها كلمة مصرية قديمة بمعنى عبد . . . " فالبقط كان عبارة عن اتفاقية سياسية واقتصادية بين ولاية مصر الإسلامية ومملكة النوبة المسيحية .

أشارت المصادر التاريخية كابن عبدالحكم (١٨) ، والمسعودى (١٩) ، إلى أن تاريخ عقد اتفاقية البقط كان " سنة ٣١ هـ " ، إلا أن المقريزى فى خططه (٢٠) ، أشار إلى أن بداية ما تقرر من البقط كان سنة " ٢٠ هـ أو ٢١ هـ " ، ثم نقضت النوبة هذا الصلح " حتى غزاهم مرة ثانية عبدالله بن سعد بن أبى سرح وهو على إمارة مصرفى خلافة عثمان بن عفان . . سنة إحدى وثلاثين وحصرهم بمدينة دنقلة حصارا شديدا . . حتى طلب ملكهم واسمه قليدوروث الصلح " ، الذى عرف باتفاقية البقط (٢١) ، ونرجح أن اتفاقية البقط كانت سنة " ٣١هـ " ، لأن حملة سنة ٢٠ أو ٢١ هـ فشلت على بلاد النوبة (٢٢) .

انفرد المقريزى فى خططه (٢٣) ، بذكر تفاصيل اتفاقية البقط سنة "٣١هـ " ، فنجده يتحدث عن اتفاقية البقط بقوله : " . . . وكان يؤخذ منهم فى قرية يقال لها القصر مسافته من أسوان خمسة أميال فيما بين بلد بلاق وبلد النوبة وكان القصر فرضة لقوص . . . " ، " . . وكلب ملكهم واسمه قليدوروث الصلح وخرج إلى عبدالله وأبدى ضعفا ومسكنة وتواضعا فتلقاه عبدالله ورفعه وقربه ثم قرر الصلح معه على ثلاثمائة وستين رأسا فى كل سنة ووعده عبدالله بحبوب يهديها إليه لما شكا له قلة الطعام ببلده وكتب لهم كتابا نسخته بعد البسملة عهد من الأمير عبدالله بن سعد بن أبى سرح لعظيم النوبة ولجميع أهل مملكته عهد عقده على الكبيروالصغير من النوبة من حد أرض أسوان إلى حد أرض علوة ، أن عبدالله بن سعد جعل لهم أمانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة أنكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبى صلى الله عليه وسلم أن لا نحاربكم ولا ننصب لكم حربا ولا نغزوكم ما أقمتم على الشرائط التى بيننا وبينكم على أن تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه وندخل بلدكم مجتازين غير مقيمين فيه وعليكم حفظ من نزل بلدكم أو يطرقه من مسلم أو معاهد حتى يخرج عنكم وأن عليكم رد كل آبق خرج إليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه إلى أرض الإسلام ولا تستولوا عليه ولا تمنعوا منه ولا تتعرضوا لمسلم قصده وحاوره إلى أن ينصرف منه وعليكم حفظ المسجد الذى ابتناه

المسلمون بفناء مدينتكم ولا تمنعوا منه مصليا وعليكم كنسه وإسراجه وتكرمته وعليكم كل سنة ثلاثمائة وستون رأسا تدفعونها إلى إمام المسلمين من أوسط رقيق بلادكم غير المعيب يكون فيها ذكران وإناث ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم تدفعون ذلك إلى والى أسوان وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان ، فإن أنتم آويتم عبدا لمسلم أو قتلتم مسلما أو معاهدا أو تعرضتم للمسجد الذى ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم أو منعتم شيئا من الثلاثمائة رأس والستين رأسا فقد برئت منكم هذه الهدنة والأمان وعدنا نحن وأنتم على سواء حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، علينا بذلك عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ولنا عليكم بذلك أعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من أهل دينكم وملتكم الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك كتبه عمرو بن شرحبيل فى رمضان سنة إحدى وثلاثين .."

نقـــد إتفاقيـــة البقط :

يتضح مما أورده المقريزى ، أن " اتفاقية البقـط " كـانت بمثابـة معـاهدة سياسية وتجاريـة ودينية بين ولاية مصر الإسلامية ومملكة النوبـة المسـيحية ، قوامهـا ألا يعتـدى أحدهمـا علـى الآخر وأن تؤدى النوبة إلى مصر عددا معينا من الرقيق كل سنة وأن تؤدى مصر إلى النوبـة قدرا معينا من منتجات مصر " (٢٤) .

" على أن اتفاقية البقط لم تحقق لمصر الإسلامية أيـة سيطرة سياسـية علـى مملكـة النوبـة المسيحية " (٢٥) . وأورد بتلر عن ذلك (٢٦) : " أن الصلح كان صلح ندين إذ لم يكن الوقت قد حان لفتح بلاد السودان " .

ونستطيع من خلال تتبع الحوادث التاريخية بين بلاد النوبة ومصـر الإسـلامية ، أن نقرر أن اتفاقية البقط لم تضع حدا للعلاقات المضطربة بيـن مملكـة النوبـة المسـيحية وولايـة مصـر الإسلامية فى العصور الوسطى " (٢٧) " فاتفاقية البقط كانت تنقض بيـن حيـن وآخـر ، وكـان ملوك النوبة يقدمون على غزو الصعيد الأعلى كلما أحسوا من أنفسهم القوة على هـذا الغـزو ، وظنوا أن الحكومة المصرية لن تستطيع أن تصدهم إلا بعد فترة يتاح لهم فيها أن يظفروا بمـا يريدون من السلب والنهب " (٢٨) .

ومع ذلك فقد ظلت تجارة الرقيق رائجة بين مصر وبلاد النوبة طوال العصور الوسطى.(٢٩)

أما النتائج الدينية لاتفاقية البقط ، فقد تعهدت مملكة دنقلة " بحفظ المسجد الذى ابتناه المسلمون فى دنقله لا يهدموه ويذكر الدكتور حسن أحمد محمود (٣٠) . وقد أغفلت النصوص التى وردت فى المقريزى وغيره من المراجع عن اتفاقية البقط نصا مقابل تعهد أهل النوبة بحماية المسجد ، نص ينظم التعاون الدينى بين كنيسة النوبة بحماية المسجد ، نص ينظم التعاون الدينى بين كنيسة النوبة وكنيسة الإسكندرية ، فقد كان مسيحيو النوبة على المذهب اليعقوبى ، فكانوا يتبعون الكنيسة المرقسية فى الإسكندرية ؛ لأن هذه المعاهدة أخذ وعطاء ، وليس بمعقول أن يعطى أهل النوبة ولا يأخذون ، فالروايات التاريخية تجمع على أن البقط ليس بجزية ولا خراج " .

" إذن هى معاهدة مصالح مشتركة ، تأمين النواحى الاقتصادية والتجارية والدينية وتشجيع للتبادل التجارى ، وتنظيم طبيعى للعلاقات وإقرار السلام على الحدود المشتركة ، لذلك ظلت سارية المفعول أكثر من ستمائة سنة " .

" كانت هذه المعاهدة استهلالا لتسرب الإسلام الى بلاد النوبة تسربا سلميا فى فترة استمرت حتى بداية العصر المملوكى فى مصر ، تسربا تشد من أزره عوامل عديدة : سياسة الدولة الإسلامية فى مصر ، وموقفها من بلاد النوبة ، واتصال العلاقات التجارية بين البلدين فى ظل هذا السلام وحرية التبادل التجارى بين القطرين وهجرات الجماعات " ، وكأنى بملوك النوبة قد دقوا أول مسمار فى نعشهم حين فتحوا الباب أمام التيار الإسلامى ليغمر بلادهم ، وليغير مصيرها الاجتماعى والدينى ، ويؤذن بنهاية المسيحية ونهاية مملكة دنقلة نفسها "(٣١)

" وظلت علاقات الدول الإسلامية بمصر ببلاد النوبة يغلب عليها طابع المسالمة وكانت هذه العلاقات فى الحقيقة يتحكم فيها عاملان "

" **أولهما : معاهدة البقط** ، التى نظمت العلاقات السلمية والتبادل التجارى بين البلدين " ، وسوء العلاقات بين الطرفين يعود إلى نقض اتفاقية البقط ، وكان نقض هذه الاتفاقية فى الغالب من ناحية ملوك النوبة " ، " **والعامل الثانى** الذى كان يتحكم فى هذه العلاقات

ويوجهها، الصلات الدينية بين مصر وبلاد النوبة ، فقد كان مسيحو النوبة يتبعون كنيسة الإسكندرية ، وكانت كنيسة مصر خاضعة للنفوذ الإسلامى ، ويبدو أن الكنيسة القبطية فى مصر كلما تعرضت لحملة من الاضطهاد استنجدت بملوك الحبشة أو ملوك النوبة " ، " **والعامل الثالث** الذى كان يشد من أزر التسرب السلمى للإسلام هو التبادل التجارى بين البلدين ، هذا التبادل الذى نظمته معاهدة القبط ، ومعنى هذا أن تجار المسلمين كان باستطاعتهم أن ينفذوا إلى بلاد النوبة ، وهم عادة كانوا من خير الدعاة إلى الإسلام ، والتجار النوبيون المنحدرون إلى بلادهم من مصر كانوا يتحدثون عن أحوال البلاد الدينية ويتأثرون بما يشاهدون من معالم الحضارة " " أما **العامل الرابع** المؤثر فى نشر الإسلام فى بلاد النوبة ، فكان هجرة الأفراد والجماعات العربية والإسلامية إلى بلاد النوبة وخاصة منذ القرن الثالث الهجرى " (٣٢) .

الهوامش

١- " كان المقصود ببلاد النوبة فى تلك الفترة : " سكان الإقليم الجغرافى الذى كان يمتد فى العصور الوسطى من جنوب أسوان وحتى دنقلة بل وجنوبها أحيانا " ، وأدى موقع المنطقة النوبية ومجاورتها للقبائل الأفريقية فى السودان إلى أن تكون بلاد النوبة مسرحا لامتزاج المميزات السلالية الأفريقية والقوقازية ، فقد عاش فيها المصريون وتبادلت معهم الشعوب الأفريقية الإقامة فيها فى فترات متتالية . . وعلى الرغم من تعدد السلالات والجماعات التى دخلت بلاد النوبة ، فالإقليم النوبى كان يفرض عبقريته على هذه العناصر السكانية ، ومما يدل على هذا فإنه على الرغم من تعدد عناصر السكان . . فالنوبيون ينتمون إلى السلالة القوقازية ، وظل النوبيون فى تاريخهم الطويل متمسكين بثقافتهم وبلغتهم الخاصة : راجع : سعاد ماهر : مدينة أسوان وآثارها فى العصر الإسلامى ، (طبعة دار الشعب ، القاهرة : ١٩٧٧م) ، ص ٤ - ١١ ، على زين العابدين : فن صياغة الحلى الشعبية النوبية ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٨١م) ، ص ٢٧-٣٩ .

٢- عن الفتح الإسلامى لمصر : راجع : ابن عبدالحكم : فتوح مصر وأخبارها (ط١ ، مكتبة مدبولى ، القاهرة : (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م) ، ص ٥٣-٩٠ ، سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٤-١١ .

٣- دنقلة : " مدينة عظيمة ببلاد النوبة ، ممتدة على ساحل النيل النوبى ، وهى منزل ملكهم كابيل ، وأهلها نصارى يعاقبه . . " انظر : القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد ، (دار صادر - بيروت ، د . ت) ، ص ٣٩ ، وكانت " دنقله " تعرف فى العهد العربى باسم دمقلة، انظر : ابن عبدالحكم : المصدر السابق ص ١٨٨ ، سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الولاة " من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ، " تاريخ المصريين رقم (١٤) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٨٨م) ، ص ٢٢ ، حاشية (١) .

٤- انظر: سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٤-١١ ، " اعتنق النوبيون المسيحية فى القرن السادس الميلادى ، واستمر النوبيون على دينهم الى القرن الرابع عشر ، عندما اعتنق ملك النوبة الاسلام وأسلمت جميع رعيته . . " ، راجع : على زين العابدين : المرجع السابق ص ٣٥-٣٦ ، راجع : خريطة (٢) .

٥- سيدة اسماعيل كاشف : المرجع السابق ص ٢١ .

٦- راجع : المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقريزية ، جـ ١ ، (ط٢ ، الناشر مكتبة الثقافة الدينية القاهرة : ١٩٨٧م ، طبعة مصورة عن طبعة بولاق سنة ١٢٧٠هـ) ، ص ١٩٩-٢٠٠ ، سيدة كاشف : المرجع السابق ص ٢١ ويذكر ابن عبدالحكم " أن عمرو بن العاص بعث نافع بن عبدالقيس الفهرى الى بلاد النوبة " راجع : ابن عبدالحكم : المصدر السابق ص ١٩٦-١٧٠ .

٧-المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٠٠ .

٨- ألفريد . ج . بتلر : فتح العرب لمصر ، عربه محمد فريد أبو حديد ، جـ٢ ، (تاريخ المصريين (٢٨) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م) ، ص ٣٧٥ .

٩- لأنهم أصابوا من جيش عبدالله . . . عين معاوية بن حديج وغيره : راجع : ابن عبدالحكم : المصدر السابق ص ١٨٨ ، المسعودى مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، جـ٢ ، (المكتبة العصرية بيروت : ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م) ، ص٢١ ، ويذكر ابن عبد الحكم : أن هذه الحملة كانت سنة (٣١هـ) : ابن عبدالحكم : المصدر السابق ص ١٨٨ .

١٠- راجع : المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٠٠ ، سيدة كاشف : المرجع السابق، ص ٢١ .

١١- راجع : المقريزى : المصدر السابق ، جـ١، ص٢٠٠، سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص ٢١ - ٢٢ .

١٢- راجع : ابن عبدالحكم : المصدر السابق ص ١٨٨ ، سعاد ماهر : المرجع السابق ص ٩ - ١١ .

١٣- سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص٢٢ ، حاشية (٢) .

١٤- راجع : المسعودى : المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٢١-٢٣ ، ابن عبدالحكم : المصدر السابق ١٨٨ - ١٨٩ ، المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ص ١٩٩-٢٠٢ .

١٥- بقط فى الأرض " بقط من بقل وعشب أى نبذ مرغى ، يقال : أمسينا فى بقطة معشبة أى فى رقعة من كلأ .... البقط جمعه بقوط ، . . راجع : ابن منظور : لسان العرب جـ٤، دار المعارف ، د . ت ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ ، المقريزى : المصدر السابق جـ١ ، ص ١٩٩-٢٠٢ .

١٦- " تميم من بنى طابخة من خندف من مضر من عدنان من عرب الشمال ، وربيعة أحد أقسام عرب الشمال : راجع : عبدالله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، (الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٩٢م) ، ص٧٧-١٤٢ .

١٧- سيدة كاشف : المرجع السابق ، ص٢٢ ، حاشية (٢) .

١٨- ابن عبدالحكم : المصدر السابق ص ١٨٨ .

١٩- المسعودى : المصدر السابق جـ٢ ، ص ٢١ .

٢٠- المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٠٠ .

٢١- المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٠٠ .

٢٢- راجع : بتلز : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٧٥ .

٢٣- المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٠٠-٢٠١ .

٢٤- سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، (تاريخ المصريين ، رقم ٢٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م) ، ص ٣٥٨ .

٢٥- راجع : سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص ١٢ .

٢٦- بتلر : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص٣٧٥ .

٢٧- سعاد ماهر : المرجع السابق ، ص١٢-١٦ .

٢٨- راجع : المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٠٠-٢٠٢ ، سيدة كاشف : مصر فى عصر الإخشيديين ، ص ٣٥٨ .

٢٩- سيدة كاشف : مصر فى عهد الاخشيديين ، ص ٣٥٨ ، راجع ... عن مصر الإسلامية

A . A . Paton , F.R,G.S, History of the Egyptian Revolution ..., Vol 1 , :
London, 1870 , PP, 1- 73

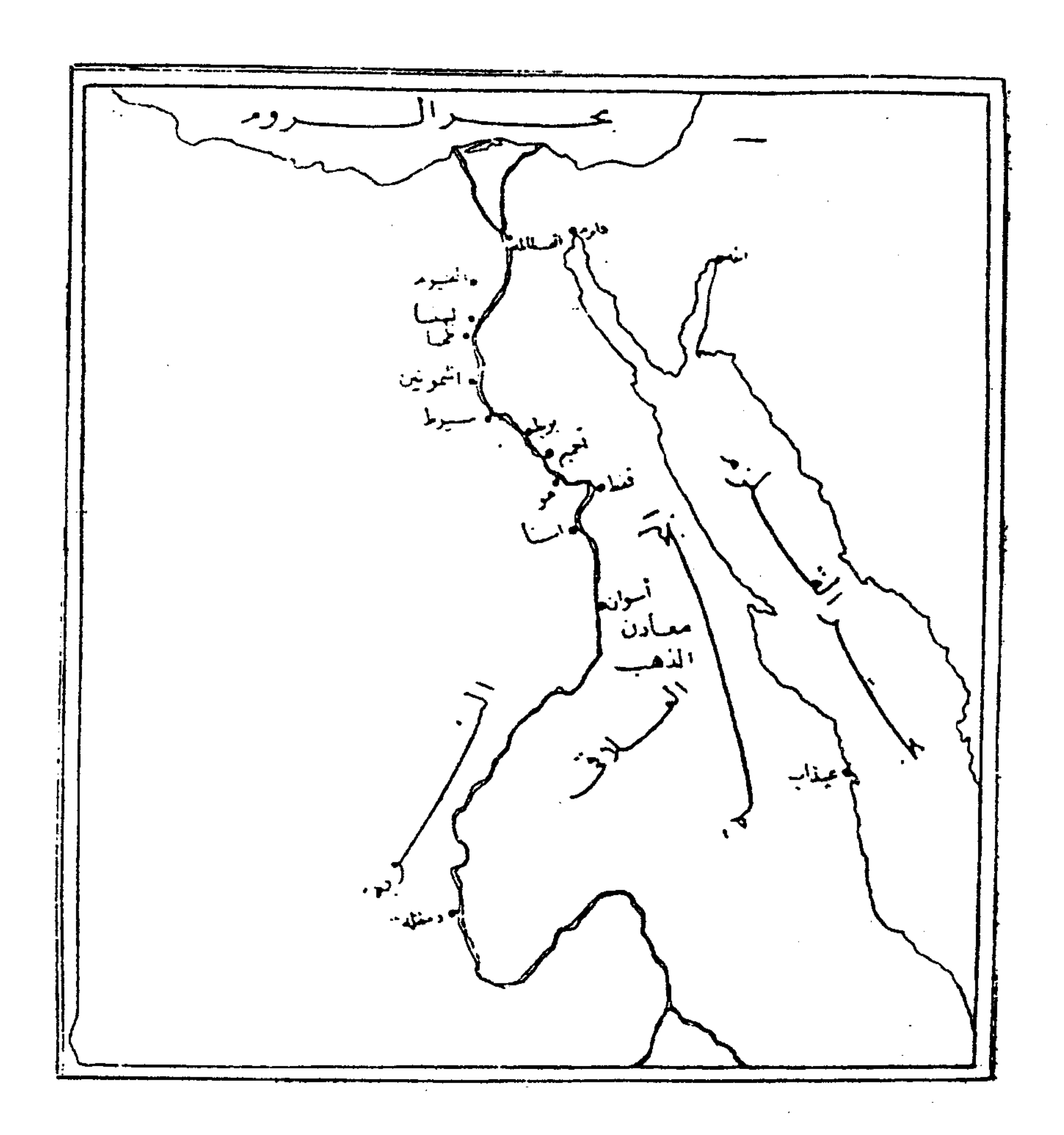
٣٠- حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا ، ط٢ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، (١٩٨٦م) ، ص ٢٨٣-٢٨٤ ، ٢٨٥ ، دخلت المسيحية الى بلاد النوبة من مصر على يد المبشرين المصريين الذين ذهبوا الى هذه البلاد فى القرنين الأول والثانى للميلاد ، راجع حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص ٢٨٠ .

٣١- حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص ٢٨٤ .

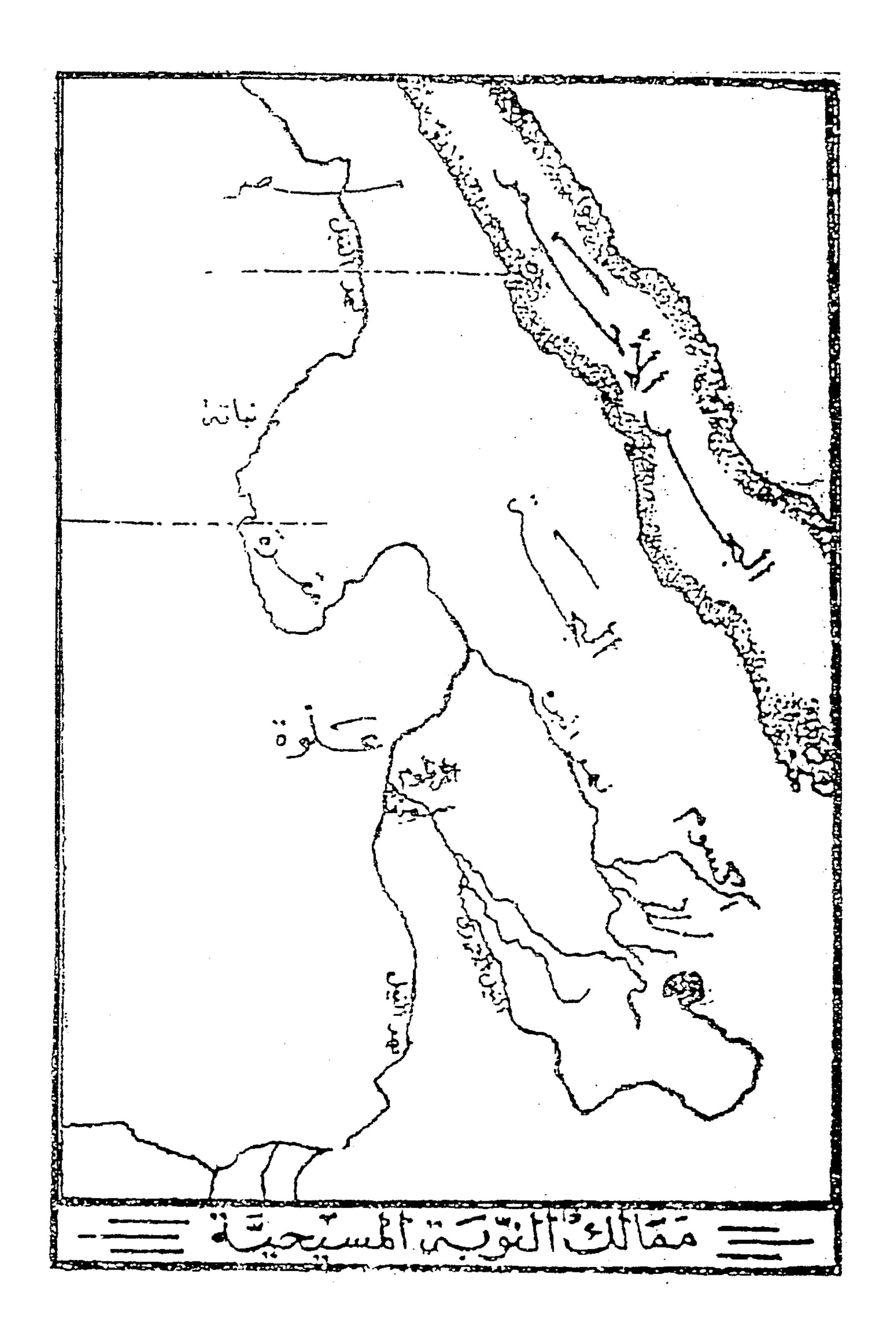
٣٢- راجع : حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ١٧٢ - ١٧٧ ، ٢٧٧ - ٣٤٤ .

٣٣- خريطة مصر العليا : المصدر : سيدة كاشف : مصر فى عصر الولاة ، ص ٢٠٩ .

٣٤- الخريطة : راجع حسن أحمد محمود : المرجع السابق ص ١٧٢-١٧٧ ، ٢٧٧-٣١٠ .



— مصر العليا —
في العهد العربي



ممالك النوبة المسيحية

ثبت المصادر

أولا : المصادر العربية :

ابن بطوطة : أبو عبدالله محمد بن ابراهيم اللواتى ، نسبة الى لواته احدى قبائل البربر ، المعروف بابن بطوطة والملقب بشمس الدين (٧٠٤ – ٧٧٩ هـ / ١٣٠٤ – ١٣٧٧ م) .

١- رحلة ابن بطوطة ، وهى مجموعة أخباره المسماة " تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " الناشر دار صادر ، (بيروت – لبنان ١٤١٢هـ – ١٩٩٢ م) .

ابن جبير – محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى ، البلنسى الأصل ، الغرناطى للاستيطان ، (ولد ببلنسية أو بشاطبية يوم السبت ١٠ ربيع الأول سنة ٥٣٩هـ أو ٥٤٠هـ وتوفى بالاسكندرية الأربعاء ٩ أو ٢٧ شعبان ٦١٤ هـ) .

٢- كتاب رحلة ابن جبير ، فى مصر وبلاد العرب والعراق والشام وعقيلة ، عصر الحروب الصليبية ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، دار مصر للطباعة ، مكتبة مصر ، (القاهرة : ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥ م) .

ابن حوقل – أبو القاسم محمد بن على الموصلى الحوقلى النصيبى البغدادى ٣٨٠/٩٩٢م)

٣- كتاب صورة الأرض ، القسم الأول ، ط٢ ، مطبعة بريل (ليدن ١٩٣٨م) ، القسم الثانى، ط٢، مطبعة بريل (ليدن ١٩٣٩م) . القسم الأول والقسم الثانى فى كتاب واحد ، الناشر دار صادر (بيروت – لبنان) .

ابن خرداذبة – أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله المعروف بابن خرداذبة (المتوفى فى حدود سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م) .

٤- كتاب المسالك والممالك ، ملحق به نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لأبى الفرج قدامه بن جعفر الكاتب البغدادى (المتوفى سنة ٣٢٠هـ ، الناشر مكتبةالمثنى (بغداد) .

ابن رستة – أبو على أحمد بن عمر (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢ م) .

٥- كتاب الأعلاق النفسية ، هو وكتاب البلدان لليعقوبى فى مجلد واحد (المجلد السابع) ، مطبعة بريل ، (ليدن : سنة ١٨٩٢م) ، الناشر دار صادر (بيروت – لبنان) .

ابن عبدالحكم – أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالحكم ... ولد بالفسطاط سنة ١٨٧هـ/٨٠٣م ، وتوفى فى مطلع سنة ٢٥٧هـ / ٨٧١م) .

٦- كتاب فتوح وأخبارها ، ط١ ، مكتبة مدبولى : القاهرة : ١٤١١هـ – ١٩٩١م ، طبعة مصورة عن طبعة تشارلز تورى) .

أبو الفدا – الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين على بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر ابن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)

٧- كتاب تقويم البلدان ، اعتنى بتصحيحه وطبعه وينود مدرس العربية والبارون ماك كوكين ديسلان ، طبع بدار الطباعة السلطانية (باريس : ١٨٤٠ م) .

الإدريسى – الشريف محمد بن محمد بن عبدالعزيز (ت٥٦٠هـ / ١١٦٤م) .

٨- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، معه ترجمة باللغة الايطالية ، مع ملحوظات للمسيو آمارى والمسيو اسكيا برلى ، (مطبعة روما : ١٨٨٣م) .

٩- نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأفكار والبلدان والجزر والمداين والآفاق ، (روما : ١٥٩٢م) .

١٠- نزهة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ، مطبعة بريل (ليدن : ١٨٦٤ م) .

الأدفوى – الشيخ الامام أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب الأدفوى (ولد فى أدفو فى شعبان ٦٨٥هـ / توفى ٧٤٨هـ أو ٧٤٩هـ) .

١١- كتاب الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، تحقيق سعد محمد حسن مراجعة دكتور طه الحاجرى ، سلسلة تراثنا ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، (القاهرة : ١٩٦٦ م) .

الأصطخرى المعروف بالكرخى – ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى الأصطخرى المعروف بالكرخى (ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م) .

١٢- كتاب مسالك الممالك ، وهو معول على كتاب صور الأقاليم لأبى زيد أحمد بن سهل البلخى ، مطبعة بريل (ليدن : ١٩٢٧م) ، الناشر دار صادر (بيروت لبنان) .

البلاذرى – أبوالعباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢ م) .

١٣- كتاب فتوح البلدان ، قوبل هذا الكتاب على نسخة الأستاذ الشنقيطى المحفوظة بدار الكتب المصرية ، عنى بمراجعنه والتعليق عليه رضوان محمد رضوان ، طبعة دار الكتب العلمية ، (بيروت – لبنان : ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م) .

السيوطى – جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر السيوطى (المتوفى ٩١١هـ / ١٥٠٥ م)

١٤- تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، (طبعة ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤ م)

١٥- حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم ،(طبعة القاهرة ، ١٩٦٤م) .

عبداللطيف البغدادى (الشيخ الامام موفق الدين أبو محمد عبداللطيف بن يوسف بن محمد بن على بن أبى سعد ويعرف بابن اللباد موصلى الأصل بغدادى المولد (ولد فى بغداد سنة ٥٥٧هـ / ١١٦٢ م ، وتوفى سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١ م) .

١٦- كتاب عبداللطيف البغدادى فى مصر ، وصف مصر حوالى سنة ١٢٠٠ للميلاد ، وهو كتاب " الأفادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر لعبداللطيف البغدادى ، مطبعة المجلة الجديدة ، (مصر : ١٣٤١هـ / ١٩٣١ م) .

قدامة بن جعفر - أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى (المتوفى سنة ٣٢٠ هـ) .

١٧- نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، ملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة ، مكتبة المثنى ، (بغداد) .

القزوينى - أبو يحيى عماد الدين زكريا بن محمد بن محمود القزوينى الأنصارى ، (ولد سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م ، وتوفى سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣ م) .

١٨- كتاب آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، (بيروت - لبنان ، د.ت) .

الكندى المصرى - أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب التجيبى الكندى المصرى (من بطون كندة) ، (ولد فى الفسطاط سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٧م / وتوفى بها سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١ م)

١٩- كتاب تاريخ ولاة مصر ويليه كتاب تسمية قضاتها ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الكتب الثقافية ، (بيروت - لبنان : ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م) .

المسعودى - أبو الحسن على بن الحسين بن على بن عبدالله الهذلى المسعودى ، يتصل نسبة بعبدالله بن مسعود الصحابى الجليل ، وقد ذاعت شهرته باسم المسعودة (توفى فى الفسطاط سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧ م) .

٢٠- كتاب التنبيه والاشراف ، طبعة جديدة منقحة باشراف لجنة تحقيق التراث ، سلسلة (فى سبيل موسوعة تاريخية رقم (١) ، منشورات دار ومكتبة الهلال (بيروت ، لبنان : ١٩٨١ م)

٢١- كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ٤ أجزاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد طبعة دار المعرفة ، (بيروت - لبنان : ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م) .

المقدسى المعروف بالبشارى – شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبى بكر البناء الشامى المقدسى المعروف بالبشارى ، (ولد سنة ٣٣٥هـ / ٩٤٦ م) ، وتوفى أواخر القرن الرابع الهجرى حوالى سنة ٣٩٠هـ / ١٠٠٠ م) .

٢٢- كتاب أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ط٢ ، مطبعة بريل ، ليدن : ١٩٠٦ م) .

المقريزى – تقى الدين أبى العباس أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) .

٢٣- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية ، جزءان ، الطبعة الثانية ، مكتبة الثقافة الدينية ، (القاهرة : ١٩٨٧ م) ، (طبعة مصورة عن طبعة بولاق : ١٢٧٠ هـ) .

ناصرى خسرو علوى – أبو معين الدين القبادياني المروزى (ولد سنة ٣٩٤هـ / ١٠٠٣ – ١٠٠٤ م ، وتوفى سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٧ م) .

٢٤- كتاب سفر نامة ، كتبه ناصرى خسرو بالفارسية ، نقله الى العربية وقدم وعلق عليه الدكتور يحيى الخشاب ، تصدير الدكتور عبدالوهاب عزام ، الطبعة الثانية ، سلسلة الألف كتاب الثانى ، رقم (١٢٢) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة : ١٩٩٣ م)

ياقوت الحموى – الامام شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى البغدادى (ولد حوالى سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م) وتوفى سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) .

٢٥- معجم البلدان ، عدة مجلدات ، دار صادر ، (بيروت – لبنان : ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)

اليعقوبى – أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسى المعروف باليعقوبى (توفى ٢٨٤هـ / ٨٩٧ م) .

٢٦- كتاب البلدان ، هو كتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته فى مجلد واحد (المجلد السابع) مطبعة بريل ، (ليدن : ١٨٩٢ م) ، الناشر دار صادر بيروت – لبنان) .

ثانيا : كتب عربية حديثة

آدم متز

٢٧- الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى أو عصر النهضة فى الاسلام ، مجلدان ، تعريب محمد عبدالهادى أبو ريدة ، أعد فهارسه رفعت البدراوى ، الطبعة الرابعة ، الناشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ، دار الكتاب العربى ببيروت ، (١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م) .

ألفرد بتلر

٢٨- فتح العرب لمصر ، عربة محمد فريد أبو حديد ، ٢ جزء ، سلسلة تاريخ المصريين رقم ٢٨،٢٧، (طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م)

حسن أحمد محمود (الدكتور)

٢٩- الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، ط٣ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٦ م .

حسين مؤنس (الدكتور) .

٣٠- أطلس تاريخ الاسلام ، الطبعة الأولى ، الزهراء للاعلام العربى ، (القاهرة : ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م) .

زكى محمد حسن (الدكتور) .

٣١- الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ، دار المعارف ، (مصر : ١٩٤٥ م)

سعاد ماهر محمد (الدكتورة)

٣٢- مدينة أسوان وآثارها فى العصر الاسلامى (طبعة دار الشعب ، القاهرة : ١٩٧٧ م) .

٣٣- مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ٢ جـ ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر، جـ١ (القاهرة : ١٩٧٢ م) ، جـ ٢ (مطابع الأهرام التجارية : ١٩٧٦ م) .

سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور) ، عبدالرحمن الرافعى .

٣٤- مصر فى العصور الوسطى ، عن الفتح العربى حتى الغزو العثمانى ، الناشر دار النهضة العربية ، (القاهرة : ١٩٩٢ م) .

سيدة اسماعيل كاشف (الدكتورة)

٣٥- مصادر التاريخ الإسلامى ومناهج البحث فيه ، الطبعة الثانية ، مطبعة الخانجى ، (القاهرة : (١٣٩٦هـ / ١٩٧٦ م) .

٣٦- مصر فى عصور الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ، سلسلة تاريخ المصريين رقم (١٤) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٨٨م) .

٣٧- مصر فى عصر الأخشيديين ، سلسلة تاريخ المصريين رقم (٢٩) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٨٩م) .

شاكر مصطفى (الدكتور)

٣٨- التاريخ العربى والمؤرخون ، دراسة فى تطور علم التاريخ ومعرفة رجاله فى الاسلام ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، دار العلم للملايين ، (بيروت : لبنان - يوليو ١٩٨٣ م)، الجزء الثانى . الطبعة الثالثة ، دار العلم للملايين ، (بيروت - لبنان - مارس ١٩٨٧م)، الجزء الثالث ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، (بيروت - لبنان - مارس ١٩٩٠م)، الجزء الرابع ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، (بيروت - لبنان - يناير ١٩٩٣م) .

عاصم محمد رزق عبدالرحمن (الدكتور)

٣٩- مراكز الصناعة فى مصر الاسلامية ، من الفتح العربى حتى مجيء الحملة الفرنسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٨٩م) .

عبدالله خورشيد البرى (الدكتور)

٤٠- القبائل العربية فى مصر ، فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (١٩٩٢م) .

على زين العابدين (الدكتور) .

٤١- فن صياغة الحلى الشعبية النوبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب : ٢١٩٨١ م .

محمد رمزى .

٤٢- القاموس الجغرافى للبلاد المصرية فى عهد قدماء المصريين الى سنة ١٩٤٥م ، ٦ أجزاء ، تقديم أحمد رامى ، أحمد لطفى السيد ، مركز وثائق وتاريخ مصر = المعاصر ، الهيئة العامة للكتاب ، (القاهرة : ١٩٩٣ - ١٩٩٤م) .

محمد عبده الحجاجى .

٤٣- قوص فى التاريخ الاسلامى ، سلسلة المكتبة الثقافية رقم (٣٦٣) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، (القاهرة : ١٩٨٢م)

محمد كمال الدين عز الدين على (الدكتور)

٤٤- أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات " من دولة المماليك الجراكسة " ، سلسلة تاريخ المصريين رقم (٥٣) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢ م) .

ثالثا : الدوريات والأبحاث العلمية :

أحمد عبداللطيف حنفى محمد (الدكتور)

٤٥- " مصر فى عيون الرحالة المغربى التجيبى السبتى ، (قبل صفر - رمضان ٦٩٦ هـ = ديسمبر ١٢٩٦- يولية ١٢٩٧م) " ، ملخص بحث ، ندوة العصور الوسطى الثانية ، عن الرحلة والرحالة فى العصور الوسطى ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة المنيا " ، من ٣٠ أكتوبر - ١ نوفمبر ١٩٩٣م " ، ص ١-٢ .

أحمد فؤاد سيد (الدكتور)

٤٦- " كتب المسالك والممالك وتقويم البلدان والرحلات الجغرافية ، وأهميتها فى تاريخ انتشار الاسلام والثقافة العربية فى العالم " ، بحث مقدم لندوة العصور الوسطى الثانية عن الرحلة والرحالة فى العصور الوسطى ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة المنيا " من ٣٠ أكتوبر - ١ نوفمبر ١٩٩٣ م " ص ١-٩ .

جمال الدين الشيال (الدكتور) .

٤٧- مصر فى العصر الفاطمى (دراسة ضمن موسوعة تاريخ الحضارة المصرية المجلد الثانى ، مكتبة مصر ، د . ت) ، ص ٤١٨ - ٤٥٧ .

حسين مؤنس (الدكتور)

٤٨- تاريخ مصر من الفتح العربى الى أن دخلها الفاطميون ، (دراسة ضمن موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى ، مكتبة مصر ، د . ت) . ص ٣٢٣ - ٤١٧ .

سعيد عبدالفتاح عاشور (الدكتور)

٤٩- مصر فى عصر الأيوبيين والمماليك ، (دراسة ضمن موسوعة تاريخ مصر عبر العصور ، تاريخ مصر الاسلامية ، سلسلة تاريخ المصريين رقم (٦٣) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ م) ، ص ٩ - ٢٥٤ .

عبدالمنعم شوقى (الدكتور)

٥١- دليل مدينة أسيوط ، " بحث استطلاعى مبدئى عن مدينة أسيوط " ، (جامعة أسيوط) ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، (القاهرة - ١٩٦٤م) . ص ١-٣٠٩ .

عبدالمنعم ماجد (الدكتور)

٥٢- انجازات الفاطميين الحضارية فى مصر ، من خلال كتاب سفر نامة ، للرحالة الفيلسوف ناصر خسرو ، ملخص بحث ، (ندوة العصور الوسطى الثانية ، عن الرحلة والرحالة فى العصور الوسطى قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة المنيا ، فى الفترة من ٣٠ أكتوبر- ١نوفمبر ١٩٩٣م) ، ص١-٣ .

على أحمد الطايش (الدكتور)

٥٣- القاهرة كما رآها ابن بطوطة ، ملخص بحث ، (ندوة العصور الوسطى الثانية عن الرحلة والرحالة فى العصور الوسطى ، قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة المنيا فى الفترة من ٢٠ أكتور - ١ نوفمبر ١٩٩٣م) . ص ١ .

محمد جمال الدين سرور (الدكتور)

٥٤- مصر فى عصر الفاطميين ، (دراسة ضمن موسوعة تاريخ مصر عبر العصور تاريخ مصر الاسلامية ، سلسلة تاريخ المصريين (٦٣) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ م) ، ص ٢٥٥ - ٣٤١ .

محمد سعيد النعناعى ، نجيب الياس برسوم ، عبدالسلام الكريمى .

٥٥- أسيوط بين الماضى والحاضر ، (دراسة عن أسيوط ، منطقة أسيوط التعليمية) ، (المطبعة الحديثة - أسيوط) ، ص ١-١١٣ .

محمد السيد غلاب (الدكتور)

٥٦- كيف رأى العرب العالم فى القرون الوسطى ، الجغرافيون المسلمون ودورهم فى تطور الفكر الجغرافى (مقال ، مجلة الهلال ، مارس ١٩٩٤م) ، ص ١٠٢ - ١١٤ .

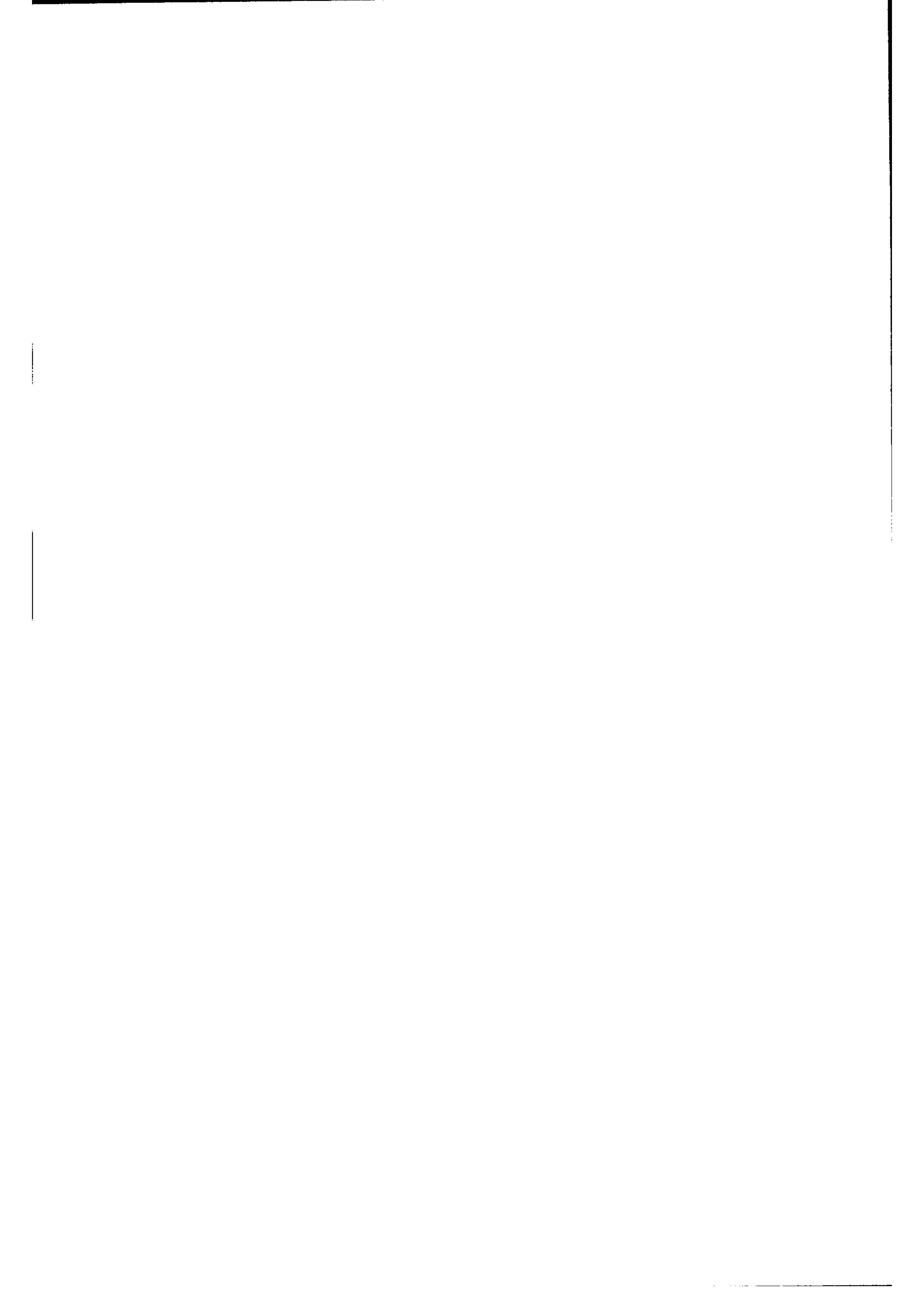
محمد مصطفى زيادة (الدكتور) .

٥٧- الدولة الأيوبية ، (دراسة ضمن موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى ، مكتبة مصر ، د . ت) ، ص ٤٥٨ -٤٨٠ .

٥٨- الدولة المملوكية الأولى والثانية ، (دراسة ضمن موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى ، مكتبة مصر ، د . ت) ص ٤٥٨ - ٥٢٨ .

رابعا : المراجع الأجنبية :

- A.A . paton , F . R . G . S . , History of the Egyptian revolution , ..., Vol , 1 Second Edition .., London , 1970 .



تأثير الحضارة المصرية على جنوب مصر
" بلاد النوبة وسودان وادى النيل "
فى العصور الوسطى

الأستاذ الدكتور/ محمد نصر مهنا
أستاذ العلوم السياسية ووكيل
كلية التجارة بجامعة أسيوط

بلاد النوبة – بعض الملاحظات الجيوبوليتيكية :

استأثرت " بلاد النوبة " – سودان وادى النيل – باهتمام الباحثين فى مختلف العلوم الاجتماعية نظرا لما تمثله من تواصل الحضارات وما مرت به من منعطفات تاريخية وجيوبولتيكية كان لها تأثير متعاظم على جنوب وادى النيل والقارة الأفريقية برمته بصفة عامة . وارتباطها العضوى بمصر بمكانتها الحضارية وبما تمثله مصر من موقع متميز باعتبارها ملتقى الطرق التجارية العالمية .

والواقع أن ما نعنيه ببلاد النوبة فى هذه الدراسة هو " **سودان وادى النيل** " منذ العصور القديمة مرورا بفترتى التاريخ الوسيط والحديث ، غير أن هذه الدراسة تتركز بالدرجة الأولى على فترة حكم المماليك لمصر منذ العصور الوسطى وحتى فجر التاريخ الحديث " .

تمثل بلاد النوبة (سودان وادى النيل) الامتداد الطبيعى للحدود المصرية الجنوبية كما تمثل أيضا خط الدفاع عن تلك الحدود بما يترتب عليه من سلامة جنوب مصر والأمن القومى مما يؤكد حرص مصر على بلاد النوبة وسودان وادى النيل وقد بذل حكام مصر جهودا كبيرة فى الحفاظ على سلامة الحدود ، وفى هذا السياق فقد انقسمت بلاد السودان إلى ثلاث دول نوبية :

الأولى : وهى من الممالك البائدة قبل الإسلام . وكانت تسمى نوباديا وعاصمتها فرس وتقع فى الشمال .

الثانية : تقع فى إقليم دنقلة وتسمى المقبرة وعاصمتها دنقلة العجوز .

الثالثة : علوة وعاصمتها سوبا وكانت تقع على الشاطىء النيل الأزرق الشرقى ، جنوبى مدينة الخرطوم الحالية بقليل ، وكانت هذه الممالك تدين بالمسيحية . (١)

ومن المعروف أن حدود بلاد النوبة تمتد من مصر حتى النيل الأزرق وهى التى شهدت قيام مماليك النوبة المسيحية التى عاصر بعضها دولة المماليك فى مصر . (٢)

امتدت حدود بلاد النوبة أول عصر المماليك حتى مديرية أسوان كما امتدت جنوبا حتى حدود بلاد الحبشة ، وكانت تحكم بواسطة ملوك ، وكان أول صدام حدث بين مصر وتلك البلاد فى عصر صلاح الدين الأيوبى حين أراد أن يكون من السودان جيشا يقاوم به المماليك الأتراك الذين كثر عصيانهم وتمردهم . وتوالت الغزوات بعد ذلك على بلاد النوبة ، وكانت تقوم لأسباب متعددة كشن الغارات عليها لردع ملوكها كثيرى التحرش بالحدود المصرية وخاصة بمنطقتى أسوان وعيذاب ، أو لنصره ملك من ملوكها على الأخر . (٣)

واستمر النزاع بين مصر وممالك النوبة إلى أن حكم المماليك مصر ، ودخلوا فى صراع مع ملك النوبة وشهدت العلاقات السياسية بين مصر فى عصر دولة المماليك وبين بلاد النوبة استتباب الامور ، فبعد استقرار الملك الظاهر بيبرس (٦٦٠ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٨م) فى الحكم بدأ يوجه اهتمامه الى جنوب الوادى وبصفة خاصة لوضع حل لمشكلة الحدود الجنوبية فى الوقت الذى أغار فيه ملك النوبة على قوص وأسوان وهو ما يقتضى وقفة للتفسير .

الاحتكاك الحربى :

كان فى هجوم النوبيين على عيذاب (٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م) بداية الاحتكاك الحربى المباشر مع القوة المملوكية الشابة الموجودة فى مصر وتعديا على مصالحها الاقتصادية ، ومن ثم بدأت العلاقات تأخذ شكلا جديدا مغايرا للشكل الذى كانت عليه من قبل مما سيكون له أبعد الأثر فى انتشار الإسلام فى بلاد النوبة وسودان وادى النيل . (٤)

وقد أدرك السلطان الظاهر بيبرس والإدارة المملوكية المغزى وراء هجوم ملك النوبة على ميناء عيذاب ، وأن هدفهم هو شن حرب إقتصادية على مصر عن طريق التعرض للتجارة المملوكية التى تسلك الصحراء الشرقية عن طريق عيذاب . إلى البحر الأحمر ويذكر

الأب الدكتور (ج.فانتينى) فى كتابه تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية والسودان الحديث : أن الشرارة التى أزكت نار الحرب بين النوبة وسلاطين المماليك فى سنة (٦٧٤/١٢٧٥م) نتجت عن قيام داود الأول ملك النوبة بغزوتين الأولى على ميناء عيذاب على البحر الأحمر أهم الموانى المصرية وتحويل داود الأموال والقوافل التجارية الواردة من الهند وسائر بلاد الشرق إلى مملكته .

أما الغزوة الثانية فقد كانت على مدينة أسوان حين غزاها الملك داود الأول سنة (٦٧٤هـ/١٢٧٥م) ودخلها وخرب بيوتها وسبى نساءها وأحرق السواقى واستطاع أن يلحق بأهلها أضرار كبيرة وكانت أسوان فى ذلك الوقت تعج بالأسواق ومخازن المؤن ويرجع (ج. فانتينى) الدافع وراء قيام الملك النوبى داود الأول للقيام بهذا العمل إلى انعقاد المجمع المسكونى السابع فى مدينة ليون بفرنسا (٥) ذلك المجمع الذى حضره ألف من رجال الكنيسة والملوك والأمراء من الكاثوليك الغربيين وعدد من المسيحيين الشرقيين وملك القسطنطنية كلهم جاءوا بدعوة من البابا غريغوريوس العاشر الذى سبق أن كان سفيرا مقيما فى أرض الصليبيين بفلسطين وخبيرا فى شئون الشرق ، وقرر المجمع إعداد حملة صليبية شاملة يشترك فيها جميع الملوك ويرجح أيضا الأب (ج.فانتينى) (٦) وجود اتفاق سرى بين ملك النوبة ومسيحى الغرب وكان من شروطه أن يقوم ملك النوبة بفتح جبهة جنوبية لمحاربة مصر بينما تتحرك القوى الغربية إليها من الشمال ، ومن هنا فإن سلطان مصر قد شعر بالأمر وخطط للقضاء على قوات العدو قبل أن تجتمع حول مصر والقيام بتدميرها . ولأسباب تصمت عنها المصادر لم تتحرك القوات الغربية ولم تتم الحملة الصليبية حسب القرارات المسكونية إلا أن الملك النوبى تحرك من الجنوب وبدأ الحرب الاقتصادية والاحتكاك الحربى لشن هجومه على عيذاب ليقطع اتصالات مصر بالبحر الأحمر ودول الشرق وبالهجوم على أسوان حتى يضمن تخريب المدينة وتعطيل الحامية المملوكية من مباشرة أعمالها الدفاعية ويسد الطريق وبالتالى على المماليك إلى أفريقية أو إلى مهاجمته فى بلاده ورأت السلطة المملوكية تدعيم قوتها ببسط نفوذها على ساحل البحر الأحمر الأفريقى ، فقد كان هذا يشكل أهمية كبرى للمماليك لما يؤديه من دور هام فى اقتصاديات مصر والعالم فى العصور الوسطى فلا يمكن للادارة المملوكية فى القاهرة أن تسمح بتهديد أمن الموانىء المطلة على هذا البحر . وكان رد فعل السلطان الظاهر بيبرس لتأديب ملك النوبة أن جهز حملة عسكرية كلفها بهذا العمل وقد ذكرت المصادر الإسلامية النص الكامل لهذه المبادرة فذكر النويرى وابن الفرات أن الظاهر بيبرس كلف " الأمير شمس الدين أقسنقر الفارقانى والأمير عز الدين أيبك الأفرم وصحبتهما جماعة

من العسكر من أجناد الولايات والعربان بالوجه القبلي ، واتفق مع الرماه ورجال الحواريق وجهزت الزردخاناه وجهز صحبه العسكر وأطلق معهم مشكد وأمرهم اذا فتحوا الباب أن يسلموها اليه " ويدل هذا النص على مدى حرص السلطان بيبرس على الدفاع عن حدود مصر وتأديب ملك النوبة . (٧)

وتحقق لأول مرة للادارة المصرية السيطرة التامة على بلاد السودان والنوبة حيث يعتبر ابن الفرات هذه الحملة فتحا حقيقيا لبلاد النوبة . إلا أن المناوشات ستجدد مرة أخرى فى عهد خلفاء الظاهر بيبرس حيث انتقل الملك الى المنصور قلاوون (٦٧٦هـ / ١٢٧٧م) بعد وفاة السطان الظاهر بيبرس وقد ظل ملوك النوبة يقدمون فروض الطاعة لسطان مصر . (٨)

وبلغ النفوذ المملوكي فى النوبة حدا أقنع ملوك النوبة بقوة السلطنة المملوكية ، فأخذوا يتعاملون بأسلوب جديد وهو : إرسال السفراء المحملين بالهدايا ليثبتوا ولاءهم للمماليك بل كانوا يحكمون السطان المملوكى فيما ينشب بينهم من خلاف . (٩)

مظاهر العلاقات الودية بين مصر وبلاد النوبة :

شهدت سياسة المماليك تجاه النوبة منعطفا هاما فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ارتبط بقيام دولة الكنز فى دنقلة وبهذا تقوم دولة مسلمة فى بلاد النوبة حيث كان الكنوز قد ملكوا بلاد النوبة من أخوالهم ملوكها وولى عرش دنقلة ملكا مسلما من أصل ونسب عربى صحيح .

ونترك القلقشندى يفسر ذلك قائلا : ملك النوبة هو صاحب مدينة دنقلة ، وهو رعية من رعايا صاحب مصر وعليه حمل مقرر ، يقوم به فى كل سنة ، ويخطب ببلادة لخليفة العصر وصاحب مصر " . وكانت تلك الأتاوة مقررة عليهم من زمن الفتح ، فى امارة عمرو بن العاص رضى الله عنه ثم صارت تنقطع تارة أخرى بحسب الطاعة والعصيان . (١٠)

وبهذا أصبحت لمصر مكانة سامية فى تلك الاتجاهات النوبية فقد حرص ملوكها على دفع الأتوات المفروضة عليهم ولم يقتصر الأمر على ذلك بل صار الخطباء فى بلاد النوبة المسلمة ومنذ وليها ملوك مسلمون يدعون على المنابر للخليفة العباسى بالقاهرة والسطان المملوكى .

وسارت العلاقات بين مصر وسلاطين المماليك خلال العهد المملوكى الأول ما بين سياسة حكمة من جانب النوبة والتزامهم بالشروط والمعاهدات بينهم وبين مصر المملوكية .

وتتحدث المصادر الاسلامية عن بعض المناوشات التى كانت تقوم على الحدود المصرية مع بلاد النوبة وأحيانا كان يتطور الأمر بوصول الكنوز ملوك النوبة ومعهم بعض الأعراب من بنى الكنز أو غيرهم من الأعراب الذين يقطنون جنوب الوادى وصحراء مصر الشرقية إلى أسوان وقوص فيتقدم النائب المملوكي للتصدى لهم . (١١)

وفى العصر المملوكى الثانى تختلف العلاقات بين مصر وبلاد النوبة عما كانت عليه فى العصر المملوكى الأول وسادت تلك العلاقات والمناوشات الدائمة وخاصة تلك التى كان يقوم بها بعض قبائل الأعراب فى أسوان وعلى امتداد الحدود المصرية النوبية . (١٢)

وتعد السفارات والرسل التى تصل إلى القاهرة فى ذلك الوقت دلالة قاطعة على امتداد النفوذ المملوكى المصرى إلى بلاد النوبة واعتراف ملوكها بالفضل والولاء للسلطان المملوكى ، وقد ظهرت العلاقات الودية فى أروع صورها وخاصة بعد أن آل الحكم النوبى للبيت الكنزى وأولاد كنز الدولة المسلمين فقد قامت بينهم وبين مصر علاقات طيبة ومتنوعة سادها حسن الجوار وتقديم فروض الولاء والطاعة للسلطان المصرى ، وأصبحت المساجد النوبية تردد فى خطبها الدعاء لخليفة العصر وصاحب مصر " (١٣)

الأوضاع الاجتماعية :

تمثل دراسة الأوضاع الاجتماعية فى بلاد النوبة صعوبة كبيرة بالنسبة للدارسين وذلك لقلة المادة العلمية التى تمدنا بها المصادر ومن الملاحظ أن المصادر الاسلامية والمراجع الحديثة العربية منها والأجنبية تعتمد أساسا على مشاهدات الرحالة والجغرافيين . وينتظم المجتمع النوبى فى طبقات مختلفة تعد محورا أساسيا فى تكوين البناء الاجتماعى له وتعددت عناصر السكان داخل المجتمع النوبى الا أن أهم عنصرين شكلا المجتمع النوبى ، هم السودان من النوبة ، والأعراب من العرب الذين نزحوا الى بلاد النوبة فى هجراتهم المتعددة .(١٤)

وكان السكان من النوبة يشكلون الغالبية العظمى من السكان وعامة الشعب وكان منهم الأمراء والملوك قبل استيلاء بنوكنز عليها وتحويلها الى مملكة اسلامية .

أما الأعراب الذين نزحوا الى بلاد النوبة فقد كان غالبيتهم من قبائل عربية نزحت واستقرت هناك وأهمها قبيلة الكنوز التى نزحت حوالى عام (٧٩١هـ / ١٣٨٨ م) وانتشروا فى تلك الأماكن واختلطوا بالسكان وكونوا معهم قرابة ونسب ، وهاجرت قبائل عربية أخرى من الجزيرة العربية ومن بلاد المغرب (١٥) فقد استقرت قبائل ربيعة فى تلك المناطق التى بين عيذاب وسواكن وتحالفوا مع السكان الأصليين من جنس الحدارب وأثروا فيهم تأثيرا قويا حتى اعتنقوا الاسلام وقبائل جهينة التى كونت عنصرا هاما من عناصر السكان فى بلاد النوبة ، وهكذا تكون المجتمع النوبى من عناصر عدة من الأعراب الى جوار السكان الأصليين من النوبة السودان والقبائل النوبية المعروفة فى ذلك الحين منهم الحداربة ، والرفانج وقبائل الكارثينا تلك القبائل التى ذكرها المؤرخون بمسمياتها ، ومن الممكن القول أن الأصل فى تسمية هذه القبائل يعود الى اللغات النوبية والتى لا تعرف أصولها الا أن هذه القبائل قد اكتسبت اللغة العربية بجوار لغاتهم الأصلية (١٦)

على أن الأصول العربية فى بلاد النوبة لم تكن تقتصر على بنى الكنز فقط بل من الممكن القول أن انصهارا واضحا قد حدث بين القبائل النوبية فاختلطت العناصر البشرية حتى لم يعد من الممكن أن نفرق بين العرب وأهل البلاد الأصليين لكنه من الملاحظ أن هذه القبائل العربية شكلت طبقة من الطبقات الكبرى فى بلاد النوبة كانت ترقى إلى مرتبة الأمراء . (١٧)

ويذكر المؤرخون المسلمون أن القبائل العربية قد نزحت الى بلاد النوبة وأوضحوا أنها كانت تعيش فى بلدان صعيد مصر وقوص قبل أن ينزحوا إلى بلاد النوبة طلبا للمرعى ومن هذه القبائل أولاد عمرو وأولاد شيبان وأولاد الكنز وبنى هلال ومن الجدير بالاشارة الى أن النزوح الأكبر للقبائل العربية كان فى القرن الثانى عشر الميلادى وذلك فى حملات صلاح الدين الأيوبى على بلاد النوبة فى عام (٥٦٨ - ٥٦٩ هـ / ١١٧٢ - ١١٧٣ م) حيث استولى الجيش الأيوبى على قلعة ابريم وتمركزت القبائل العربية فى بلاد النوبة وخاصة بنو الكنز والجهينيون والهوارة (١٨) .

واتخذت القبائل العربية مكانة هامة داخل المجتمع النوبى وصارت من أهم فئاته التى أثرت فى الحياة الاجتماعية ، فكانوا يحتلون بجانب الملك والأمراء مكانة مرموقة داخل المجتمع النوبى بل وصارت لهم كلمة مسموعة تؤثر تأثيرا ايجابيا فى مجريات الأحداث ومقدرات الأمور فى هذا المجتمع الذى أنضموا تحت لوائه واتخذوا منه مسكنا ودارا لهم (١٩)

رجال الدين :

شكل رجال الدين المسيحى طبقة هامة فى طبقات المجتمع النوبى ، ويمكن القول أن هذه الطبقة كانت من أهم طبقاته ، وتتكون من الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهبان وكان الأساقفة يعينون من قبل بطريرك الاسكندرية وتتمثل أهمية رجال الدين فى المجتمع النوبى فى أنهم كانوا يقومون بتتويج الملك (٢٠) ، والخروج معه فى الحروب يحملون معهم الصليب الفضى بالاضافة الى ممارسة واجباتهم الدينية داخل المجتمع النوبى (٢١) .

وكانت مراسم تتويج الملك تتم داخل كنيسة أسوس وهى أكبر الكنائس فى النوبة حيث كانوا يقومون بإلباسه التاج ومعهم الصليب المقدس ، ويقوم الملك بحلف اليمين المقدس لرعاية رعيته ثم يمد السماط احتفالا بتلك المناسبة (٢٢) .

وكان الاساقفة ورجال الدين يسكنون فى الكنائس والأديرة الخاصة بهم كما كانوا يتخذون من المدن النوبية مقرا لهم ، ومن أهم هذه المدن التى وجد بها الأساقفة دنقلة وبلاق وعلوه ومدينة بساى وهى آخر مدن النوبة حيث وجد بها أسقف يدين بالنصرانية على المذهب اليعقوبى ، وهذا المذهب هو السائد فى بلاد النوبة والحبشة (٢٣) .

وصارت هذه الطبقة من الطبقات العليا فى سلم الحياة الاجتماعية النوبية ، الى أن جاء بنو الكنز واستولوا على عرش النوبة ، ودانت لهم البلاد وتحولت مملكة النوبة المسيحية الى مملكة اسلامية فانحسر نفوذ طائفة رجال الدين المسيحى فى بلاد النوبة نتيجة لاقبال الشعب النوبى على الاسلام واقتصر نشاطهم على ممارسة شعائرهم فى كنائسهم وحل محلهم علماء الدين الاسلامى ، الذين أخذوا أماكنهم فى المساجد التى شيدت داخل بلاد النوبة (٢٤) .

العامـــــة :

تعددت فئات الشعب من العامة فى المجتمع النوبى التى ضمت عناصر مختلفة انصهروا فى بوتقة واحدة وكونوا عامة المجتمع النوبى من فلاحين وصيادين ورعاة (٢٥)

الفلاحون : تمثل هذه الفئة الأغلبية بين طبقات المجتمع النوبى وغدت طبقة الفلاحين من أهم الفئات التى تنتظم فى سلك المجتمع الأفريقى النوبى ، فكان منهم من يفلحون فى الأرض

ويقومون بزراعتها حيث توجد فى هذه المنطقة أرضا ذات خصب وافر نظرا لوجود نهر النيل وروافده المختلفة بها (٢٦) .

أما الصيادون : وهم من بين فئات الشعب الأخرى داخل المجتمع النوبى يمتهنون حرفة الصيد وكانوا يصيدون فى أماكن متعددة من النهر بروافده ، وكان الصيادون يقومون بالملاحة فى منطقة الجنادل فهم على دراية بجغرافية المنطقة ويتخذون منها أماكن لتكسبهم وكانت هذه الجنادل بها كثير من الحجر لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة وخاصة المراكب الصغيرة ، وكان الصيادون على دراية بطرق بسيير هذه المراكب وإخراجها من منطقة الجنادل إلى مجرى النهر الرئيسى وقد امتزج هؤلاء الصيادون مع باقى فئات الشعب المختلفة (٢٧) .

وبالاضافة الى الفلاحين والصيادين وجدت كذلك فئة عايشت الفئات الأخرى وكونت معهم المجتمع النوبى وهى فئة الرعاة الذين كانوا يقومون برعى قطعان الإبل الموجودة فى النوبة بينها وبين صحراء عيذاب حيث تنتشر النجب الكثيرة وقد أشار كثير من المؤرخين الى وجود النجب البختية التى تنسب إلى قرية بخته من أعمال النوبة وتقع بين عيذاب والنوبة وكان هؤلاء الرعاة يسيحون فى الجهات الغربية من بلاد النوبة حتى دارفور طلبا للمرعى فى كثير من غابات وأحراش تلك الجهات وكثيرا ما كان يذهب الرعاة إليها وقد عرف درب بها يؤدى إلى طريق بلاد السودان الغربى والأخذ من دارفور (٢٨) .

وتعد المنشآت بأنواعها المختلفة مظهرا ودليلا على المستوى الحضارى الذى يحققه مجتمع بذاته ، وقد أشار بعض المؤرخين إلى منشآت عمرانية مختلفة كالكنائس والمساجد وغيرها من العمائر الدينية الى جانب المنشآت الحربية كالقلاع والحصون ، والعمائر والمنشآت الخاصة كالقصور والمنازل من بيوتات العامة وذكروا أن بلاد النوبة قد شهدت اقامة مدن كانت على مستوى متواضع بالمقارنة مع المدن الإسلامية الأخرى ومع ذلك فقد كان بها قرى عامرة فكان بين حدود مصر ودنقلة نحو ثلاثين قرية بالأبنية الحسان والكنائس والأديار والنخيل والأعذاب والكروم (٢٩) .

واختصت منشآت المجتمع النوبى بخصائص معينة فلم تكن على شاكله المنشأت الأخرى التى كانت توجد فى مجتمعات ذات تحضر ورقى فهم مثلا لا يعرفون المبانى الفاخرة ولا

المدارس مثل القاهرة ودمشق والقيروان ، بل كانت مبانيهم ومنشآتهم غاية فى البساطة بما يتلاءم مع حياتهم ومع ذلك فقد وجدت القصور والكنائس والمساجد ودور العامة ، ووجدت بالنوبة المنشآت الحربية وخاصة القلاع التى تحمى البلاد وأهم القلاع والحصون التى وجدت فى بلاد النوبة : (٣٠) .

- **قلعة ألدو** : وتقع هذه القلعة ما بين دنقلة وأسوان وتعد من أول التحصينات العسكرية فى بلاد النوبة (٣١) .

- **حصن بلاق** : وهو من الحصون النوبية المنيعة ويقع بالقرب من قرية بلاق . وهى أول بلاد النوبة من ناحية الحدود المصرية (٣٢) .

وشهدت بلاد النوبة أيضا عددا من المنشآت الدينية كان من أهمها الكنائس التى كان لها دور هام بين أبناء الشعب النوبى قبل دخول الإسلام . وقد ذكرت المصادر وجود الكنائس فى كثير من المدن النوبية وقد عدد أبو صالح الأرمنى عدد كنائسها بأربعمائة كنيسة أما الرحالة والجغرافيون فقد ذكروا أنه يوجد فى النوبة كنائس إلا أنهم لم يذكروا ذلك العدد الضخم ، وأشاروا إلى كنيسة (أسوس) وهى من أكبر الكنائس النوبية قاطبة ، وكانت توجد فى دنقلة حيث يقام فيها حفلات التتويج وحفلات الزفاف والصلوات وغيرها من المراسم الدينية التى تعقد فى الكنائس .

ومن أهم المدن التى يوجد بها كنائس : مدينة بلاق وهى من أعمال النوبة ومن ناحية صعيد مصر هذا فضلا عن وجود البيع فى قرى النوبة والأسقفيات فذكر المقريزى فى خططه الأسقفية الموجودة فى قرية (بساى) " وهى قرية كبيرة لها مساحة " (٣٣) .

أما المساجد فقد انتشرت فى بلاد النوبة بعد دخول الإسلام إليها ، وأخذ المسجد دوره الطبيعى جيث كان يعد دار دين ودنيا ، فيأتى إليه الغرباء ويجلس فيه للوعظ وكانت تقام فيه الدروس وحلقات العلم وكان بدنقلة مسجد كبير جامع تؤدى فيه الجمع والجماعات ويتخذه أبناء النوبة مركزا علميا يتدارسون فيه أمور دينهم ، وقد شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاح والخير : " فقال من لم يكن له اخ فليتخذ أخا نوبيا . وقد تنوعت مظاهر الحياة الإجتماعية داخل المجتمع النوبى واشتملت على جوانب مختلفة منها الألبسة والأطعمة وأهم

الحرف التى كـان يزاولهـا أهل النوبـة بالإضافـة إلـى عـاداتهم وتقـاليدهم ." ، وأشتملت علـى جوانب مختلفة منها الألبسة والأطعمة وأهم الحرف التى كان يزاولها أهل النوبة بالإضافة إلـى عاداتهم وتقاليدهم .

وعاش الشعب النوبى حياة بدائية بسيطة خالية من الترف والأسراف بل يمكن القـول أنهم كانوا يعيشون فى شظف من العيش نتيجة للظروف البيئية الصعبة المحيطة بهم كما أوضحـت لنا المصادر الإسلامية هذا فقد ذكر صاحب صبح الأعشى فى حديثه عن مدينـة دنقلـة وأهلهـا فقال : " وأهلها فى شظف من العيش ، والحبوب عندهم قليلة إلا الذرة " .

الملابـــــــس :

يمثل الملبس واحدا من المظاهر الاجتماعية التى كانت سائدة فى بلاد النوبة علـى أن أهم الملابس التى كان يرتديها أهل النوبـة الأزر ويوجـد عندهـم بعض من الملابس التـى تسمى دكاديك وهى أكسية غلاظ سوداء اللون ، وعرفوا بعض الألبسة القطنية التى يصنعونها محليـا وخاصة فى قرية (بساى) .

تحدثنا بعض المصادر الاجتماعية عن للشعب النوبى وتصف لنا عاداتهم وتقاليدهم ، فكان لأهل النوبة ولع شديد بالطرب والدق على الطبول ، فيذكر أحمد بن المعظمى : أن أهل النوبة لهم ولع وميل شديد الى الطرب والدق على الدفوف والطبول .

كما ذكرت بعض المصادر وصفا للمرأة النوبية بأنـه يوجـد فيهـن " جمـال فـائق وعرقهـن طيب ليس كعرق باقى السودان وشفاههن رقـاق وأفواههـن صغـار وشعورهن سبط بخـلاف جميع السودان " . فان المجتمع النوبى كان مجتمعا بدائيا سادت حياته عادات وتقاليد وأوضـاع بدائية ، وهو السمة الغالبة للمجتمعات الأفريقية بصفة عامة خلال العصور الوسـطى ، ويعدو ذلك بطبيعة الظروف البيئية المحيطة بهم .

العلاقات الثقافية :

كـانت مصر دائمـا ولا تـزال مصـدر اشـعاع حضـارى للقـارة الأفريقيـة والبـلاد العربيـة والإسلامية ، كما أن لمصر مسئولية حضارية اضطلعت بها على مر العصـور ، ولـم تقتصـر

علاقتها على النواحى السياسية والاقتصادية والعسكرية فحسب بل امتد ذلك إلى النواحى الإقتصادية التى تشكل الجانب الاهم فى تلك العلاقات .

ويعزى ذلك بطبيعة الحال الى مركزمصر الحضارى وثقلها الفكرى الذى تمتد جذوره الى التاريخ القديم .

إن حضارة مصر عبر عصورها المختلفة كان لها تأثيرها القوى الذى امتد الى أعماق القارة الأفريقية ، وكان نقل هذه الحضارة الى أجزاء القارة ظاهرة تاريخية سجلتها كتب المؤرخين وكتب الرحالة والجغرافيين ، امتد أثرها إلى نواحى الحياة المختلفة ، ويلمس الباحث ذلك التأثير بشكل كبير فى النواحى الإدارية والثقافية والعلمية وغيرها .

كان للروابط الثقافية بين مصر وجيرانها فى الجنوب الأثر الأكبر فى ظهور النقلة الحضارية التى شهدتها تلك البلاد ، وقد اتضح ذلك فى المجتمع الأفريقى وبصفة خاصة فى بلاد الطراز الإسلامى ولقد كان للإدارة المصرية ونظمها ورسومها تأثير مباشر على تلك البلدان وقد تمثل فى دخول الأنظمة الإدارية المصرية الى تلك المناطق (٣٤) .

وهكذا تتأكد قوة الروابط ومتانة الصلات بين مصر وجيرانها فى جنوب الوادى والى تعميق تلك الروابط السياسية الودية وقد أشاد كثير من المؤرخين بالدور المصرى فى داخل المجتمع الأفريقى وأثره فى تقدم تلك المناطق فى المجال الحربى والإدارى للدولة حيث مصر من إحدى القوى العظمى فى عالم ذلك الوقت واستطاعت أن تؤثر فى مجتمع العصور الوسطى بنظمها الاقتصادية والسياسية والحضارية ، وكان هذا التقدم الحضارى ملموسا واضحا مؤثرا فى مصر باعتبارها فى ذلك الحين حامية للحرمين الشريفين بجانب سيطرتها على البحر الأحمر واقتصادياته .

أما العلاقات الثقافية بين مصر وجنوب الوادى فقد صارت فى شقين أساسيين (٣٥) .

(١) **الشـــق الأول** : حيث امتداد اشراقة الاسلام إلى بلاد النوبة وسودان وادى النيل *

(٢) **الشق المسيحى** : وهذا الأخير قد تمثل فى الكنيسة الحبشية وارتباطها ارتباطا وثيقا مع كنيسة الاسكندرية بمصر وبما تمثله لها من قيمة تاريخية ودينية وثقافية وعلمية الأمر

* على نحو ما سوف يرد تفصيله فى موضوع لاحق . " الباحث "

الذى يجدر بنا أن نركز عليه وبصفة خاصة الصلات التى توطدت بين الكنيستين ، حتى نخرج بنتيجة ملموسة فى تأثيرها الحضارى فى بلاد الحبشة ، وعلاقاتها مع المماليك الحبشية الإسلامية والمسيحية وتأثرهم باللغة العربية والثقافية المسيحية والاسلامية والعلاقة بينهم وبين علماء مصر وكذلك تأثرهم بالعلاقات المسيحية والثقافية المصرية القبطية ودور الكنيسة الحضارى والثقافى ومدى احتياجهم لهذه الروابط والصلات الحضارية . وقد ازدهرت حركة الترجمة خلال العصور الوسطى وبالتحديد فى القرن الثالث عشر وبدايات الرابع عشر الميلاديين وخاصة أن الكنيسة المصرية فى ذلك الوقت كانت تمر بحركة إصلاح وتجديد شاملة داخل أروقتها . وخاصة من التدهور الذى أصاب اللغة القبطية التى اعتمدت عليها كتاباتهم بشكل واضح ، وإحلال اللغة العربية مكانها ، والتى أصبحت اللغة الأساسية للدولة . كل هذه الأسباب اسهمت فى ازدهار العلاقات الثقافية العلمية بين مصر وجنوب الوادى . وبعد تعيين المطران المصرى الأنبا سلامة الثانى ، أخذ على عاتقه ترجمة كثير من الكتب من اللغة العربية والقبطية الى اللغة الحبشية لدرجة أن لقبه الأقباط بلقب (ترجوامى) أى المترجم ويستدل على ذلك مما قد تم نقله فى عهود سابقة عليه ونقح كثيرا من تلك الترجمات ، وكتب أيضا الكتاب المقدس باللغة العربية ونقل كتب الصقوس والميامير (السير) وحياة الشهداء والقديسين (السكنكسار) هذا بالإضافة الى نقل صحف الرهبنة من العربية الى الحبشية (٣٦) .

خاتمـــــــــة :

ارتبط انتشار الاسلام فى الساحل الشرقى وأفريقية بانتشار اللغة العربية التى حملها اليهم الوافدون العرب عن طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى ، واستوطنوا هناك وكونوا بامتزاجهم مع إخوانهم الأفارقة شعبا جديدا له خصائصة وحياته الثقافية ثم أصبح له فيما بعد لغته وحضارته ، وثقافته والتى عرفت فى نهايات القرن الخامس عشر باللغة والحضارة السواحلية ، وكانت مزيجا بين اللغة العربية واللغة الحبشية بلهجاتها المختلفة والتى كانت تكتب كالعربية من اليمن الى الشمال وقدانتشرت هذه اللغة الجديدة فى الساحل الأفريقى ، وسيطرت عليها بلهجاتها فى القرن السادس عشر الميلادى (٣٧) .

واضطلع الأزهر بدور كبير فى تثقيف أبناء جنوب الوادى فكان أبناء الزيلع ومقدشيو وجبرت يشدون الرحال الى مصر ليتعلموا فى الأزهر الشريف ، وقد برز كثير منهم فى المجتمع المصرى ، فكان منهم أبو عبدالله الزيلعى ، الذى أفاد العمرى من معلوماته عن تلك

البلاد وقد نقل عنه القلقشندى كثيرا من المعلومات عن بلاد الزيلع وأمارات الطراز الإسلامى وثقافته وأحوالها ومعايش أهلها وكان طلاب العلم فى هذه البلاد يذهبون الى مصر والأزهر ويعودون بعد تحصيل العلم مما كان له أبلغ الأثر فى انتشار الثقافة العربية فى السودان (٣٨).

وكان للمساجد دور كبير فى إزدهار اللغة العربية والثقافة الاسلامية بين المجتمع الأفريقى حيث كانت تقام الشعائر الاسلامية بهذه اللغة فى المساجد والتى أشاد بها كل من ابن بطوطة والمقريزى ، فذكر شهاب الدين أحمد بن عبدالخالق للمقريزى عمارة المساجد فى أوقات وحلقات الدرس التى ينظمها العلماء من المصريين وغيرهم الذين يقيمون بالساحل الأفريقى (٣٩) .

لقد كان للاسلام واللغة العربية تأثير حضارى كبير فى حياة الشعوب الأفريقية الاسلامية ، كما كان للثقافة المصرية المسيحية يد طولى فى ازدهال كنيسة الحبشة خلال العصور الوسطى ، وكان لانتشار الثقافات العلمية المصرية بين الأبناء الوطنيين من الأفارقة ، ورغبة ملوك الحبشة فى الوصول الى العلوم ا لدينية القبطية التى ازدهرت فى الكنيسة المصرية وبين أصحاب الفكر المسيحى . كما تجدر الإشارة إلى دور المطارنة المصريين الذين تولوا كنيسة الحبشة والذى ظهر بوضوح حيث أسهموا فى حركة الترجمة التى غطت كثيرا من الكتب المصرية التى تم نقلها إلى اللغة الحبشية وأقتنت بذلك الكنيسة الحبشية ثروة عظيمة من أمهات الكتب المصرية القبطية (٤٠) .

وظهر أيضا الدور الإسلامى لمصر بثقافتها وثقلها الحضارى الذى أثر فى ثقافة أفريقية كلها ، بالإضافة إلى ما قامت به اللغة العربية لغة الاسلام فى تعليم الأفارقة فى بلاد الزيلع والطراز الإسلامى ، وتأثر علماء وفقهاء تلك الممالك بالعلماء المصريين وشدهم الرحال إلى القاهرة لتلقى العلم فى أزهرها الشريف وأخذ العلوم الدينية والدنيوية عن نخبة من أجل علماء مصر فى تلك الحقبة التاريخية التى هى من أزهى عصور مصر بعلمائها الكثيرين الذين برزوا فى شتى فروع العلوم المختلفة .

الهوامش والمراجع :

وراجع فى تفصيل ذلك أيضا :

(١) **ابن تغرى بردى :** أبوالمحاسن يوسف ت . ٥٨٧٤ / ١٤٦٩م .

مورد الطاقة فيمن ولىالسطنة والخلافة ، مخطوط مصور . (٥٣٥ تاريخ) معهد المخطوطات العربية .

المسعودى ت . (٣٤٦هـ / ٩٥٧ م) .

أخبار الزمان وعجائب البلدان ، مخطوط مصور : تاريخ ٨٧٩ . تاريخ ٨٧٩ . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

راجع فى تفصيل ذلك أيضا :

- **كولين ماكفيدى** : أطلس التاريخ الأفريقى ، ترجمة مختار السويفى ، القاهرة ، ١٩٨٧ ص ٩٥ .

- **مكى شبيكة** : مملكة الفونج الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٧ .

(٢) راجع فى تفصيل ذلك :

- **بدر الدين العينى** : عقد الجمان ، جـ ٢ ، القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ١٠٥ .

- **مصطفى مسعد** : الاسلام والنوبة ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ١٤٥ .

(٣) **المقريزى** : البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب طبعة الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٢٥ .

(٤) **حسن محمود** : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٩٣ .

(٥) **ج فانتينى** : تاريخ المسيحية فى الممالك النوبية والسودان الحديث ، الخرطوم ، ١٩٧٨ ، ص ١٩٦٢ .

(٦) **ج فانتينى** : المرجع السابق ص ١٦٣ .

(٧) **عبدالرحمن زكى** : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٠ .

(٨) **النويرى شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب** : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ ٣١ ، طبعة القاهرة ، ١٩٩٠ ، ص ٢٥ .

(٩) **ابن خلدون** : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، مجلد (٥) دار الكتاب ، اللبنانى ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٨٦٢ .

(١٠) راجع فى تفصيل ذلك :

- **دكتور / حسن إبراهيم حسن** : انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية ، طبعة ثانية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٩٣ ، ص ١٨ .

(١١) **ابن الفرات** : ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم : تاريخ ابن الفرات ، حققه قسطنطين رزيق المطبعة الأمريكانية ، بيروت ١٩٤٢ ، ص ص ٤٦ ، ٤٨ .

(١٢) **تاريخ بن الفرات** : مرجع سابق ص ٤٨ .

- **مصطفى مسعد** : الاسلام والنوبة فى العصور الوسطى بحث فى تاريخ السودان وحضارته فى أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٤٨ .

(١٣) - **النويرى** : نهاية الأرب جـ ٣١ ، مرجع سابق ص ٣٩ .

ابن الفرات : مرجع سابق ص ٨٢ .

(١٤) - **المقريـزى** : مرجع سابق ص ص ٧٤٩ : ٧٥٢ .

- **ابن الفرات** : مرجع سابق ص ٩٨ .

- **دكتور / عبدالرحمن زكى** : الاسلام والمسلمون فى شرق أفريقيا ، القاهرة ، ١٩٦٥ ص ٢٠ .

(١٥) - **دكتور مصطفى مسعد** : الاسلام والنوبة ، مرجع سابق ، ص ١٥٣ .

- **ابن خلدون** : مجلد (٥) مرجع سابق ص ٨٦٤ .

(١٦) **المقريزى** : البيان والأعراب ، مرجع سابق ص ص ٤٨ : ٥٠ .

(١٧) **المقريزى** : المرجع السابق ص ١٦٢ .

(١٨) - **ابن حجر العسقلانى** : أنباء الغمر بأبناء العمر فى التاريخ طبعة بيروت ١٩٨٦ . ص ٢٧٠ .

- **ابن خلدون** : مرجع سابق ص ٩٢١ .

(١٩) - **سليمان عطية** : سياسة المماليك فى البحر الأحمر حتى نهاية عصر السلطان برمباى رسالة دكتوراة غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٢٨٢ .

(٢٠) **السخاوى** : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة د.ت ، ص ٩٣ .

(٢١) **المقريـزى** : البيان والأعراب ، مرجع سابق ص ٢٥٩ .

(٢٢) **ج فالنتينى** : مرجع سابق ص ١٦٣ .

(٢٣) **المقريـزى** : البيان والأعراب ، مرجع سابق ص ٣ .

(٢٤) **ابن ايـاس** : تشق الأزهار فى عجـائب الأمصـار ، مخطوط مصدر - جغرافيا الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ، ص ٢٨٩ .

- **عبدالرحمن زكى** : الاسلام والمسلمون شرق أفريقيا ، مرجع سابق ، ص ٤٥٠ .

- **دكتور / جمال الدين سرور** : دولة بنى قلاوون فى مصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة، ١٩٧٥ ، صص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢٥) **المقريزى** : البيان والأعراب ، مرجع سابق ، ص ١٢٣ .

(٢٦) **المقريزى** : البيان والأعراب ، مرجع سابق ، ص ١٥٠ .

(٢٧) **المقريزى** : مرجع سابق ص ٧٥١ .

(٢٨) **المقريزى** : مرجع سابق ص ١٩٢ .

(٢٩) **المقريزى** : ص ١٩١ .

(٣٠) **حسن عبدالوهاب** : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ١٣٥ .

(٣١) **ابن اياس** : جـ ٣ ، مرجع سابق ص ٢٩ .

(٣٢) **المقريزى** : السلوك جـ ١ ص ٧٥١ .

(٣٣) **المقريزى** : مرجع سابق ص ١٩١ .

(٣٤) **د. عبدالشافى غنيم عبدالقادر** : البحر الأحمر طريقا للدعوة الإسلامية ، سمنار البحر الحمر ، جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٦٠ .

(٣٥) **أنتونى عبدالسيد** : الكنيسة المصرية القبطية وكنيسة أثيوبيا ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ١٦ .

(٣٦) **د./ جمال زكريا قاسم** : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ، معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٤٩ .

(٣٧) **د. جمال زكريا** :

المرجع السابق ص ٤٩ .

(٣٨) **دكتور / سيد محمد عبدالمعتصم** : دول إسلامية فى شرق أفريقيا ، المجلس الأعلى للشئون الأسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ١٦٠ .

(٣٩) **السخاوى** : التبر المسبوك جـ ١٠ ، مرجع سابق ص ١١١ .

(٤٠) **وداد نصر** : مدينة تمبكت : رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة . ١٩٨٦ ، ص ٢٣٣ .

وقد اعتمدنا فى هذه الدراسة أيضا على : نهلة أنيس محمد مصطفى ، العلاقات بين مصر والمماليك الأفريقية فى عصر دولة المماليك الجراكسة ٧٨٤-٩٣٣ هـ / ١٣٨٣ - ١٥١٧ م ، كلية الدراسات الإسلامية الانسانية جامعة الأزهر ، ١٩٩٥ ص ص ٣٧ - ٣٩ ، ٢٣٣ - ٢٤٥.

أمن جنوب مصر في مطلع العصور الحديثة

الأستاذ الدكتور/ فاروق عثمان أباظة
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
ووكيل كلية الآداب – بجامعة الاسكندرية

تعرض أمن جنوب مصر للتهديد فى مطلع العصور الحديثة نتيجة لجهود بعض القوى الأوربية فى نهاية العصور الوسطى وعقب الفشل الذى منيت به الحروب الصليبية بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين – من أجل استقطاب الحبشة التى كانت تابعة من الناحية العقائدية للكرازة المرقسية الارثوذكسية اليعقوبية بالاسكندرية ، والتى كانت تربطها بالعالم العربى والإسلامى روابط عديدة ، وكان الأوربيون يهدفون من وراء ذلك إيجاد حليف يساعدهم على أحكام الحصار الاقتصادى على العالم الإسلامى ، بل وتحريك قواهم العسكرية لضربه من الجنوب ، فضلا عن محاولاتهم تحريض الأحباش على تنفيذ فكرة طالما نادى بها دعاة الحروب الصليبية فى أوروبا وهى تجويع مصر والقضاء على شعبها باعتباره ركيزة العالم العربى الإسلامى ، وذلك بتحويل مجرى النيل عن مصر من منابعه فى الحبشة ، وظلت هذه الفكرة تراود عقول المتحمسين للحروب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة .

وكانت العلاقات الدولية بين الشرق الإسلامى والغرب الأوربى قد شهدت فى الفترة الممتدة بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين حروبا مروعة عرفت بالحروب الصليبية أو بحروب الإفرنج ، والتى ظل صداها يدوى حتى نهاية العصور الوسطى بحيث بدا واضحا جليا فى حركة الكشوف الجغرافية التى تهدف إلى الكشف العلمى فى حد ذاته بقدر ما كانت تعبيرا عن روح التعصب الدينى والعداء للعرب والمسلمين ورغبة فى السيطرة على مقدراتهم ، ذلك لأن تلك الحركة كانت رد فعل واضح للفشل العسكرى الذى منيت به الحروب الصليبية من جهة ، وللوجود الإسلامى الذى ظل قائما فى الأندلس لمدة ثمانية قرون متعاقبة من جهة أخرى ، فضلا عن أنها انعكاسا طبيعيا لنجاح الأتراك العثمانيين المسلمين فى فتحهم للقسطنطينية فى عام ١٤٥٣ م واندفاع قواتهم إلى سواحل البحر الأسود وبلاد فارس من ناحية الشرق وإلى أوربا من ناحية الغرب ، مما أدى إلى سد الطرق التجارية الموصلة بين آسيا

وأوربا عبر هذه المناطق ، وترك أسوأ الأثر على اقتصاديات أوربا وشل حركة التجارة فيها ، فى نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة .

وكانت حركة الكشوف الجغرافية هى أفضل ميدان يستثمر فيه الغرب طاقة العداء الصليبى - رغم إغراقه فى العلمانية - لحشد الجهود لتحقيق غايته بدعوى استرداد الاماكن المسيحية المقدسة فى بيت المقدس من أيدى العرب المسلمين ، على نحو ما أكدته المصادر المعاصرة التى استندت إلى البراءة التى أصدرها البابا نيقولا الخامس - بابا روما عام ١٤٥٤م أى فى السنة التالية مباشرة لفتح الأتراك العثمانيين للقسطنطينية والتى تطابق نفس البراءة التى أصدرها من قبل البابا أوربان الثانى فى عام ١٠٩٥ م . وقد عبرت عن ذلك أيضا تلك الممارسات التعسفية القاسية التى مارسها البرتغاليون فى البحار الشرقية ، وعلى سواحل العالم الإسلامى المطلة عليها حيث مارسوا أبشع الجرائم مع شعوب تلك المناطق بطريقة انتقامية .

ولم تقتصر الممارسات البرتغالية فى الكشوف الجغرافية على هذه الأساليب الانتقامية البشعة التى سبق أن مورست أثناء الحروب الصليبية ، بل إنها اتجهت إلى أساليب الاستقطاب العقائدى من أجل إيجاد حليف يساعدهم فى أحكام الحصار الاقتصادى على العالم الإسلامى ، وحاولوا أن يمارسوا ذلك على الحبشة رغم علمهم بأنها كانت تابعة من الناحية العقائدية للكرازة المرقسية الأرثوذكسية اليعقوبية بالأسكندرية ، كما كانت تربطها بالعالم العربى والإسلامى روابط عديدة . وكان بعض ملوك الحبشة قد سبق أن مالوا إلى الاستجابة إلى نداءات الأوربيين بالاتفاق معهم على تطويق بلاد المسلمين فى الشرق الأدنى من ناحيتى الشمال والجنوب ، فى الوقت الذى حرصت فيه البابوية الكاثوليكية على تحقيق هذا التحالف مع الحبشة رغم الخلافات العقائدية بينهما ، مما جعل البابوية الكاثوليكية ترسل الرسل والسفراء إلى ملوك الحبشة فى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى فى عامى ١٣٠٥ و١٣١٦ م كما أرسل ملك فرنسا سفارة إلى ملك الحبشة فى عام ١٣٣٨م(١) لتحقيق تلك الغاية . وقد أدت تلك الاتصالات المتكررة بين الغرب الأوربى من ناحية وملوك الحبشة من ناحية أخرى إلى استثارة الأحباش ضد المسلمين وجذبهم إلى دائرة الحركة الصليبية الاوربية ومن ذلك أن ملك الحبشة لم يكد أن يسمع خبر إغارة القبارصة الصليبيين على الاسكندرية فى سنة ١٣٦٥م حتى بادر إلى اعداد جيش ضخم ، وأعلن أنه سيهاجم مصر من ناحية الجنوب ، وبذلك يتم تطويقها اقتصاديا وحربيا . ولكن لم يلبث أن جاءت الأخبار إلى ملك الحبشة بانسحاب

القبارصة من الاسكندرية ، وعندئذ عاد الأحباش إلى بلادهم بعد أن فقدوا كثيرا من رجالهم دون جدوى . وبذلك لم يتعرض أمن جنوب مصر لأية مخاطر رغم التهديد بمهاجمته من قبل الأحباش آنذاك .

وعلى الرغم من ذلك فإن ملوك الحبشة لم يتخلوا عن فكرة حصار مصر ومهاجمتها من ناحية الجنوب ، بدليل أن اسحق الأول ملك الحبشة (١٤١٤-١٤٢٩م) أراد القيام بحملة صليبية كبرى ضد مصر ، من ناحية الجنوب ، وأرسل إلى ملوك أوربا فى سنة ١٤٢٨م يدعوهم لمساعدته فى القيام من جانبهم بهجوم على مصر من ناحية الشمال . وتروى المصادرأن رسول الملك إسحق إلى ملوك غرب أوربا كان تاجرا فارسيا يدعى نور الدين التبريزى .وقد نجح هذا الرسول الخائن فى أبلاغ رسالة ملك الحبشة إلى حكام الغرب الأوربى ، وتم الاتفاق فعلا على خطة مزدوجة لمهاجمة مصر من ناحيتى الجنوب والشمال . ولكن حدث عند عودة التبريزى بعد ذلك إلى الحبشة عن طريق مصر أن أكتشف أمره فقتله السلطان المملوكى برسباى جزاء خيانته . وعلى الرغم من مقتل التبريزى فإن دعوة ملك الحبشة صادفت قبولا لدى بعض ملوك أوربا ، من ذلك أن الفونس الخامس ملك أرغونه شرع فى أعداد أسطوله لمهاجمة شواطىء مصر ، وأرسل سفارة إلى ملك الحبشة يؤكد فيها حسن نيته عن طريق عقد مصاهرة بين الطرفين . كذلك أظهر ملك فرنسا اهتماما كبيرا بذلك المشروع على الرغم من انشغال فرنسا عندئذ بحرب المائة عام ضد إنجلترا حتى عام ١٤٥٣م .

وتمت هذه الاتصالات الودية بين صليبيى غرب أوربا والأحباش قبل اكتشاف البرتغالين لطريق رأس رجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى بين عامى ١٤٨٧-١٤٨٩ م . وكانت هذه الاتصالات مصحوبة كذلك بفكرة أخرى طالما نادى بها دعاة الحروب الصليبية فى أوروبا ، وهى تجويع مصر والقضاء على شعبها بتحويل مجرى النيل عن مصر من منابعه فى الحبشة . وظلت هذه الفكرة تراود عقول المتحمسين للحروب الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى ، فأرسل ألفونس ملك أرغونه إلى ملك الحبشة فى سنة ١٤٥٠م يطلب منه أن يعمل على تحويل مجرى النيل ومهاجمة مصر من ناحية الجنوب ، فى الوقت الذى يقوم ألفونس بغزو بلاد الشام .

ولهذا فإن خطة الغرب الأوربى فى مطلع العصور الحديثة فـى فرض حصـار اقتصـادى على مصر والعالم العربى والإسلامى هى من إفرازات الحركة الصليبية فى العصور الوسطى باعتباره عامل مؤثر فى طاقته الحربية ، سواء بالبحث عن طريـق جديـد غير طريـق مصـر للحصول على تجارة الشرق ، أو عن طريق البحث عن حليف جديد يساعد فى إحكام الحصار الاقتصادى عن طريق إغلاق البحـر الأحمـر مـن ناحيـة الجنـوب ، وحرمـان مصـر مـن مياه نيلها ، وهى الأهداف التى سعى البرتغاليون إلى تحقيقها فى مطلع العصور الحديثة . غـير أن رد الفعل الصليبى لم يصل إلى هذا الحد فقط ، بل تطلع البرتغاليون إلى غزو الجزيرة العربية مركز العقيدة الإسلامية والعدوان على مقدساتها والذى بلغ حـد إعـلان رغبتهم فـى نبش قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة المنـورة . كمـا كـانوا يهدفـون كذلـك إلـى إدخـال الحبشة فى حظيرة الكاثوليكية وتحويلها عن كنيسة مصر ليستمر ولاءها لهم(٢) ، ومعنى ذلـك انهم استهدفوا اقتلاع كل تراث المنطقة من جذوره سواء كان إسلاميا أو قبطيا ، وظـل هدفهـم هذا قائما حتى بعد وصولهم إلى الهند والشرق الأقصى وسيطرتهم على منابع التجارة الشرقية فى المحيط الهندى .

واستطاع البرتغاليون مستندين إلى قوتهم وخبرتهم البحريـة التـى اقتبسـوها مـن العـرب والمسلمين من جهة ، وإلى جهـود استطلاعية أخـرى اتسـمت بالسـرية وتركـزت حـول جمـع المعلومات عـن مصـادر تجـارة الشـرق ، وطـرق هـذه التجـارة ، وأنـواع البضـائع الشـرقية ، وإمكانـات القـوى التـى سيحاربونها مـن جهـة أخـرى . وتمكـن الملـك البرتغـالى يوحنـا الأول JEANI أن يضـع اللبنـة الأولـى فـى تـاريخ البحريـة البرتغاليـة المتسـمة بالطـابع العدوانــى الصليبى ، حيث استولى على ميناء " سبته " على الساحل الغربى لأفريقيا من أيـدى المسـلمين فى عام ١٤١٥م ، واقطعها لولده الأمير هـنرى الشـهير بـالملاح والمعـروف بحقده وكراهيتـه المتناهية للإسلام والمسلمين ، والذى كرس حياته وبذل جهوده لاكتشاف طريـق بحـرى جديـد يدور حول أفريقيا للوصـول إلـى الهند للسيطرة علـى تجارتـه(٣) . وبـدأت رحـلات الكشـوف البحرية البرتغالية لسواحل غرب أفريقيـا فـى سنة ١٤١٨ . وقـد لجـأت البرتغـال إلـى إضفـاء الشـرعية للكنيسـة البرتغاليـة فـى أعقـاب فتـح العثمـانيين للقسـطنطينية فـى سـنة ١٤٥٣ عندمـا حصلت على براءة البابا نيقولا الخامس فى اليوم الثـامن مـن ينـاير سـنة ١٤٥٤ بأحقيـة التـاج البرتغالى فى أمتلاك سبته وغيرها ، مما يؤكد توفر الروح الصليبية فى توسع البرتغال فضـلا عن الدوافع الاقتصادية الغالبة .

وقد استمرت الرحلات البحرية البرتغالية تكتشف الساحل الغربى لأفريقيا ، حتى تمكن " بارتلميوديـاز Bartholomew Diaz " من الوصـول إلـى أقصـى نقطـة فـى هـذا السـاحل واكتشاف الطرف الجنوبى لأفريقيا الذى عرفه " بـرأس العواصـف " والـذى أطلق عليه ملك البرتغال يوحنا الثانى Jean II (١٤٨١-١٤٩٥) " رأس الرجاء الصالح " تيمنا بالكشف الجديد عام ١٤٨٧ (٤).

وجاء بعد ذلك الرحالة البرتغالى " بيرو دى كوفلهام Pero De Covilham " الـذى تمكن من الوصول إلى مصر عبر البحر المتوسط فى سنة ١٤٨٧ ، وأبحر منها إلـى ميناء سـواكن عبر البحر الأحمر ، ثم اتجه جنوبا حتى وصل إلى عدن ، ووصفها بأنها كـانت آنـذاك مدينـة عظيمة وأن بها تجار من جميع الأجناس ، وبعد ذلك واصل رحلته إلى الهند(٥) . وعند عودته قام بزيارة معظم المناطق الإسلامية الواقعة على السـاحل الشـرقى لأفريقيـا ، كمـا مـر بمدينـة زيلع ، ثم اتجه جنوبا حتى وصل إلى " سوفالا "(٦) . وقد عاد هذا الرحالة إلـى مصـر حيـث تمكن من جمع معلومات عن الحبشة دفعته للتوجه إليها . وكانت رحلتـه إلـى الحبشـة - بدايـة لسلسة من رحلات المستكشفين والبعثات الأوربية التى وفدت إليها أثناء القرن السادس عشر ، والتى كانت تهدف إلى استقطابها للكاثوليكية لتطويق العالم الاسلامى وانتزاع التجارة الشـرقية التى تشكل مصـدر قوتـه آنـذاك . وقد أصبـح " بيرودى كوفلهـام " مستشـارا لملـك الحبشـة " قسطنطين الثانى " ثم أصبح بعد ذلك مبعوثه إلى ملك البرتغال " يوحنـا الثـانى " للاتفـاق علـى حملة مشتركة لتحرير القدس ، ولكن تلك البعثة لم تبتعد كثيرا بسبب نزاع نشب بيـن حـراس البعثة وبعض الأهالى ، وهكذا فشل هذا المشروع العدوانى المتعصب(٧) .

وقد مهـدت جهـود الرحالـة " بـيرودى كوفلهـام " السـبيل أمـام الرحالـة " فاسـكو دا جامـا Vasco Da Gama " عندما قام برحلتـه حـول رأس الرجـاء الصـالح فـى سـنة ١٤٩٧ ، ومـر بالساحل الشرقى لأفريقيا حتى وصل إلى موزمبيق ، حيث وجد قاربا على متنه بعض الزنوج وأحد البحارة ، ظنه البرتغاليون فى بداية الأمر من المغاربة ، وعندما اقتربت السفن البرتغالية من القارب ، هرع الزنوج وألقوا بأنفسهم فى البحر وفروا إلى الساحل ، بينما نقل البحار إلـى سفينة القيادة البرتغالية حيث أحسن " داجاما " استقباله ، واكتشـف أن الرجـل هنـدى ، وليـس عربيـا مغربيـا ، وأنـه مـن أهـل " كمبـاى Campay " بـالهند ويدعـى " دافـان " ، وقـد اتخـذه " داجاما " مستشارا له لأنه كان خبيرا بالتوابل ومن سماسرتها . وقد وافـق هـذا المـلاح علـى مرافقة البرتغاليين إلى الهند ، وتعهد بتزويدهم بحمولة من التوابل نظير توصيله إلى بلاده(٨).

كما استجاب شيخ موزمبيق لطلب " داجاما " وزوده باثنين من المرشدين ، إلا أنهما تمكنا من الفرار عندما تأكدا أن البرتغاليين يمارسون العنف مع الأهالي(٩) . ولهذا لم يغامر " داجاما " بالرسوبسفنه في ممبسا ، عندما شك في احتمال قيام ملكها بتدمير سفنه وإغراقها انتقاما لما فعله ضد أهالي موزمبيق .

وعندما وصل " داجاما " بعد ذلك إلى ميناء مالندى – الواقعة حاليا في كينيا – لقى فيها ترحيبا من ملكها خوفا أو ضعفا . فلما عزم على مغادرتها بعد عدة أسابيع ، طلب من صاحبها إمداده بملاح يرشده إلى الهند ، فاستجاب له الملك وأمده بملاح ماهر قاد أسطوله إلى قاليقوط ، فوصلها في مايو سنة ١٤٩٨(١٠) . واذا كان ذلك ما أوردته الكتابات البرتغالية حول هذا الموضوع فإن أول من أشار اليه من المؤرخين العرب قطب الدين النهروالي الذى أشار إلى أن البرتغاليين " دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج وقال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، وتوغلوا في البحر ثم عودوا ، فلا تنالكم الآمواج ، فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم . فكثروا في بحر العرب .. وصارت الامدادات تترادف عليهم من البرتغال . وصاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرا ونهبا ، ويأخذون كل سفينة غصبا ، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين وعم أذاهم على المسافرين "(١١) . وعلى هذا النص أعتمد المستشرق الفرنسي " جبريل فران Ferrand " فيما ذهب اليه من أن أحمد بن ماجد العربي المسلم هو الملاح الذى قاد أسطول " فاسكو دا جاما " من مالندى إلى موطن التوابل في قاليقوط(١٢) . ومن المرجح أن دور ابن ماجد أنحصر في إسداء النصح وتقديم المشورة للرحالة البرتغالي " فاسكو دا جاما " وإمداده بالمعلومات التي ساعدت على سلامة سفنه ، وتعليمه الطريق قولا ووصفا ، وليس عملا وقيادة . أما الملاح الذى قاد بمهمة إرشاد " فاسكو دا جاما " فهو ذلك الملاح الهندى الذى أشارت اليه المصادر البرتغالية .وبذلك " لا تلقى المسئولية كاملة على ابن ماجد في وصول البرتغاليين إلى الهند ، خاصة وأن البرتغاليين آنذاك لم يكشفوا عن أهدافهم الحقيقية ولهذا كان من السهل عليهم العثور على من يتعاون معهم ، طالما كانت معاملتهم حسنة ، وتكلفوا بإعطاء الأجر المناسب "(١٣) . وقد استغرقت رحلة " فاسكو دا جاما " الأولى إلى الهند ثلاث سنوات (١٤٩٧-١٤٩٩) عاد بعدها إلى لشبونة في شهر سبتمبر ١٤٩٩ .

وقد بدأ التعصب الصليبي لدى "فاسكو دا جاما " عندما قام أثناء رحلته بمهاجمة أحدى السفن التجارية العربية وأستولى على ما بها من بضائع ، ثم أمر بإغراقها بمن تحملهم من

الركاب ، كما قام أثناء رحلته الثانية إلى الهند فى سنة ١٥٠٢ بتكليف أحد قادته بالاقامة الدائمة على رأس خمس سفن حربية عند مدخل البحر الأحمر لمهاجمة السفن التجارية الإسلامية ولمنعها من المتاجرة أثناء إبحارها فى مياه المحيط الهندى إلا بتصريح خاص من قبل البرتغاليين . واشتط " فاسكو دا جاما " فى مهمته عندما قام فى شهر يناير سنة ١٥٠٣ بمهاجمة سبع سفن إسلامية وأستولى عليها ، بل إنه قام بقتل بعض ركابها وأسر البعض الآخر ، وفى ذلك يورد المؤرخ " بامخرمه " فى حولياته عن سنة ٩٠٨هـ التى يوافق مطلعها اليوم السابع من يوليو سنة ١٥٠٢ أن " فى هذه السنة ظهرت مراكب الفرنج فى البحر بطريق الهند وهرموز وتلك النواحى ، وأخذوا نحو سبعة مراكب وقتلوا أهلها وأسروا بعضهم "(١٤) . كما يشير ابن أياس فى حولياته عن سنة (٩١٢هـ التى يوافق مطلعها ٢٤ مايو سنة ١٥٠٦م) إلى أنه قد حدث فى هذه السنة أن قويت شوكة الفرنج ، وحصل على المسلمين منهم ضرر عظيم من ناحية الهند وهرمز ، أهلكهم الله "(١٥) . ولم يكتف البرتغاليون بذلك ، بل إنهم هددوا جدة فى سنة ١٥٠٥م ، وتمكن بعض جواسيسهم من التسلل إلى مكة نفسها على هيئة حجاج فى زى عربى وكشف أمرهم(١٦) . وكان ملكهم قد أقسم أن يستولى على مكة وأن يقوم بنبش قبر الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) فى المدينة المنورة كما سبق أن أشرنا(١٧) .

وقد تطورت أهداف الرحالة البرتغاليين فى المحيط الهندى التى بدأت برغبتهم فى كشف الطريق البحرى المؤدى إلى الهند لتحقيق المكاسب الاقتصادية لبلادهم بتحويل مسار التجارة الشرقية عن العالم العربى والإسلامى لافقاده أهم مقومات قوته إعمالا لتعصبهم الصليبى ، إلى الرغبة فى احتكار تجارة الشرق والسيطرة على مصادرها الأصلية ، بل وإلى إقامة أول حكومة استعمارية أوربية فى بلاد الشرق وضعوا على رأسها نائبا لملك البرتغال فى بلاد الهند ، وكان تفوق البرتغاليين الحربى فى ذلك الوقت عاملا أساسيا فى سرعة تطور موقفهم أثناء تلك الفترة بحيث أصبحوا يمتلكون سفنا حربية مزودة بالمدافع ، وهى أسلحة لم تكن معروفة فى الهند فى ذلك الحين(١٨) . كما سيطر البرتغاليون على جزيرة سقطرى فى عام ١٥٠٧ الواقعة فى مواجهة القرن الأفريقى وتشرف على خليج عدن وشرق أفريقيا ، وسيطروا على مضيق هرمز فى نفس السنة واحتكروا مصائد اللؤلؤ فى الخليج العربى(١٩) . وامتد نفوذهم إلى مضيق ملقا فى عام ١٥١١ فى أقصى جنوب شبه جزيرة الملايو فى الشرق الأقصى والتى كانت تعد من أعظم قواعد التجارة العالمية حيث كانت تتجمع منتجات منطقة الشرق الأقصى والهند الصينية . وهكذا أدى نشاط الرحالة البرتغاليين فى المحيط الهندى إلى سيطرة البرتغال على التجارة الشرقية ومصادرها فى أرجاء هذا المحيط وحرمان

العالم العربى والإسلامى من عوائدها نتيجة لتحويل طريق التجارة الشرقية إلى رأس الرجاء الصالح .

وكان من الطبيعى أن تقوم القوى العربية والإسلامية فى العالم العربى والإسلامى وفى كافة أرجاء المحيط الهندى بمقاومة هذا الغزو البرتغالى الاستعمارى الصليبى فى مراحله الأولى بكافة ما لديها من طاقات وإمكانات . وقد تمثلت هذه القوى فى الكيانات المحلية الصغيرة التى قامت كل منها بمواجهة هذا الغزو بقدر طاقتها وامكاناتها مثل الدولة الطاهرية فى جنوب غرب الجزيرة العربية ، ودولة اليعاربة فى الساحل الغربى للخليج العربى ، والسلطنات السلامية على الساحل الغربى للهند وغيرها من القوى المحلية وان كانت طاقاتها وامكاناتها محدودة للغاية إذا قيست بطاقات وأمكانات القوة البرتغالية الطامعة والمتطلعة إلى السيطرة والثراء ، ولهذا استنجدت هذه الكيانات المحلية بالقوى الإسلامية البحرية الكبرى(٢٠) التى تمثلت فى الدولة المملوكية التى كانت تسيطر على مصر والشام والحجاز والتى سبق أن واجهت فى بداية عهدها نهاية الحروب الصليبية السابقة وتوابعها والتى واصلت دورها فى مواجهة الغزو البرتغالى منذ بدايته حتى عام ١٥١٧ حيث أرسلت حملتين إلى مياه الهند لمواجهته هناك ثم حلت محلها الدولة العثمانية التى كانت اقدر منها على المواجهة والصمود أمام الخطر البرتغالى طوال القرن السادس عشر الميلادى حيث أرسلت ثلاث حملات إلى مياه الهند أغلقت مضيق باب المندب فى وجه البحرية البرتغالية حتى خبا نجم البرتغاليين فى المحيط الهندى فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى وحلت محلهم قوى استعمارية أخرى جديدة تمثلت فى هولندا وانجلترا وفرنسا التى أسست شركات احتكارية استعمارية ضخمة فى المحيط الهندى ، والتى أصبحت تمثل أعمدة الاستعمار الاوربى الحديث هناك وفى العالم أجمع .

وقد تمكن الاتراك العثمانيون من ملء الفراغ السياسى والعسكرى الناتج عن ضعف الدولة المملوكية فى مواجهة الغزو البرتغالى الاستعمارى الذى هدد الاماكن الإسلامية فى الحجاز . وقد نجح العثمانيون فى اقامة مظلة أمنية استراتيجية امتدت من الخليج العربى شرقا إلى حدود المغرب العربى فى أقصى الغرب ، حيث كان الأسبان يتطلعون إلى السيطرة على سواحل المغرب العربى بعد أن تمكنوا من إخراج المسلمين من غرناطة فى سنة ١٤٩٢م وتعقبوهم فى ديارهم بالمغرب العربى للحيلولة دون عودتهم إلى الاندلس . كما امتدت المظلة الأمنية العثمانية إلى اليمن فى أقصى الجنوب وإلى الإحساء فى شرق الجزيرة العربية لإقامة

حزام امنى حول الحرمين الشريفين بينما كان الربع الخالى فى جنوب الجزيرة العربية يشكل درعا واقيا لحماية الحرمين الشريفين من ناحية الجنوب . وظلت الدولة العثمانية تحرص على تأمين الأماكن المقدسة فى الحجاز وفلسطين خلال الأربعة قرون التى حكمت فيها معظم أجزاء العالم العربى فى العصر الحديث .

وإذا كان الهدف الصليبى لدى البرتغاليين قد بدا واضحا فيما تناولناه من ممارستها فى نطاق المحيط الهندى ، فقد بدا هذا الهدف الصليبى لدى الأسبان الذين إندفعوا فى اتجاه الغرب للوصول إلى الهند فوصلوا إلى العالم الجديد ، تدفعهم الرغبة فى جمع الأموال لاسترداد بيت المقدس من أيدى المسلمين ، كما ثبت ذلك فى أوراق كريستوفر كولومبس مكتشف هذا العالم الجديد(٢١) مما يؤكد الهدف الصليبى لديه، ويثبت صدى الحروب الصليبية فى حركة الكشوف الجغرافية فى مطلع العصور الحديثة . إذ كان الشرق الاسلامى المتفوق دائما بحضارته وأمكانياته المادية ماثلا أمام كولومبس من خلال قراءاته ومعايشته للواقع التجارى فى موانى ايطاليا ، ومن مطالعته للكتب العربية فى علم الجغرافيا سواء فى ايطاليا أو فى البرتغال ، بحيث تمكن كولومبس من رسم خرائطه للعالم الشرقى الذى كان يطمح إلى ايجاد طريق جديد اليه ، غير تلك التى سيطر عليها العرب المسلمون ، وكان حلمه فى النهاية أن يجلب الثروة من اكتشافاته ليعد العدة ليتمكن من استرداد بيت المقدس للعالم المسيحى من أيدى العرب المسلمين . ومنهنا يبدو بوضوح صدى الحروب الصليبية فى حركة الكشوف الجغرافية بالنسبة للأسبان كما سبق تبينه بالنسبة للبرتغاليين .

كذلك أسست الدولة العثمانية ايالة الحبش وعاصمتها جده عقب فتحها لمصر عام ١٥١٧ وامتد نفوذها إلى الساحل الافريقى فى سواكن ومصوع وعصب لتأمين مصر والأماكن الاسلامية المقدسة ضد أى تهديد لأمنها من ناحية الجنوب ، فضلا عن تنشيط الحركة التجارية بين الجزيرة العربية والساحل الغربى للبحر الأحمر وشرق افريقيا ، فمنذ أن بسط العثمانيون نفوذهم على الشام فى عام ١٥١٦ ، وعلى مصر والحجازفى عام ١٥١٧ - اهتموا بتأمين الحجاز - خاصة الأماكن المقدسة الإسلامية ، من اطماع الدول الاوربية .

وكان العثمانيون قد حلوا محل المماليك فى مواجهة قوة البرتغاليين التى بدأت تظهر فى البحار الشرقية ، وأخذت تهدد العالم الاسلامى واقتصادياته وانضمت الحبشة المسيحية إلى البرتغال فى هذا الصراع ضد القوى الإسلامية ، ولذلك جعل العثمانيون من جدة ، باعتبارها

المدخل للاقطار الحجازية - باشويه أوايالة ألحقوا بها بعض الموانى الواقعة على ساحل البحر الأحمر الافريقى التى خضعت لهم وأهمها سواكن ، ومصوع ، وأطلقوا عليها (ولاية الحبش) وترجع هذه التسمية إلى أن من أهم مهام هذه الولاية العثمانية مراقبة حركات الأحباش ومن يساندونهم من الدول الاوربية ، ولذا كانت لهذه الولاية العثمانية أهمية خاصة بالنسبة لبلاد الحجاز وبالنسبة لمصر ، فهى العين الساهرة لمراقبة الخطر الذى قد يهدد هذه البلاد الآسيوية عبر هذا الشريان المائى الهام - البحر الاحمر .

وبعد أن تغلب إبراهيم باشا على الوهابيين (١٨١٨) ، أعطاه السلطان الحكم بالحجاز والحق به ولاية الحبش العثمانية ، وفى سنة ١٨٤٠ انسحب محمد على من بلاد العرب ومن سواكن ومصوع - وفى ١٩رمضان ١٢٦٢ (١٢ سبتمبر ١٨٤٦) أحيلت إدارة جمركى وسواكن إلى محمد على - فأحال ادارتهما إلى مديرية التاكه - لكن فى عهد عباس أعيدت إدارة جمرك مصوع وسواكن إلى ايالة جدة فى ١٢٦٥هـ (١٨٤٩م) .

وعندما تولى الخديوى اسماعيل الحكم فى مصر (١٨٦٣) بدأ يفكر فى ضم مينائى سواكن ومصوع للإدارة المصرية - خاصة بعد أن كثرت هجمات الأحباش للمينائين ، بدأت أطماع الدول الأوربية تتجه أكثر للبحر الاحمر خاصة أثناء الصراع على مشروع وصل البحرين المتوسط والاحمر ، والذى انتهى بفوز فرنسا بهذا المشروع وأخيرا افتتاح القناة للملاحة فى عام (١٨٦٩) ، وقد استند اسماعيل فى طلبه الحاق المينائين للإدارة المصرية إلى أسباب أبداها للباب العالى من أهمها الرغبة فى تأمين هذه البلاد ، والوقوف فى وجه الاحباش وأطماعهم ، ومنع الاجانب وغيرهم من استخدام هذين المينائين لتهريب الرقيق - ووعد خديوى مصر بان يدفع لخزينة جدة سنويا ما كان الميناء أن يدافعانه هما وملحقاتها .

وفى أواسط شهر ذى الحجة ١٢٨١هـ (مايو ١٨٦٥م) أصدر السلطان عبدالعزيز بن محمود الثانى فرمانا باحالة المينائين إلى الإدارة المصرية على أن يؤدى ايرادهما إلى خزينة جدة ، وبعد أن كانت تلك الإحالة محددة بمدة حياة الخديوى اسماعيل عدل فرمان الاحالة فى فرمان تغيير الوراثة الصادر فى ٢٠ محرم سنة ١٢٨٣هـ (٢٧ مايو ١٨٦٦م) ، فجعلت الإحالة وراثية .

وقد قامت الإدارة المصرية بعد استلامها الميناءين بعدة اصلاحات شملت الميناءين كما شملت غيرهما من موانى البحر الأحمر التى خضعت للإدارة المصرية - خاصة بعد أن خصص لسواحل البحر الاحمر من السويس حتى رأس جافون - محافظ خاص للاهتمام بشئونها وتطويرها فى مختلف المجالات .

لكن انجلترا التى كانت قد استولت على عدن فى عام ١٨٣٩ ، وغيرها من الدول الأوربية - أخذت أبصارها تتجه أكثر لهذه المناطق الواقعة على البحر الاحمر بعدأن تطورت أحوالها وأخذت أهميتها تزداد - وبدأت هذه الدول تتصل بالسلطات المحلية فى هذه المناطق من شيوخ قبائل أو غيرهم وتعقد معهم اتفاقات لشراء مساحات من الارض لخدمة نشاطهم الاقتصادى كما ادعوا - وكانت هذه الوسائل شائعة فى القارة الأفريقية ، فتعرضت عصب ، وبيلول ، ما تعرضت مصوع وسواكن لهذه الموجة الاستعمارية ، وانتهى الامر باستيلاء ايطاليا بموافقة انجلترا على عصب (١٨٨٢) ، وبيلول (١٨٨٥) ، وعلى ميناء زولا (١٨٨٨)، كما استولت فرنسا على (أوبوك) ، أما انجلترا فقد احتلت سواكن (١٨٨٤) .

وكانت الاوضاع فى مصر بعد الاحتلال البريطانى لها (١٨٨٢) ، وقيام الثورة المهدية فى السودان وسقوط الخرطوم فى أيدى قوات المهدى (١٨٨٥) - مما تشجع هذه الدول على أن تنهش فى جسم الامبراطورية المصرية دون أن تجد قوة تستطيع أن تقف فى وجهها .

على أن سقوط هذه الموانى الهامة فى ايدى الاجانب ترتب عليه تعويض سلامة البلاد الإسلامية كلها للمخاطر خاصة شبة الجزيرة العربية ومصر ، فقد زادت الدول الاستعمارية من قبضتها على هذه البلاد وسعت لمد نفوذها عليها ، واتخذ التدخل الاجنبى فى شئون البلاد العربية صورا مختلفة منها ربط هذه البلاد بمعاهدات واتفاقات تقيد من حريتها وتربطها بالدول الاستعمارية ومنها التدخل المباشر فى شئون هذه البلاد ، ومنها ربطها اقتصاديا بالبلد المستعمر وتوجيه نشاطها الاقتصادى لخدمة اقتصاد الدول المستعمرة .

هكذا لعبت ايالة الحبش العثمانية دورا هاما فى تاريخ مصر والجزيرة العربية فكانت ذلك الحارس الذى يسهر على أمن مصر وأمن الجزيرة العربية ، بل ودول الشرق العربى كله . وحين دب الضعف فى الدول العثمانية ذاتها وفى ولاياتها ، انفتحت الابواب للطامعين فى املاك هذا الرجل المريض .

الحواشـــــى

(١) **سعيد عبدالفتاح عاشور** : أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، العدد ١١٨ ، المكتبة الثقافية ، ص٦٠-٦١ .

(1) Alvarez , F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the year 1520 - 1527 , pp. 265 , 270 .

(3) Ackinson , W.C. : A History of Spain and Portugal , p. 99 .

(4) Kammerer , A . : La Mer Rouge , L`Arabia depuis L`Antiquite , T.II.p. 75 .

(5) Playfair , R.L. A History of Arabia Felix or Yemen , Selections from the Records of the Bombay Government , XLIX , p. 96 .

(6) Coupland , R. : East Africa and its Invaders , p. 42 .

(7) Ziade, M.: Foreign Relations in the Fifteenth Century , vol .1 , pp. 287 , 288

(8) Howe , Sonia : In Quest of Spices , pp. 193 , 195 .

(9) Strandes , J. : The Portuguese Period in East Africa , pp. 20 , 24 .

(10) Strong , A. : The History of Kilwa , (J.R.A.S.) .

(١١) **قطب الدين النهروالى ، محمد بن أحمد الحنفى المكى** : " البرق اليمانى فى الفتح العثمانى " مخطوطه نشرها حمد الجاسر عام ١٩٦٧ ، ص ١٨ - ١٩ .

(12) Ferrand , G : Le Pilote Arabe de Vasco de Gama , pp. 290 , 307 . Art Shihab Al Din in ENC . of Islam .

(١٢) **محمد عبدالعال أحمد (دكتور)** : أضواء جديدة على ملامح فاسكو دى جاما ، مجلة معهد الدراسات والبحوث الأفريقية بجامعة القاهرة ، العدد الخامس ١٩٧٦ ، ص ١٥٥ - ١٦٧ - ١٧٨ .

Hunter , F.M. : An Account of the British Settlment at Aden , p. 162 .

(١٤) **بامخرمه ، أبو محمد بن عبدالله الطيب بن عبدالله** (٩٤٧هـ / ١٥٤٠م) ، قلادة النحرفى وفيات أعيان الدهر ، مخطوطة السنة الثانية بعد التسعمائة لوحة ١١٩٠ .

(١٥) **ابن أياس ، محمد بن أحمد** : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، جـ٢ ، ص٣٤٧ .

(16) Stripling , G.W.F. : The Ottoman Turks and the Arabs , p. 28 .

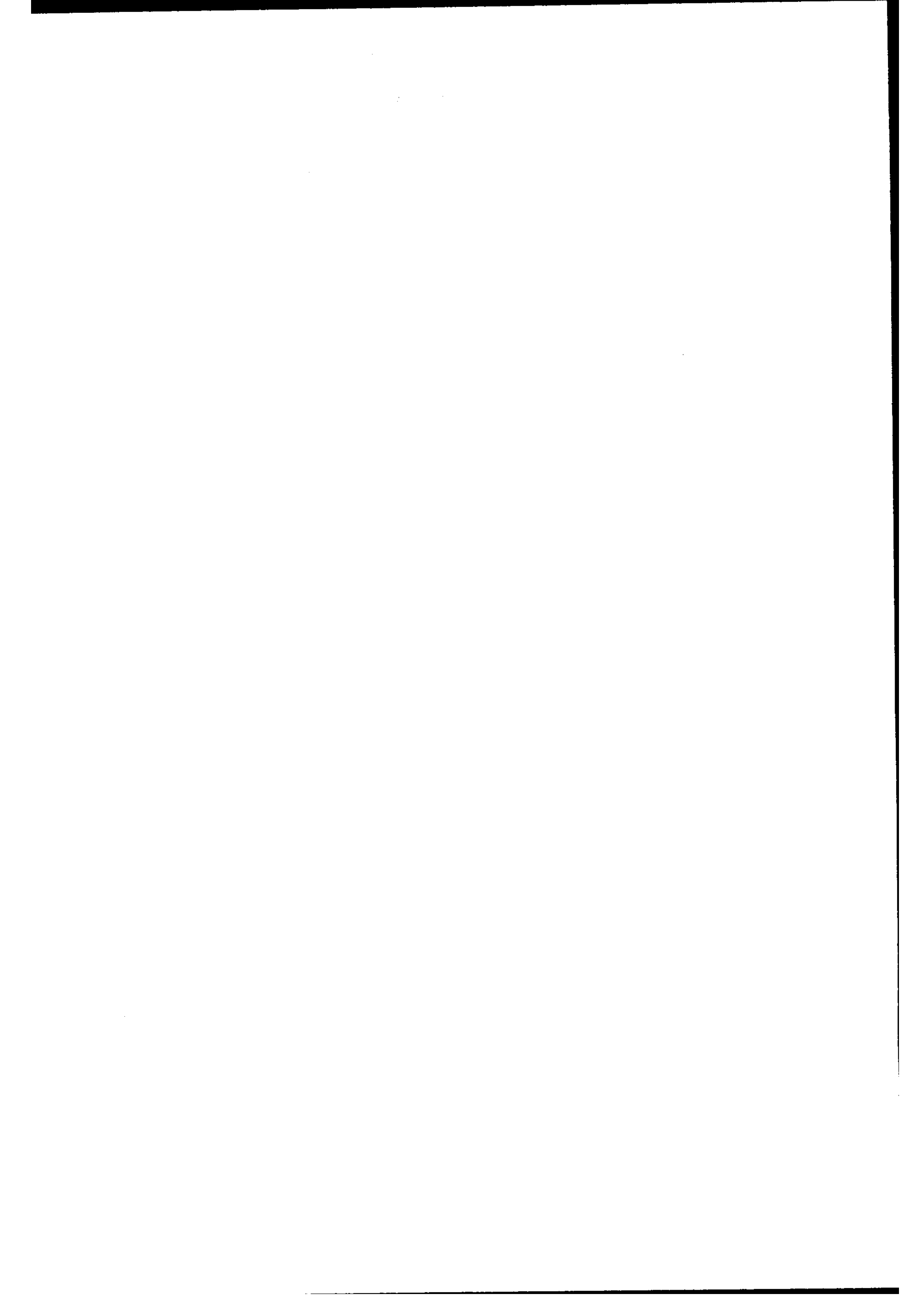
(17) Kammerer , A : Op Cit , Tom2 , p 144 .

(١٨) **السيد مصطفى سالم (دكتور)** : الفتح العثمانى الأول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥ ، ص ٥ -١٥.

(١٩) **عبدالعزيز محمد الشناوى (دكتور)** : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جـ٢١ ، ص٦٩٨ - ٦٩٩ .

(٢٠) **ابن البديع ، عبدالرحمن بن على محمد الشيبانى** : الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد ، مخطوطة ، ص ٣١ ب .

(٢١) **شوقى عطا الله الجمل (دكتور)** : ولاية الحبش العثمانية بين ايالة جده والإدارة المصرية ودورها فى الامن القومى العربى (١٨١٨ - ١٨٨٥) ، بحث قدم فى ندوة " مصر والجزيرة العربية فى التاريخ " التى أقامها قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة ٣ - ٥ أبريل ١٩٩٣ .



عمليات على بك الكبير الحربية
فى الصعيد

الأستاذ الدكتور/ رأفت غنيمى الشيخ
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد معهد البحوث والدراسات الآسيوية
جامعة الزقازيق

انطلاقا من نظام الحكم العثمانى فى مصر استمرت الخلافات بين هيئات الحكم الثلاث فرأينا فى أوائل القرن الثامن عشر انهيار سلطة الباشا أمام سيطرة وقوة الأوجاقات العثمانية بينما عاشت مصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر عهدا من سيطرة البكوات المماليك على مقدرات الأمور فى الوقت الذى ضعفت فيه سلطة الباشا والأوجاقات العثمانية .

ومما زاد من قوة البكوات المماليك أنهم كانوا يشترون صغارا ويعتنقون الدين الاسلامى ويخضعون لتربية عسكرية قاسية ، بالإضافة إلى استمرار تدفقهم من خارج مصر وعدم انصهارهم فى المجتمع المصرى ، وكل ذلك أدى إلى أن طوائف المماليك ظلت محتفظة بنقائها وذاتيتها الخاصة .

وكان منصب شيخ البلد وهو حاكم القاهرة أعلى المناصب التى يتقلدها البكوات المماليك حيث كان يتولاه زعيمهم وأكثرهم عصبية وأكبرهم قوة عسكرية ، يليه منصب أمير الحج ، وكثيرا ما كان الخلاف يقع بين البكوات المماليك حول هذين المنصبين ، فإذا تولاه أحدهم أخذ فى التنكيل بمنافسيه وخصومه من البكوات والمماليك ، وأغدق الهبات والوظائف على أنصاره ومؤيديه فعندما " قتل حسين بك القازدغلى " المعروف بالصابونجى ، وتعين فى الرياسة بعده على بك الكبير (عام ١١٧٢ هـ الموافق ٤ سبتمبر ١٧٥٨ – ٢٤ أغسطس ١٧٥٩ م) أحضر خشداشيته (١) المنفيين واستقر أمرهم (٢) .

(١) خشداشينة جمع خشداش أى زميل فى الرق .
(٢) عبدالرحمن الجبرتى : عجائب الآثار، ج ١ ، ص ٧١ .

ولقد وصف الرحالة والكتاب الأجانب الذين زاروا مصر في القرن الثامن عشر أحوال مصر وما أصابها من اضطراب نتيجة الخلافات المملوكية في غيبة الباشوات الأقوياء ، وفي حال انحلال الأوجاقات العثمانية ، ورغم الخلافات بين البكوات المماليك إلا أنهم كانوا يتحدون ضد باشا لا يرغبون في وجوده في القاهرة ، فيروى الجبرتي في عام ١١٧٤ هـ الموافق ١٣ أغسطس ١٧٦٠ إلى ١ أغسطس ١٧٦١ م ، أن الباشا كان يدعى مصطفى باشا ، ويبدو أن البكوات المماليك كانوا عنه راضين ، حتى إذا عينت الدولة آخر العام واليا أخر يدعى أحمد باشا كامل المعروف بصبطلان ، وكان ذا شهامة وقوة مراس فدقق في الأحكام ، وصار يركب وينزل ويكشف عن الأنبار والغلال ، فتعصب عليه الأمراء ، وأصعدوا مصطفى باشا المعزول ، وعرضوا في شأنه إلى الدولة .. (١)

وإذا كان الشعب المصرى الذى يقع عليه عبء هذه الخلافات يثور هنا وهناك في أنحاء مصر فقط عندما تمس حياته بصورة يهتز لها مفهوم العدل والحكم العادل عند المصريين فإن الحكومة العثمانية كانت تلجأ إلى عدة إجراءات عقابا للبكوات المماليك ، من أمثلتها إغلاق أسواق الرقيق في المناطق المحيطة بالبحر الأسود وبصفة خاصة في البلقان حتى تحرم البكوات المماليك من مصادر قوتهم العددية ، كما كانت الحكومة العثمانية تلجأ - وخاصة في الأوقات التي لا تكون فيها مشغولة بحروب خارجية - إلى إرسال حملات تأديب إلى مصر يقابلها البكوات المماليك بالفرار إلى الصعيد ، ثم يعودون إلى القاهرة متى سحبت الحكومة العثمانية هذه الحملات .

ومن الطبيعي أن تتأثر أحوال المصريين بهذه الظروف ، فالزراعة مضطربة والتجارة كسدت ، والنواحي الثقافية تجمدت ، في الوقت الذى زادت فيه سلطة شيخ البلد إلى حد الطغيان ، وفي الوقت الذى زادت فيه الضرائب على المصريين لمواجهة المشروعات الكبيرة التي يعمل شيخ البلد على تنفيذها ، ولمواجهة إغلاق أسواق الرقيق أمام البكوات المماليك باستخدام جنود مرتزقة من البدو واليونانيين الذين استخدموا في الحرب بالمدافع التي اشتراها شيخ البلد .

---

(١) عبدالرحمن الجبرتي : نفس المرجع ، ص ٧٢ .

وكان الصعيد فى القرن الثامن عشر يعيش فى ظل سيطرة كبار الإقطاعيين والملتزمين ذوى العصبيات التى يستندون إليها فى التمتع بحكم وتحكم يقلل من سيطرة حكومة الباشا فى القاهرة ، وكان الصعيد فى ظل هؤلاء الإقطاعيين والملتزمين ملجأ المماليك الفارين من القاهرة ، ملجأ لأعداء الباشا أو أعداء شيخ البلد ، حيث يجيرون من استجار بهم دون أن يراعوا غضب الباشا أو شيخ البلد . وكان على رأس هؤلاء الإقطاعيين شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى .

علـــــــى بـــــــك

ذكر المؤرخ الأوربى ستافرو لانسبان Stafro Lanspan وكان معاصرا لعلى بك وعاشره وعمل له . أن على بك ابن قسيس رومى أرثوذكسى من قرية أماسيا فى الأناضول واسمه القسيس داود ، وأنه – أى على بك – ولد فى سنة ١٧٢٨ م ثم خطف فى الثالثة عشرة من عمره وبيع فى القاهرة ، وكان اسمه يوسف ، وأنه تزوج يونانية مسيحية أظهرت الإسلام وبقيت على دينها اسمها مريم (١) .

وكان على بك مملوكا لإبراهيم كتخذا ، والاثنان من مماليك مصطفى كتخذا القازدغلى ولما بلغ على طور الشباب ظهرت شخصيته بكل مكوناتها من شجاعة وقوة وطموح وقسوة ، ثم تقلد الامارة والصنجقية بعد موت إستاذه وسيده إبراهيم كتخدا عام ١١٦٨ هـ (١٧٥٤ – ١٧٥٥ م) ثم كان أميرا للحج وكبيرا للماليك وشيخا للبلد فى عام ١١٧٧ هـ (١٧٦٣ م) .

وعرف على بك بأكثر من اسم ، فقد عرف بعلى بك القازدغلى ، و " جن على " و " بلوط قبن " أو " بلوقبطان " ، ثم عرف باسم على بك الكبير بعد أن اتسعت فتوحاته خارج مصر وذاع صيته ، وقد مارس منازعات وحروب قاسية بينه وبين خصومه ومنافسيه من البكوات المماليك ، وكان قوى المراس ، شديد الشكيمة ، لا يرضى لنفسه بدون السلطنة العظمى بديلا ، فمما قال : أنا لا أتقلد الإمارة إلا بسيفى لا بمعونة أحد " (٢) .

أراد على بك أن يستخلص مصر لنفسه فقتل منافسيه من " الرؤساء والأقران ، وباقى الأعيان ، وفرق جمعهم فى القرى والبلدان ، وتتبعهم خنقا وقتلا ، وأبادهم فرعا وأصلا

(١) محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر جـ ٢ ص ٧٣ .
(٢) عبدالرحمن الجبرتى : نفس المرجع ص ٩٧ .

واستأصل كبار خشداشيته وقبيلته ، وأخرم القوانين الجسيمة ، والعوائد المرتبة ، وحارب كبار العربان " (١)

وقد استخدم فى ذلك الأعداد الكبيرة من المماليك الذين اشتراهم والجند الذين استخدمهم من جميع الأجناس ، وكان يطالع الكتب التى تحوى التاريخ والسير ويشيد بدولة المماليك فى مصر وبزعمائها مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وغيرهم ويفخر بانتسابه لهم وكان عظيم الهيبة ، فقد اتفق لأناس أن ماتوا فرقا من هيبته ، وكان صحيح الفراسة شديد الحذق ، ولا يحتاج فى التفهيم إلى ترجمان أو من يقرأ له الصكوك والوثائق بل يقرأها بنفسه (٢) .

وأن تعدد ألقاب على التى اشتملت إلى جانب ما ذكرنا الاسم الرسمى " ميرا للواء على بك" وتسمية العثمانيين له على بك بلوت قبان " ليس سوى مظهر من مظاهر نشاطه الجم وكفاياته المتعددة ، فقد كان على بك كبير النفس كبير القلب كبير المطمع ، ظهر فى عصر اضطراب وفوضى ، وفى وقت كانت مصر فى أمس الحاجة إلى رجل مثله ، وقد أتقن على بك دوره وأخذ فى تنفيذه مضحيا بكل ما يملك من صحة ومال .. ما دام يجد منفذا إلى غرضه المزدوج : أن يجمع فى يده بصفته قائمقام ما تشتت من سلطة الباشا العثمانى ، وأن يخلق من الفوضى نظاما ما يمكنه من استغلال تلك السلطة لمصلحته ومصلحة مماليكه " (٣) .

وكان على بك لا يميل إلى الهزل والمزاح ، ويجالس العلماء أهل الاحترام مثل الشيخ حسن الجبرتى والشيخ أحمد الدمنهورى وغيرهم ، وكان يطالع كتب التاريخ والأخبار وسير ملوك مصر من المماليك ، ويقول لخاصته : إن هؤلاء الملوك كانوا من جنسنا مثل السلطان بيبرس ، والسلطان قلاوون وأولادهم ، وكذلك ملوك الجراكسة ، ولم يستول العثمانيون على مصر ويقهروا هؤلاء المماليك إلا بالقوة ونفاق أهل البلد " (٤)

ومع صفات على بك الطيبة وتحريه العدل فقد اشتهر بالقسوة التى لا تعرف الرحمة مع خصومه ومعارضيه ، فلا زالت عشرات الأرواح التى أمر بإزهاقها ليعيد بها سبيل مجده

---

(١) نفس المرجع والصفحة .
(٢) الجبرتى : المرجع السابق ص ٩٨ .
(٣) رفعت رمضان : على بك الكبير ص ٢٠٤ .
(٤) محمود الشرقاوى : المرجع السابق جـ ٢ ص ٧٤ .

تنعى وسائله التى تقوم على القسوة والغدر ، وهذه بلا شك نقطة سوداء تشوب نقاء صحيفته البيضاء " (١) .

وإذا كان الجبرتى رغم ما أورده من شواهد على قسوة على بك الكبير قد إشاد في أكثر من موضع . بأمراء المماليك وسماهم " الأمراء المصرية " إشادة عامة " إلا أنه أثنى كثيرا على حكومة على بك الكبير الذى جعل من مصر مدنها وريفها بلدا آمنا رضى العيش حتى كان المسافر يسير بمفرده ليلا راكبا أو ماشيا ومعه حمل الدراهم والدنانير إلى أى جهة ويبيت فى الغيط أو البرية " (٢) .

وقد أشاد الجبرتى بإصلاحات على بك وإنشاءاته سواء بالنسبة لدواوين الحكومة ليضمن انتظام الأمور وتحقيق العدالة ، أو إنشاء المساجد والأسبلة والعمائر ، وقلاع الإسكندرية ودمياط ، وتجديد مساجد الإمام الشافعى والسيد البدوى بطنطا ، وغير ذلك من شئون التعمير التى ما زالت شاهدا على اتجاهات على بك للبناء .

وقد شارك بعض الرحالة الأوربيين الجبرتى فى الإشادة بحكومة على بك ، فالمؤرخ "سافارى" savary أشاد بعدل على بك وكرمه ، واعترف كل من فولنى Volney ، وأولفيه Olivier أنه سمع ثناء مستطابا عليه من التجار الفرنسيين الذين تفيئوا ظلال عدله وحكمه الرشيد " (٣) .

ورغم أن الرحالة الانجليزى جيمس بروس James Bruce قد حمل بشدة على البكوات المماليك واتهمهم بأنه " ربما لا يوجد فى العالم رجال أجلاف جائرون طغاة ظالمون جشعون بمثل الدرجة التى عليها أولئك الأشرار الذين يقبضون على حكومة القاهرة فإنه أنصف حكم على بك بقوله : " لحسن الحظ عندما كنت بالقاهرة لم أصادف ذلك النوع المشوش من الحكومات ، بل على بك الشهير يحكم بنفسه أو بواسطة عماله " (٤) .

---

(١) رفعت رمضان : نفس المرجع السابق ص ٢٠٥ .
(٢) الجبرتى : نفس المرجع والصفحة .
(٣) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٢٠٨ .
(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة .

ورغم ذلك فقد كان لعلى بك سلبيات أفضت فى النهاية إلى فشله فى تحقيق مشروعاته من بينها قلة حظه من الثقافة واعتماده على التنجيم والفلك حتى صار أسير ما تشير إليه النجوم وحتى خضع للمنجمين وقربهم منه ، ومنها أن حاشيته لم يكن فيها الناصح الأمين الذى يستند إلى خبرة سياسية وعلمية .

العمليات الحربية

أولا : فى القاهرة :

واجه على بك مصاعب كثيرة من قوى متعددة فى مصر تعوقه عن تحقيق مشروعاته وعن التمتع بمصر دون منافس ، فلم يكد على بك يعتلى كرسى مشيخة البلد بالقاهرة عام ١٧٦٣م حتى اضطره أعداؤه ومنافسوه إلى الفرار من القاهرة إلى الصعيد تارة وإلى الحجاز تارة أخرى وإلى الشام طورا ثالثا ، وحتى اذا عاد الى منصبه عام ١٧٦٧م انتقم من أعدائه وأنزل العقاب بمثيرى الفتن والاضطراب .

فى الثانى من شهر جمادى الآخرة (٢٦ أكتوبر ١٧٦٧ م) كان على بك قد استطاع بحد السيف العودة إلى القاهرة من الصعيد الذى كان به مقيما هربا من خصمه الأقوى بالقاهرة ، ثم طلع ومعه أتباعه إلى الديوان بالقلعة ، " فخلع الباشا على على بك واستقر فى مشيخة البلد كما كان ، وخلع على صناجقته خلع الاستمرار أيضا فى إمارتهم ، كما كانوا ونزلوا الى بيوتهم . وثبت قدم على بك فى إمارة مصر ورئاستها فى هذه المرة ، وظهر بعد ذلك الظهور التام ، وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية ، والبلاد الشامية ، وقتل المتمردين وقطع المعاندين ، وشتت شمل المنافقين ، وخرق القواعد ، وخرم العوائد وأخرب البيوت القديمة ، وأبطل الطرائق التى كانت مستقيمة (١) .

وكان على بك قد تخلص من عبدالرحمن كتخدا الذى كان أكبر منافس له بنفيه إلى الحجاز ، وقد اشتد ساعد على بك بعد استبعاد عبدالرحمن كتخدا وأنصاره من القاهرة فأخذ يؤلب بعض البكوات على بعض حتى أضعف شوكة الأقوياء منهم ، وقد ارتجت مصر (القاهرة) فى ذلك اليوم " وخصوصا لخروج عبدالرحمن كتخدا ، فإنه كان أعظم الجميع وكبيرهم وابن سيدهم ، وله الصولة والكلمة والشهرة ، وكان له عزوة كبيرة ومماليك وأتباع

---

(١) الجبرتى : نفس المرجع ص ٨٠ .

وعساكر مغاربة وغيرهم ، حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة فى ذلك اليوم . فلم يحصل شيء من ذلك سوى ما نزل بالناس من البهتة والتعجب "(١) . وكان ذلك عام ١١٧٨هـ (١ يوليو ١٧٦٤ الى ١٩ يونيو ١٧٦٥ م) .

كما تخلص على بك فى ١٨ ربيع الآخر ١١٨٢ هـ الموافق أول سبتمبر ١٧٦٨ م من صالح بيك بقتله ، وبذلك تخلص على بك من آخر صنجق كان منافسا له فى مشيخة البلد وقبل ذلك بشهرين كان على بك قد نفى عددا من البكوات المماليك إلى الصعيد ، وإلىالحجاز وإلى الفيوم .

ثانيا : فى الدلتـــــا :

وقد تابع على بك سياسته هذه بالقتل والنفى والمصادرة حتى وصفه الجبرتى بأنه هو الذى ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادىء ظهوره واقتدى بـه من بعده (٢) . وقد استخدم على بك فى تنفيذ سياسته هذه عددا من أتباعه أشهرهم محمد بك أبو الدهب ، وأحمد الجزار الذى عرف بذلك بسبب ما أظهره من بطش وقسوة ضد بدو الدلتا الثائرين وهم الحبايبة بشرق ووسط الدلتا ، والهنادى بإقليم البحيرة .

وكان سويلم بن حبيب زعيم الحبايبة بالشرقية والقليوبية قد نشر نفوذه وسيطرته على بلاد إقليمى الشرقية والقليوبية ، وقطع الطريق بين القاهرة والوجه البحرى ، فلما أرسل إليه على بك التجريدات انضم إلى عرب الهنادى بالبحيرة ، وانضم إليهم كذلك بعض أعداء على بك من البكوات المماليك واستولوا على الإقليم وقتلوا السنجق الموالى لعلى بك .

وقد أرسل على بك إلى إقليم البحيرة حملتين للقضاء على هذه الفتنة المضادة له ونجحت حملات على بك فى القضاء على هؤلاء المناوئين ، وحتى سويلم بن حبيب " قتلوه – وقطعوا رأسه ورفعوها على رمح .. واشتهر ذلك فارتفعت الحرب بين الفريقين ، وتفوق الهنادى ، وعرب الجزيرة والصوالحة وغيرهم ، وراحت كسرة على الجميع ، ولم يقم لهم قائم من ذلك اليوم " (٣) .

---

(١) نفس المرجع ص ٧٥ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٨٦ .
(٣) نفس المرجع ص ٨٧ .

ثالثا : فى الصعيـــد :

أ- أعداء على بك :

وبعد أن دانت بلاد الوجه البحرى لعلى بك تطلع إلى الوجه القبلى الذى كان سيده وزعيمه شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى ، " وبقدر مـا كـانت هيبـة سويلم بـن حبيـب فـى الوجـه البحرى تقوم على الرهبة من طغيانه وفجوره ، كانت هيبة همام بن يوسف فـى الوجـه القبلـى تقوم على الإعجاب بشهامته وتقدير مجموعة الصفات النادرة التى كونت شخصيته الفذه " (١)، فلم يكن همام قاطع طريق أو طاغية بل كان مجير من يستجير بـه ويحمـى مـن يطلـب حمـاه ويمد بالمال والسلاح من يطلب منه المدد ، " ولم يكن على بك يخشى مـن ازديـاد نفـوذ همـام واتساع أملاكه ، لأن همام لم يأت أمرا يخل بالأمن ، بـل كـان حريصـا علـى إرسـال الميرى بانتظام ، كما كان يرسـل بيـن الحيـن والآخـر الهدايـا للباشـا العثمـانى وشـيخ البلـد بالقـاهرة ، وكذلك لكشاف الأقاليم الخاضعة لسلطته ، ولكن الذى ضايق على بك هـو تحـول الصعيـد إلـى وكر تنبت فيه الفتن ومورد يمد منافسيه على مشيخة البلد بالمؤن والعتاد والسلاح " (٢)

استقر رأى على بك على ضرورة التخلص من همام ، فأرسل جيشا بقيادة مملوكـه محمـد بك أبو الدهب ، ولكن همام صالح أبا الدهب على أن يكون له التزام البلاد جنوبى برديس ، ثم عاد محمد أبو الدهب إلى القاهرة فأرسل على بك إلى همام يذكره بأن الصلح يعتبر لاغيـا إذا لم يطرد أعداء على بك من البلاد التى فى حوزتـه ، فطلب منهم همـام الخـروج إلـى أسـيوط وتملكها ، وبالفعل ملكوا أسيوط بالقوة وتحصنوا بها وهرب من كان بها من أتباع علـى بـك ، وكان ذلك فى صفر ١١٨٣ هـ الموافق يونيو ١٧٦٩م ، فخرجت حملة أخرى بقيادة أبو الدهب وصلـت إلـى أسيوط والتحمت مـع المتملكيـن أسيوط فـى معركـة ضاربــة انتهـت بانتصــار أبوالدهب وجيشه وتشتت أعدائه وانضمامهم إلى عرب الهوارة فـى الجنـوب ، وفـى الواقـع ، كانت معركة أسيوط من أحسم المواقع فى تاريخ على بك ، وهى التى أكدت له النصر فأصبح سيد الوجهين وصاحب النفوذ المطلق فى جميع أنحاء مصر " (٣) .

لم يتوقف محمد بك أبو الذهب فى أسيوط ولكنه زحف جنوبا لملاقاة همام وعرب الهـوارة واستطاع استمالة ابن عم همام ويدعى أبو عبدالله ، ومن ثم سار زحـف الجيش إلـى فرشـوط دون مقاومة عنيدة ، حتى دخلها ليجد همام قد تركها ومات كمدا قرب إسـنا ، ومـن ثـم تمـك

(١) رفعت رمضان : على بك الكبير ص ٤٨ .
(٢) د. السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث ص ٢٥ .
(٣) رفعت رمضان : نفس المرجع ص ٥٢ .

الجيش فرشوط ونهبوا وأخذوا جميع ما كان بدوائر همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأن لم تكن (١) . وخلصت مصر بوجهيها البحرى والقبلى لعلى بك وأتباعه .

ب- معركة أسيوط :

ويصف الجبرتى وقائع على بك الحربية في أسيوط وما يليها جنوبا فى أحداث شهر صفر عام ١١٨٣ هـ الموافق لشهر يونيو عام ١٧٦٩م ، فيقول : وفيه أى فى هذا التاريخ تقلد أيوب بك على منصب جرجا وخرج مسافرا ومعه عدة كبيرة من العساكر والأجناد فوصلوا إلى قرب أسيوط ، فوردت الأخبار باجتماع الأمراء المنافى (٢) . وتملكهم أسيوط وتحصنهم بها .

ويضيف الجبرتى قائلا ، وكان من أمرهم أنه لما ذهب محمد بك أبو الذهب إلى جهة قبلى لمنابذة شيخ العرب همام – كما ذكرنا – وجرى بينهما الصلح على أن يكون لهمام من حدود برديس ، وتم الأمر على ذلك ، ورجع محمد بك إلى مصر – القاهرة وأرسل على بك يقول له : إنى أمضيت ذلك بشرط أن تطردوا المصريين (٣) الذين عندك ، ولا تبق منهم أحدا بدائرتك فجمعهم وأخبرهم بذلك ، وقال لهم : اذهبوا إلى أسيوط واملكوها قبل كل شيء فان فعلتم ذلك كان لكم بها قوة ومنعة ، وأنا أمدكم بعد ذلك بالمال والرجال ، فاستصوبوا رأيه وبادروا وذهبوا إلى أسيوط .

ويصف الجبرتى الأحوال فى أسيوط بعد اتفاق محمد أبو الذهب رجل على بك الكبير وشيخ العرب همام بن يوسف الهوارى الذى طلب من أعداء على بك امتلاك أسيوط ، فيقول الجبرتى كان بأسيوط آنذاك عبدالرحمن كاشف من طرف على بك ، وذى الفقار كاشف ، وقد كانوا حصنوا البلدة وجهاتها ، وبنوا كرانك (٤) والبوابة ، وركب عليها المدافع ، فتحيل القوم ليلا وزحفوا إلى البوابة ومعهم أنخاخ وأحطاب ، جعلوا فيها الكبريت والزيت ، وأشعلوا وأحرقوا الباب ، وهجموا على البلدة ، فلم يكن له بهم طاقة لكثرتهم وهم جماعة صالح بك وباقى القاسمية ، وجماعة الخشاب ، وجماعة الفلاح ، وجماعة مناو ، ويحيى السكرى ،

(١) الجبرتى : نفس المرجع ص ٨٩ .
(٢) الأمراء المنافى أى البكوات المماليك الهاربين والمنفيين الى الصعيد .
(٣) يقصد أمراء المماليك أعداء على بك ، الذين يجب على همام طردهم من منطقة التزامه فى فرشوط ، ولكن همام طلب منهم التوجه وامتلاك أسيوط .
(٤) الكرانك تعنى التحصينات العسكرية .

وسليمان الجلفى ، وحسن كاشف ترك ، وحسن بك أبو كرشى ، ومحمد بيك الماوردى ، وعبدالرحمن كاشف من خشداشين صالح بك - وكان من الشجعان ومحمد كتخدا الجلفى ، وعلى بك الملط - تابع خليل بك - وجماعة كشكش وغيرهم ومعهم كبار الهوارة وأهالى الصعيد (١) ، فملكوا أسيوط وتحصنوا بها ، وهرب من كان فيها .

ويكمل الجبرتى روايته عن معركة أسيوط فيقول : وردت الأخبار بذلك إلى على بك فعين للسفر إبراهيم بك بلفيا ، ومحمد بك أبو شنب ، وعلى بك الطنطاوى ، ومن كل وجاق جماعة وعساكر ومغاربة ، وأرسل الى خليل بك القاسمى المعروف بالأسيوطى فأحضره من غزة ، وطلع هو وإبراهيم بك - تابع محمد بك - بعساكر أيضا ، وعزل الباشا وأنزله وحبسه ببيت إيواظ بك عند الزير المعلق ، ثم سافر محمد بك أبو الذهب ، ورضوان بك وعدة من الأمراء والصناجق ، وضم إليهم ما جمعه وجلبه من العساكر المختلفة الأجناس من دلاة ودروزه ومتاولة وشوام ، وسافر الجميع برا وبحرا حتى وصلوا إلى أيوب بك ، وهو يرسل خلفهم فى كل يوم بالإمدادات والجبخانات والذخيرة والبقسماط ، وذهب الجميع إلى أن وصلوا قرب أسيوط ، ونصبوا عرضيهم عند جزيرة منقباط (٢) ، وتحققوا وصول محمد بك ومن معه وفرحوا بذلك لأنهم كانوا رأوا فى زايرجات الرمل (٣) سقوطه فى المعركة ثم أجمعوا أمرهم على أن يدهموهم آخر الليل ، فركبوا فى ساعة معلومة ، وسار بهم الدليل فى طوق الجبل ، وقصدوا النزول من محل كذا على ناحية كذا من العرضى ، فتاه وضل بهم الدليل حتى تجاوزوا المكان المقصود بنحو ساعتين ، وأخذوا جهة العرضى فوجدوه قبليهم حتى تجاوزوا المكان المقصود بنحو ساعتين ، وأخذوا جهة العرضى فوجدوه قبليهم بذلك المقدار ، وعلموا فوات القصد ، وأن القوم متى علموا حصولهم خلفهم ملكوا البلدة من غير مانع قبل رجوعهم من المكان الذى أتوا منه ، فما وسعهم إلا الذهاب اليهم ومصادمتهم على أى وجه كان ، فلم يصلوهم إلا بعد طلوع النهار .

ويستطرد الجبرتى فى وصف معركة أسيوط فيقول : وتيقظ القوم واستعدوا لهم فالتطموا معهم - وهم قليلون بالنسبة إليهم - ووقع الحرب ، واشتد الجلاد . وبذلوا جهودهم فى الحرب ويصرخ الكثير منهم بقوله ، أين محمد بك ، فبرز إليهم محمد بك أبو شنب وهو يقول أنا محمد بك ، فقصدوه وقاتلوه وقاتلهم حتى قتل ، وسقط جواد يحيى السكرى ، فلم يزل يقاتل

---

(١) يعنى بهم أهالى الصعيد غير عرب الهوارة .
(٢) منقباط هى المعروفة الآن باسم منقباد .
(٣) أى ضاربات الرمل أو قارئات الودع .

ويدافع حصة طويلة حتى تكاثروا عليه وقتلوه ، وعبدالرحمن كاشف القاسمى يحارب بمدفع يضربه وهو على كتفه .

وقد انجلت الحرب عن هزيمتهم ونصرة المصريين [1] عليهم ، وذلك عند جبانة أسيوط فتشتتوا فى الجهات وانضموا إلى كبار الهوارة ، وملك المصريون أسيوط ، ودفنوا القتلى ومحمد بك أبو شنب واغتم محمد بك أبو الذهب لموته . وفرح لوقوع الزايرجة [2] عليه ومعاداته له لأنه كان يعلم ذلك أيضا ، وأقاموا بأسيوط أياما ، ثم ارتحلوا إلى قبلى بقصد محاربة همام والهوارة .

وقد قصدت من ذكر تفاصيل معركة أسيوط أن أوضح أنها كانت المعركة الشديدة والحماسة فى معارك على بك ، فإذا كانت معاركه فى شرق الدلتا وغرب الدلتا وأقصد ضد الحبايبة والهنادى قد جعلت الدلتا تدين لعلى بك وإن كانت العداوة فى الدلتا كانت محصورة فقط فى زعامات قبائل العربان ، فإن معركة أسيوط قد حققت لعلى بك هدفين هما التخلص من المماليك أعداءه الذين يتخذون من الصعيد وكرا لمؤامراتهم ضده يتحينون الفرص لينقضوا عليه فى القاهرة ، والهدف الثانى التخلص من سيطرة همام بن يوسف وقوة قبائل عرب الهوارة فى الصعيد .

جـ - التخلص من همام وزوال دولته :

يصف الجبرتى فى أحداث شهر صفر ١١٨٣ هـ [3] أيضا عن زوال دولة همام وموته أنه بعد معركة أسيوط ، صدر أمر على بك لمملوكه محمد بك أبو الذهب للتقدم من أسيوط نحو معقل همام الهوارى ، وبالفعل عندما اتجه محمد بك جنوبا وجد تجمع كبار الهوارة مع من انضم إليهم من الأمراء المهزومين ، فراسل محمد بك اسماعيل أبو عبدالله - وهو ابن عم همام - واستماله ومناه ووعده برئاسة بلاد الصعيد عوضا عن شيخ العرب همام ، حتى ركن إلى قوله ، وصدق تمويهاته وتقاعس ، وتثبط عن القتال وخذل طوائفه .

ويكمل الجبرتى قصة نهاية شيخ العرب همام بن يوسف الهوارى فيقول : ولما بلغ شيخ العرب همام ما حصل ورأى فشل القوم ، خرج من فرشوط وبعد عنها مسافة ثلاثة أيام ومات

---

(١) أى جند على بك الزاحفين من (مصر) القاهرة .
(٢) أى قراءة الرمل أو ضرب الودع .
(٣) الموافق لشهر يونيو عام ١٧٦٩م .

مكمودا مقهورا ، ووصل محمد بك ومن معه إلى فرشوط فلم يجدوا مانعا فملكوها ونهبوها وأخذوا جميع ما كان بدوائر همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال ، وزالت دولة شيخ العرب همام من بلاد الصعيد من ذلك التاريخ كأنها لم تكن .

ورجع الأمراء إلى مصر ومحمد بك أبو الذهب وصحبه درويش بن شيخ العرب همام ، ولما مات أبوه ، وانكسر ظهر القوم بموته ، وعلموا أنهم لانجاح لهم بعده ، أشاروا على ابنه بمقابلة محمد بك وانفصلوا عنه وتفرقوا فى الجهات ، فمنهم من ذهب إلى درنة – فى ليبيا بمنطقة الجبل الأخضر بإقليم برقة – ومنهم من ذهب إلى الروم – يقصد الدولة العثمانية – ومنهم من ذهب إلى الشام ، وقابل درويش بن همام محمد بك وحضر صحبته إلى مصر – يقصد القاهرة – وأسكنه فى مكان بالرحبة المقابلة لبيته ، وصار يركب ويذهب لزيارة المشاهد ويتفرج على مصر ويتفرج عليه الناس ويسيرون خلفه وأمامه لينظروا ذاته ، وكان وجيها طويلا أبيض اللون أسود اللحية جميل الصورة ..

وينهى الجبرتى قصة همام بأن على بك أعطى درويش بن همام بلاد فرشوط والوقف بشفاعة محمد بك ، فذهب إلى وطنه فلم يحسن السير والتدبير ، وأخذ أمره فى الانحلال ، وحاله فى الاضمحلال ، وأرسل من طالبه بالأموال والذخائر فأخذوا ما وجدوه وحضر إلى مصر والتجأ إلى محمد بك فأكرمه وأنزله بمنزل بجواره ، فلم يزل مقيما به حتى خرج محمد بك من مصر مغاضبا لأستاذه – على بك الكبير – فلحق به وسافر إلى الصعيد .

خاتمـــــة :

كانت لمعارك على بك الكبير الحربية عدة نتائج ذات أهمية بالنسبة لعلى بك نفسه ولمصر فى فترة حكمه شيخا للبلد أو قائمقام مصر المحروسة نحددها فيما يلى :–

أولا : تخلص على بك وحتى وفاته من مضايقات ومؤامرات الزعماء المماليك الذين كانوا يتخذون من بلاد الصعيد وكرا لتدبير المؤامرات ضد على بك إلى جانب حرمان القاهرة من إيرادات أراضى الصعيد .

فيذكر الجبرتى أنه بعد معركة أسيوط وزوال دولة همام الهوارى أخذ على بك فى قتل المنافى الذين أخرجهم إلى البنادر مثل دمياط ورشيد والإسكندرية والمنصورة فكان يرسل إليهم ويخنقهم واحدا بعد واحد . فخنق على كتخدا الخربوطلى برشيد وحمزة بك – تابع

خليل بك - بزفتى ، وقتلوا معه سليمان أغا الوالى وإسماعيل بك - أبا مدفع - بالمنصورة ، وعثمان بك - تابع خليل بك - هرب الى مركب البيليك (١) فحماه وذهب إلى إسلامبول ، ومات هناك ، ونفى أيضا جماعة وأخرجهم من مصر ، وفيهم سليمان كتخدا المشهدى ، وإبراهيم أفندى جمليان .

ثانيا : تخلص على بك من سطوة همام بن يوسف الهوارى وقبائل عرب الهوارة فخلصت بلاد الصعيد كلها لعلى بك ، وأصبح بذلك سيد مصر الحقيقى وأخذت الأموال الأميرية (المال الميرى) والعوايد تصل الى القاهرة دون نقصان ودون تأخير ، واستقر الأمن فى بلاد - الصعيد كبقية البلاد المصرية وانتهت عمليات السلب والنهب وقطع الطريق التى كانت سائدة فى بلاد الصعيد ، وكان القائمون بهذه العمليات يحتمون بهمام الهوارى ورجاله .

ثالثا : أن على بك قبل إرسال حملته الحربية إلى أسيوط وبلاد الصعيد أنزل الباشا العثمانى المعين بفرمان من سلطان الدولة العثمانية أنزله من القلعة وحبسه - كما ذكرت - فى بيت أيواظ بك عند الزير المعلق . وهذا يعنى أنه لم يعد فى حاجة إلى أن يستمد الشرعية لحملاته الحربية فى الصعيد من صاحب السطة الشرعية وهو الباشا كما كان على بك يفعل فى العمليات الحربية فى الدلتا ، حيث كان يعلن أنه يحصل على موافقة الباشا على القيام بهذه العمليات الحربية .

المصـــــادر

١- عبدالرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

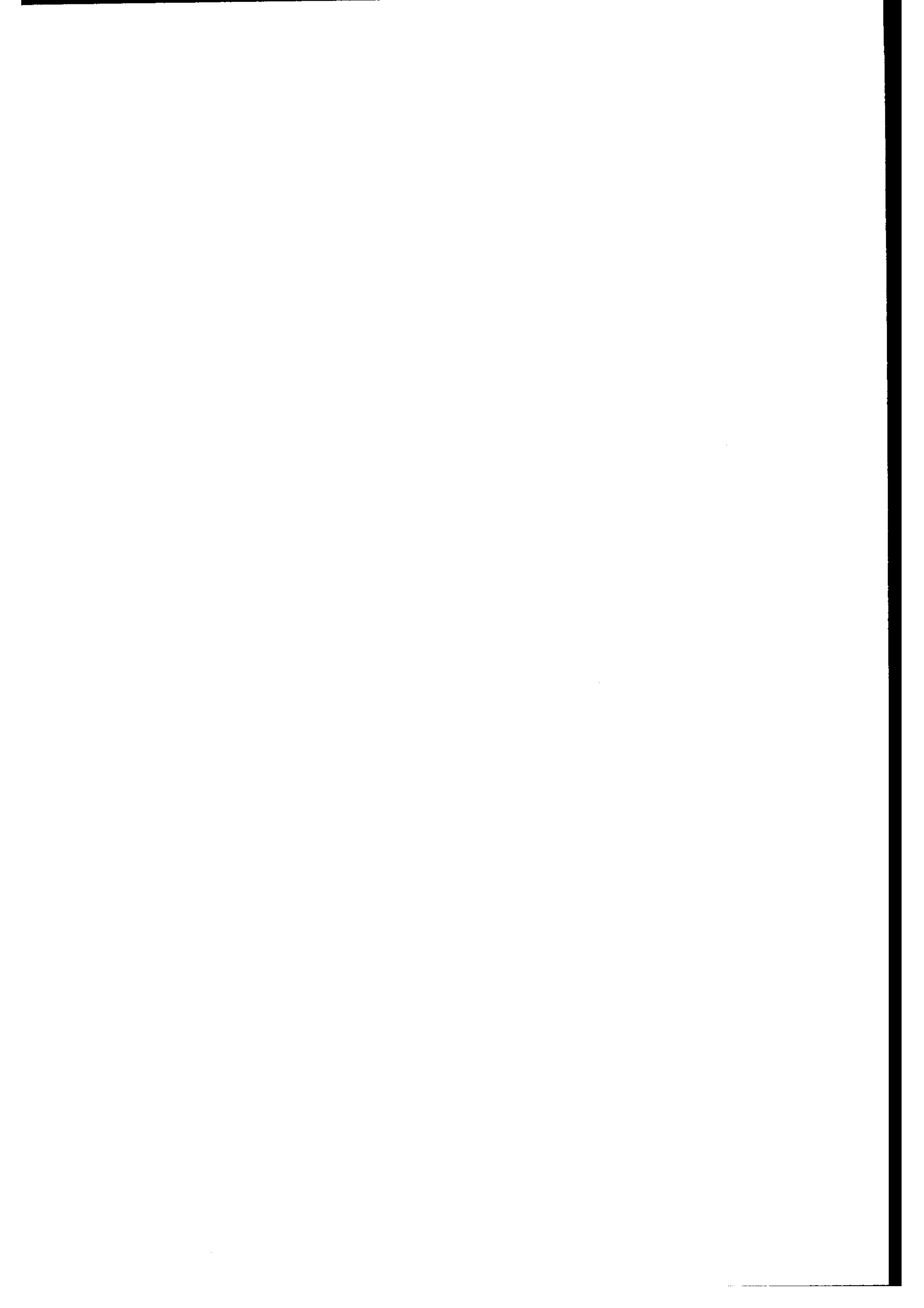
٢- د. السيد رجب حراز : المدخل الى تاريخ مصر الحديث .

٣- د. محمد رفعت رمضان : على بك الكبير .

٤- د. رأفت غنيمى الشيخ ك تاريخ العرب الحديث .

٥- محمود الشرقاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ٣ أجزاء .

(١) مركب البيليك هو المركب الحكومى .



الحملة الفرنسية على الصعيد عام ١٧٩٨

الأستاذ الدكتور/ محمد محمود السروجى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة الأسكندرية

جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر فى أواخر القرن الثامن عشر (٢ يوليو ١٧٩٨) نتيجة الصراع السياسى والحربى الذى نشب بين فرنسا وبين بريطانيا وحلفائها ، [١] وانتصار فرنسا. وترتب على ذلك انفراط عقد التحالف الدولى الأول ضد فرنسا ، دون أن تتمكن من إنزال الهزيمة بغريمتها بريطانيا . وكان على فرنسا أن تضرب بريطانيا فى عقر دارها ، حتى لا تفكر فى إعادة التحالف ضدها مرة أخرى .

ولما وجدت أن من المتعذر عليها غزو الجزر البريطانية لقوة الأسطول البريطانى فى بحر الشمال ، رأت أن تضرب المصالح البريطانية فى الشرق ، وذلك عن طريق الاستيلاء على مصر التى تقع على الطريق الإمبراطورى المؤدى إلى ممتلكات بريطانيا فى شرق وجنوب شرقى آسيا .

وكان " نابليون بونابرت " - قائد الحملة - يحدوه الأمل فى تكوين إمبراطورية شرقية يكون مركزها مصر ، ذات الموقع الجغرافى والاستراتيجى المهم بين الشرق والغرب ، وأن يعيد إحياء الطريق التجارى القديم عبر البحر الأحمر ، وذلك بشق قناة تصله بالبحر المتوسط ، مما سيمكن فرنسا من منافسة تجارة الهند الإنجليزية ، بل والتفوق عليها .

وقد استطاع " بونابرت " التغلب على مقاومة الأهالى والمماليك فى الدلتا ، ودخول القاهرة بعد معركة إمبابة أو الأهرام فى ٢١ يوليه ١٧٩٨ ، وفرارإبراهيم بك إلى شرق الدلتا ، ومنها إلى بلاد الشام ، واعتصام مراد بك بصعيد مصر . وكان وجود مراد بك

---

(١) النمسا ، وبروسيا ، وأسبانيا ، وهولنده .

بالصعيد يقلق بال " بونابرت " ؛ لإدراكه بأن عدم خضوع الصعيد لسطانه سيزعزع الوجود الفرنسي فى الوجه البحرى . (٢)

ولذا كلف الجنرال " ديزيه Desaix " وهو أحد قادته الأكفاء بإقامة بعض التحصينات جنوب الجيزة ؛ إتقاء للهجرات المتوقعة من جانب مراد ؛ توطئة لغزو الصعيد إذا ما فشل فى الإتفاق مع مراد حول ترك حكم الصعيد له ومن جرجا شمالا وحتى الشلال جنوبا فى ظل السيادة الفرنسية ، على أن يقوم بدفع الخراج المقرر عليه سنويا للسطات الفرنسية الحاكمة . وكلف " بونابرت " المسيو روستى Rosetti قنصل النمسا العام فى مصر للقيام بمهمة التفاوض مع مراد بك طبقا للشروط السابقة . (٣) وهذا الأمر من جانب " بونابرت " يخالف ما ورد بمنشوره الذى وجهه الى المصريين عندما وطئت قدماه أرض مصر ، من أنه ما أتى إلى بلادهم من حكم المماليك الطغاة الذين استأثروا بخيرات البلاد دونهم . (٤)

كانت الحاجة الملحة إلى القمح هى التى دفعت " بونابرت " إلى سرعة الاستيلاء على الصعيد المورد الأساسى له ؛ نظرا لامتناع وروده إلى الوجه البحرى والقاهرة فى الأشهر الأولى من مجىء الحملة ؛ مما هدد سكان الوجه البحرى بالمجاعة . (٥) وذلك لندرة المعروض منه ، واختفائه من الأسواق ، وارتفاع ثمنه ارتفاعا باهظا .

ومن المسلم به أن مراد بك رفض الاتفاق مع الفرنسيين ، اعتمادا على مؤازرة المصريين له للدفاع عن بلادهم ، لا سيما وأن الحملة لم تكن قد استقرت بعد فى الوجه البحرى . هذا فضلا عن أن الاستيلاء على الصعيد لم يكن سهلا أو ميسورا ، و انما سيكلف الفرنسيين ثمنا غاليا .

---

(٢) عبدالرحيم عبدالرحمن ، فصول من تاريخ مصر والاجتماعى فى العصر العثمانى ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٠ ، ص ١٣٢ .

(٣) Correspondance de Napoleon 1 er , T.V, Bonaparte au Rosetti , no . 2922, 1 er Aout 1798.

(٤) عبدالرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، المطبعة العامرة الشرقية ، مصر المحمية ، ١٣٢٢هـ ، ٤/٣ .

(٥) عبدالرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية تطور نظام الحكم فى مصر ، مطبعة النهضة بمصر ، ط١ ، ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م ، ٣٦٥/١ ، ٣٦٦ .

ونظرا لخطورة الوضع ، تحرك " ديزيه " بقواته البالغة خمسة آلاف جندى ، مزودين بالأسلحة والذخائر ، وبعض السفن الحربية فى أواخر أغسطس ١٧٩٨ ؛ بناء على أمر "بونابرت" ، وسار "ديزيه" فى محاذاة النيل نحو الجنوب ، متجها إلى مقر مراد بك فى البهنسا. وفى طريقة استولى على اطفيح ، وبنى سويف دون مقاومة تذكر . وكان هدف "ديزيه" مفاجأة مراد والقضاء عليه . ولكنه عندما أحسن باقتراب الفرنسيين انسحب بقواته وأسطوله جنوب اللاهون ، واتخذ محمد بك الألفى وهو من أعوانه موقعا وسطا بين البهنسا واللاهون .

واصل الفرنسيون تقدمهم فى أعقاب مراد بك ، فوصلوا إلى المنيا (٩ سبتمبر) وإلى ملوى (١٠ سبتمبر) ، ومنها إلى ديروط (١٢ سبتمبر) . وعندما علم "ديزيه" أن مراد قد اتجه إلى أسيوط ، أبقى جزءا من قواته بديروط ، واتجه ببقية الجنود إلى أسيوط ، حيث وصلها يوم ١٤ من الشهر نفسه ، ولكنه لم يعثر لأسطول مراد على أثر ، إذ ترك أسيوط إلى جرجا .

وكان هدف مراد من انسحابه إرهاق قوات "ديزيه" من ناحية ، وإطالة خطوط مواصلاته مع مركز القيادة فى القاهرة من ناحية أخرى ، وتوزيع قواته على المدن التى مر بها ، ليحتفظ بخط الرجعة لنفسه فى حالة انسحابه من ناحية ثالثة ، بحيث يقل عدد الجنود الفرنسيين الذين سيلتقى بهم فى نهاية الأمر .

خشى ديزيه من مواصلة زحفه حتى لا يستدرجه مراد ، ويبتعد كثيرا عن بقية جنوده الذين تركهم فى ديروط عند مدخل بحر يوسف ، فعاد أدراجه إليها دون أن يظفر بشىء . وقد مكنت هذه الفترة مراد من أن يعزز استحكاماته فى اللاهون التى اتخذها مركزا لقيادته بعد أن وجد من المصريين كل عون وتأييد .

وعندما عزم "ديزيه" على مهاجمة مراد فى موقعة لم يكن هذا بالأمر الهين فالملاحة فى بحر يوسف كانت صعبة لعدة أسباب لضيق مجرى النهر ، ولضحالة مياهه بصورة أرغمت الجنود الفرنسيين على سحب سفنهم بالحبال . هذا فضلا عن مهاجمة الأهالى للسفن من جانبى النهر . وعندما حاولت القوات الفرنسية النزول إلى البر ، وجدت صعوبة تامة لفحر مياة الفيضان للأراضى الزراعية .

اتخذ مراد من المرتفعات المطلة على بحر يوسف موقعا له ، وأرسل بعض قواته لمناوشة القوات الفرنسية ، ولكنها سرعان ما ارتدت بسرعة لإغراء "ديزيه" على متابعتها ، وفي ٧ أكتوبر ١٧٩٨ تحدث أول مواجهة حقيقية بين القوتين عند بلدة " سدمنت " غربي بحر يوسف ، وكان عدد المصريين والمماليك أكثر من ضعف عدد الفرنسيين ، ويمتازون بالجرأة والحماس الشديد ، ولكن ينقصهم التنظيم والتسليح الجيد ، حمي وطيس المعركة عدة ساعات ، ورغم قلة عدد الجنود الفرنسيين فإن حسن التنظيم وكفاءة القيادة ، وقوة المدفعية قد عوضت هذا النقص . وأسفرت المعركة عن انتصار الفرنسيين رغم خسارتهم ٣٤٠ قتيلا و ١٥٠ جريحا بينما قدر ديزيه خسارة المصريين والمماليك بأربعمائة قتيل ، وذلك حسب تقدير "برتييه" Berthier . (٦)

وتعتبر هذه المعركة من أكبر المعارك التي خاضها الفرنسيون في الصعيد ، فقد مكنتهم من بسط سيطرتهم على إقليم الفيوم الغني بحاصلاته الزراعية ، وأقنعت في الوقت نفسه المصريين والمماليك بعدم جدوى الحرب النظامية ، وأن من الأفضل اتباع أسلوب حرب العصابات التي ترهق الفرنسيين ، وتحرمهم من الطمأنينة والاستقرار ، دون أن ينالوا من المهاجمين كثيرا .

ورغم انتصار "ديزيه" فلم يجرؤ على مطاردة مراد ؛ نظرا لما أصاب الجنود من تعب وإعياء ، ولغمر مياه الفيضان للأراضي الزراعية في تلك الفترة ، ولإصابة عدد كبير من الجنود بالرمد الذي فتك بهم في اللاهون .

ومن الرسالة التي بعث بها "ديزيه" إلى "بونابرت" في ٢٠ أكتوبر ١٧٩٨ ندرك مدى ما عانته القوات الفرنسية في بسط سيطرتها على الصعيد ، فيقول :
" إن أمراض العيون هنا كارثة فظيعة حلت بالجيش ، فقد حرمتني الانتفاع بألف وأربعمائة من رجالي ، واضطررت أن أسحب منهم وراء الجيش مائة فقدوا بصرهم تماما ، ولا يمكنني أن أتعقب مراد بك إلا إذا سد النقص في صفوف جيشي ، ويبلغ عدد الفرقة ثلاثة آلاف مقاتل ... ومن الواجب الإسراع في سد النقص ، كيما أستطيع تعقب مراد بك ، فإن بحر

---

(٦) الرافعي ، المرجع السابق ١/ ٣٧٢ .

يوسف بعد قليل من الأيام لا يعود صالحا للملاحة ، إذ تجف المياه فيه ، وأن مركزنا هنا محفوف بالمتاعب ، ولو كانت الحملة التى أقودها على ضفاف النيل لهان الأمر ، ولكنى أحارب فى الصحراء ، حيث لا توجد طرق للمواصلات ، ولا وسائل للنقل ، حتى ولا للجنود المرضى." (٧)

وعلى الرغم من انتصار الفرنسيين فى موقعة " سدمنت " ، إلا أن مركزهم ظل مزعزعا وغير مستقر ، فالاتصال بين قوات "ديزيه" فى بحر يوسف وبين النيل ظلت مقطوعة . وكان من العسير على "ديزيه" مهاجمة المماليك والأهالى الذين اعتصموا بالصحراء ، نظرا لما نالهم من إرهاق ومرض وإعاقة الفيضان ، ولذا فقد آثر البقاء فى الفيوم بعض الوقت .

وقد صادف "ديزيه" متاعب جمة فى محاولته الحصول على الخيول والغلال اللازمة لجنوده من قرى الفيوم ، وذلك لعداء الأهالى للفرنسيين وعدم التعاون معهم . وقد ألح "ديزيه" على "بونابرت" لإرسال قوة من الفرسان تعينه على مطاردة مراد . فأرسل إليه ١٢٠٠ من الفرسان تحت قيادة الجنرال "دافو" Davout ، وكذلك ست سفن حربية .

بدأ "ديزيه" زحفه من بنى سويف صوب الجنوب فى قوة قوامها أربعة آلاف مقاتل ، يساندهم بعض قطع الأسطول فى النيل ، ورافقه فى هذا الزحف أكبر قواد "بونابرت" ، مثل الجنرال "بليار" Belliard ، والجنرال "فريان" Vriant ، والجنرال "دنزلو" Danzelot ، والجنرال "راباس" Rabasse ، والجنرال "لاتورنرى" Latournerie . وكلما توغل "ديزيه" فى الصعيد ، انسحبت أمامه قوات مراد دون قتال ، فاحتل ببا ، والغش ، والمنيا ، وملوى ، وديروط ، والقوصية ، وأسيوط التى تعتبر من أكبر مدن الصعيد ، ومركزا مهما للتجارة ، إذ ينتهى إليها درب الأربعين الذى تنقل عبره تجارة السودان .

وفى " سمهود " تحدث المعركة الفاصلة الثانية بعد " سدمنت " ، وذلك فى ٢٢ يناير ١٧٩٩ ، إذ تلتقى قوة مراد البالغة ١٢٠٠٠ مقاتل مع جيش "ديزيه" البالغ نحو ٥٠٠ جندى ،

---

(٧) المرجع السابق ١ / ٣٧٧ .

ويتكرر ما حدث فى " سدمنت " ، إذ تتغلب القلة المنظمة والمدربة على الكثرة التى تفتقد إلى التنظيم والتسليح الجيد والقيادة الكفء .

بعد هذه المعركة تندفع القوات الفرنسية صوب الجنوب ، فتحتل فرشوط ، ودندرة ، والأقصر ، وأرمنت ، وإسنا ، وإدفو ، وأسوان التى احتلتها فى أول فبراير ١٧٩٩ . أما مراد فقد فر بقواته إلى جنوب أسوان ، أى إلى منطقة النوبة . ولا يعنى وصول القوات الفرنسية إلى أسوان أن الصعيد قد دان لسلطان الفرنسيين ، فقد تجدد القتال فى أكثر من جهة ، وتوضح رسالة "ديزيه" إلى "بونابرت" فى فبراير ١٧٩٩ سوء الأحوال بالصعيد ، ويطالبه بمزيد من الجنود والذخيره لمواجهة الموقف .

وحدث فى يوم ٣ مارس ١٧٩٩ أن كانت السفن الحربية الفرنسية وعددها اثنتا عشرة سفينة تنقل المؤن والذخيرة فى طريقها إلى أسيوط أن أحدق بها الأهالى ، وبخاصة سفينة القيادة "إيتاليا" ، من شاطىء النيل ، وكانت تحت قيادة الضابط "مورانـدى" Morandi ، ولما وجد أن السفينة ستقع فى أيدى الأهالى لا محالة ، ألقى بنفسه وبجنوده فى النيل ثم قام بتفجيرها ، وخسر الفرنسيون من جراء هذا الحادث خمسمائة من البحارة . وتعد هذه الخسارة من أكبر الخسائر التى منى بها الفرنسيون فى حملتهم على الصعيد ، وقد علم "بونابرت" بهذا النبأ أثناء حملته على الشام ، فحزن لهذا الحادث حزنا شديدا ، وذلك لاعتزازه الشخصى بتلك السفينة .

ومن الأمور التى تدعو للعجب أن نرى "ديزيه" يكتب إلى "بونابرت" فى ١٧ مارس ١٧٩٩ بعد معركة أبنود (٨ - ١٠ مارس) يصف فيه الوضع بعد المعركة ، فيقول " أننا نعيش هنا عيشة ضنكا ، فإن جميع القرى تقفر من السكان كلما اقتربنا منها ، ولا نجد فيها شيئا من القوت ، ولا ندرى السبب فى هذه الحالة ، على أننا مع ذلك لا نعمل عملا ضارا فى البلاد التى يختارها . " (٨)

---

(٨) المرجع السابق ١ / ٤١٣ .

يتساءل "ديزيه" عن سبب ترك الأهالى لقراهم ، وعدم تعاونهم معهم ، فى حين أنه لم يلحق بهم أى ضرر ، أليس احتلال الأرض وانتهاك حرمات الناس ، والاستيلاء على أقواتهم ، وحرق القرى التى تقاومهم ، ومصادرة أرزاقهم ، أليست هذه أعمالا ضارة ، بل أعمالا وحشية ؟ ولكن هذا هو منطق الغزاة المستعمرين .

لقد أنهكت القوات الفرنسية فى غزوها للصعيد ، فاذا ما أخضعوا بلدا من البلاد وتركوها لغيرها ، عادت إلى التمرد والعصيان والمقاومة من جديد ، بحيث أصبحت تلك القوات تدور فى حلقة مفرغة لا أول لها ولا آخر ، وقد امتلأت مراسلات "ديزيه" إلى "بونابرت" بالشكوى المرة من تدفق عرب الحجاز عبر ميناء القصير على البحر الأحمر والمواجه لموانى الحجاز ، فكل المعارك التى خاضها الفرنسيون تقريبا قد شارك فيها هؤلاء جنبا إلى جنب مع المصريين .

الحملة البحرية الفرنسية على القصير :

كان من الضرورى الاستيلاء على القصير لسد هذا المنفذ الذى ترد منه الإمدادات المتلاحقة . وفى الحقيقة فإن الغزو الفرنسى لمصر قد أحدث دويا وصدى عميقا لدى الأقطار العربية والإسلامية ، مثل بلدان شمال أفريقيا والسودان وشبه الجزيرة العربية ، لا سيما حجاج شمال أفريقيا الذين كانوا يمرون بمصر فى ذهابهم إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز ، وكذلك المعتمرون ، ويسلكونها كذلك فى طريق عودتهم إلى بلادهم ، فاحتلال مصر من قبل دولة غير إسلامية اعتبروه خطرا على الإسلام والمسلمين . ومن المحتمل أن يحرم هؤلاء الحجاج من الوصول إلى الحجاز عبر مصر . ومن ثم يجب عليهم دفع هذا الخطر .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كانت مصر سوقا رائجة لبيع منتجاتهم التى يحملونها معهم ، ويشترون منها ما يبيعونه فى الأراضى الحجازية , ويحدث الشىء نفسه فى طريق عودتهم إلى بلادهم عبر مصر ، إذ يشترون من الحجاز ما يحتاج إليه أهل مصر .

فمصر بالنسبة لهؤلاء الحجاج والمعتمرين تسهل لهم أداء شعائرهم الدينية ، ومكان مهم للتبادل التجارى ، فالتطوع من قبلهم للدفاع عن مصر كان محببا إلى نفوسهم ، وفى الوقت نفسه أداء لفريضة الجهاد .

ولما كان ميناء القصير يعتبر المنفذ الرئيسى الذى يفد منه هؤلاء المجاهدون من مينائى ينبع وجدة على البحر الأحمر ، وفى طريقهم إلى قنا عبر الصحراء الشرقية ، حيث ينضمون إلى المقاتلين المصريين والمماليك . (٩) فكان هؤلاء يمثلون الدماء الجديدة التى تغذى حركة المقاومة للغزو الفرنسى .

ومن يطلع على تقارير ومراسلات ضباط الحملة الفرنسية فى الصعيد إلى قيادتهم بالقاهرة ، يجد أنه ما من معركة حدثت بينهم وبين المصريين إلا وكان لهؤلاء المجاهدين نصيب فيها. ولم تكن الإمدادات الآتية من شبه الجزيرة العربية كلها من أهل الحجاز ، وانما كان ينضم إليهم الحجاج من المغاربة والمصريين وغيرهم من أجناس أخرى ، وإن كانت الوثائق الفرنسية تطلق عليهم بصفة عامة اسم الحجازين نسبة إلى المكان الوافدين منه . وقد اعتبر هؤلاء المجاهدون – كما بينا – مقاومة الفرنسيين وحربهم جهادا فى سبيل الله ؛ ومن ثم كانوا يقاتلون بشجاعة واستبسال طلبا للشهادة . وهذه الظاهرة إن دلت على شيء ، فإنما تدل على مدى التضامن والترابط بين الشعوب العربية والإسلامية فى ذلك الوقت وكانت هذه الإمدادات توضع تحت قيادة حسن بك الجداوى ، أحد كبار المماليك .

أدرك الفرنسيون بعد سلسلة المعارك التى خاضوها فى الصعيد أن المجاهدين الذين يتدفقون من ميناء القصير يثيرون حماس الأهالى بصورة أزعجت السلطات الحربية الفرنسية، فكان من الضرورى الاستيلاء على هذا الميناء لغلق هذا المنفذ ؛ لحرمان المصريين من مساعدة إخوانهم فى الدين .

رأى بونابرت فى بداية الأمر غزو الميناء عن طريق البحر ، فأرسل من ميناء السويس أسطولا مكونا من أربعة زوارق حربية ، هى "تاليامنتو" Taglimento ، "وكاستيليونى"

---

(٩) Deherain , Henri , L' Egypte Turque - Pachas et Mamluks du XVII e au XVIII siecle - L' Expedition du General Bonaparte , Histoire de la Nation Egyptienne , T.V, p.392.

Castiglioni ، "وملزيمو" Millesimo ، "وازنسو كولو" Collot Isanzot تحمل ثمانين جنديا ، وذلك للقيام بمناورة بحرية أمام ميناء القصير ، تمهيدا لاحتلاله . (١٠)

وصل الاسطول الفرنسى أمام القصير فى ٩ فبراير ١٧٩٩ ، حيث كان حسن الجداوى على رأس قوة من المجاهدين الحجازيين محتشدة قرب الساحل ، وما أن اقترب الأسطول من الشاطىء إلا وقوبل بالقنابل . وتبادل الطرفان إطلاق النار ، فاشتعلت على أثرها سفينة القيادة "تاليامنتو" وغرقت فى البحر . كما قتل الجنود الفرنسيون الذين ألقوا بأنفسهم فى البحر ووصلوا إلى الشاطىء . وما أن حدث ذلك حتى لاذت السفن الثلاث بالفرار عائدة إلى ميناء السويس وأسفرت المعركة عن قتل سبعة وخمسين فرنسيا . (١١)

ولم يكن أمام الجنرال ديزيه بعد فشل الحملة البحرية إلا أن يرسل حملة برية عبر الصحراء الشرقية إلى القصير ، وذلك بناء على نصيحة بعض شيوخ مدينة قوص الذين يكنون كراهية للمماليك . وأوضحوا له بأن كبح جماح المماليك والقضاء على قوتهم لن يتم طالما بقى ميناء القصير مفتوحا أمام تدفق الإمدادات البشرية من شبه الجزيرة العربية ، ومن ثم وجب الاستيلاء عليه وإخضاعه لسيطرتهم . (١٢)

الحملة البرية الفرنسية على القصير :

قبل أن أدخل فى تفاصيل الحملة التى خرجت من مدينة قنا على النيل لغزو بلدة القصير ، أجد لزاما على أن أعطى لمحة سريعة عن حال البلدة عند غزوها ، لا سيما وأن أحد علماء الحملة الفرنسية وهو "دى بوا ايمية" (١٣) De Bais Ayme قدم لنا دراسة تفصيلية عنها .

---

(١٠) Bonaparte au General desaix , quartier General , nos. 3934 T 3953 , au caire , 15 et 22 Pluvoise an VII (3 et 10 Ferrier 1799) . Correspondances de Napoleon 1 er T.V , Paris , 1860 , pp . 295 et 311 .

(١١) Delerain , op . cit . pp . 392 - 393 .

(١٢) Ibid ., p . 393 .

(١٣) "دى بوا ايميه" جيولوجى ، وعضو فى لجنة العلوم والفنون التى أنشأها "بونابرت" فى مصر ، وأمضى هذا العالم شهرين دارسا ومنقبا فى القصير ، وله بحوث قيمة فى هذا المجال ، تضمنها كتاب "وصف مصر" فى المجلد الحادى عشر .

تقع بلدة القصير على ساحل رملى يبلغ طولها مائتين وخمسين مترا ، وعرضها لا يزيد عن مئة وخمسين مترا . وتتميز مبانى البلدة بالانخفاض ، إذ لا يتجاوز ارتفاعها دورين ، ومبنية بالطوب اللبن . ويتكون البيت " من فناء كبير ، وفوق بابه مقصورة صغيرة مربعة الشكل ، وينتهى الطابق العلوى بشرفه . أما الطابق الأرضى فيضم حجرة أو حجرتين بالغتى الضيق ، ويلتصق بهما من الخلف جدار السور ، ويستخدم الفناء مخزنا . " (١٤)

وزود كل بيت بخزان للمياه ، ويستمد الأغنياء مياههم من عين على بعد ثمانية أو تسعة فراسخ (١٥) بالإضافة إلى عين أخرى للمياه أقل جودة . وعندما استولى الفرنسيون على البلدة قاموا بحفر بئر إلى الجنوب الغربى من المدينة تكفى مياهها لاستهلاك ستمائة رجل فى اليوم.

ومن أهم معالم البلدة "القصر" ، وهو يطلق على القلعة التى بناها العثمانيون للدفاع عنها ، وهى تقع خلف البلدة من الداخل ، وقد شيدت من الحجر الجيرى فوق هضبة تتحكم فيها بصورة تامة . (١٦) وتتخذ القلعة شكلا معينا تعلوه أربعة أبراج فى زواياها الأربعة . ويبلغ سمك جدرانه فيما بين ٢٦٠ - ٣٠٠ سم . ومبنية بالحجر الجيرى . وبالقلعة عدد قليل من الغرف ، وبها بئر لسقاية الدواب لأن مياهها تميل إلى الملوحة لقربها من ساحل البحر ، وخارج القلعة خزان قديم للمياه ، يسمح بتخزين ٤٥ مترا مكعبا من المياه التى تأتيه من التلال المحيطة بالقلعة عن طريق مسارب عديدة فى فصل الأمطار . ويحيط بالبلدة أراض صحراوية تماما ، اللهم إلا من نبات الحنظل .

---

(١٤) De Bois Ayme , Memoire Sure la Villee de Qocyr et ses Envirens et sur les Peuples Nomades qui habitent cette , L' Ancienne troglodytique - description de L' Egypte , T.XI - Etat Maderne , second Edition par C.L.F. Panchaucke , Paris 1822, p . 383 .
وقام الأستاذ زهير الشايب بترجمة هذه المذكرات إلى اللغة العربية تحت عنوان " العرب فى ريف مصر وصحراواتها - القصير والعبابدة " ، مكتبة الخانجى بمصر ١٩٨٠ ، ص ٢٤٧ .

(١٥) الفرسخ يساوى ثلاثة أميال .

(١٦) قمت بزيارة القصير وقلعتها فى عام ١٩٩٠ ، ووجدت القلعة فى حالة يرثى لها من الإهمال ، فقد تهدمت بعض أجزائها ، وأصبحت مكانا يلهو فيه الأطفال ، ومرتعا للدواب مثل الخراف والماعز ، وامتلأت بالقازورات والنفايات .
ويجب على المسئولين فى هيئة الآثار أن يسارعوا بترميم هذه القلعة ، والمحافظة علها ، لأنها من آثار مصر فى العصر العثمانى ، وقد لعبت دورا مهما فى الدفاع عن البلدة لا يمكن إنكاره . ولا أعرف الآن ما وصل إليه حالها ، وأرجو أن تكون قد أدركتها عناية المسئولين .

أما عن سكان البلدة فهم من التجار الوافدين من شبه الجزيرة العربية ومن صعيد مصر ، يلتقون فيها لممارسة أعمالهم التجارية . ومعنى هذا أنه ليس ببلدة القصير سكان يقيمون فيها إقامة دائمة إلا قليلا . وشيوخ البلدة من تجار ينبع الذين حصلوا على التزام جمركها . وعندما احتلها الفرنسيون عهد إلى الجنرال "ديزيه" إلى إدارة جمركى القصير وقنا ، وذلك لارتباط كل منها بالآخر ، ووجود التجار وشيوخ البلدة من أهالى الساحل الحجازى يدل على مدى الارتباط الذى كان يربط بين الطرفين .

ونظرا لضحالة المياه عند الشاطىء ، فقد كان يتعذر على السفن الرسو عليه مباشرة ، بل كانت تقف على بعد ثمانية أو عشرة أمتار منه ، حيث يقوم الحمالون بنقل البضائع على ظهورهم إلى اليابسة . ويقع الميناء عند مداخل وديان – وهى حسب ما ذكره دى بوا ايميه ستة عشرة أو سبعة – (١٧) تؤدى إلى وادى النيل . ولذا كان من الطبيعى أن يقع اختيار الأهالى على القصير لتكون مستودعا ومنفذا لتجار الصعيد مع شبه الجزيرة العربية .

وكان صيادو الأسماك القادمون من جدة وينبع يقيمون فى خيام شمالى القصير ، والسمك هو الغذاء الرئيسى للسكان ، ويستخدمون فى صيده الشباك والرماح ، ويقومون بتجفيفه لتموين السفن به ، والمقايضة به فى شراء ما يحتاجون إليه .

ويعيش العبابدة – وهم من القبائل الرحل التى سكنت المناطق الجبلية شرق نهر النيل فى جنوب وادى القصير – فى هذه المنطقة ، ويمتلكون بعض القرى الواقعة على الضفة الشرقية للنيل ، وأهمها : دراو ، والشيخ عامر ، والرديسية . وكان العبابدة يفرضون إتاوة على البضائع الواردة إلى القصير فى مقابل تأمين طرق القوافل المارة بها . " والعبابدة مسلمون محاربون ، ليست لديهم أسلحة نارية ، ولكن يتسلح الرجل منهم بسيف مستقيم ذى حدين ، وبسكين مقوسة يعلقونها فى ذراعهم اليسرى . وترسا مستديرة من جلد الفيل ، ويعرفون العربية ،وإن كانت لهم لغتهم الخاصة بهم . " (١٨)

---

(١٧) زهير الشايب ، المصدر نفسه ص ٢٥٦ .
(١٨) نفسه ص ٢٥٤ .

لم يكن أمام الفرنسيين – كما ذكرنا – بعد فشل حملتهم البحرية إلا أن يرسلوا حملة برية ، عبر الصحراء الشرقية ، للاستيلاء على القصير ، وخصوصا بعد ظهور قطع من الأسطول الانجليزى فى البحر الأحمر أمام السواحل المصرية ، هذا الظهور الذى أزعج الفرنسيين أيما إزعاج . (١٩) ولذا يكلف "ديزيه" – القائد العام للقوات الفرنسية فى الصعيد – الجنرال "بليار" بسرعة إعداد الحملة ، لإبعاد خطر الإنجليز عن القصير ، ورد "بليار" على هذا التكليف بحاجته إلى ستمائة جمل لنقل ستمائة جندى ، بما يحتاجونه من ماء وزاد لمدة عشرة أيام . ونفس هذا العدد لنقل الشعير اللازم لإطعام ستين فرسا للمدة نفسها . وفى أواخر مايو ١٧٩٩ كان كل شىء قد تم إعداده .

وفى ٢٦ مايو ١٧٩٩ خرجت الحملة من مدينة قنا ، وعلى رأسها الجنرال بليار ومساعدة الجنرال "دنزلو" Donzelot ، وتضم ثلاثمائة وخمسين جنديا من المشاة والمدفعية ، ويصحبهم سبعمائة وخمسون جملا . وبعد مسيرة ثلاثة أيام عبر الصحراء الشرقية ، أى فى ٢٩ مايو وصلوا إلى القصير ودخلوها دون مقاومة تذكر ، ومما يدعو إلى الدهشة ألا تقاوم البلدة القوات الفرنسية ، مع أنها قد قاومت من قبل الأسطولين الانجليزى والفرنسى ، ومنعت نزول قواتها إلى البر ، ومن نزل منهم قضت عليه قضاء تاما .

وقبل أن يغادر الجنرال "بليار" القصير فى ٣٠ مايو ١٧٩٩ كتب إلى الجنرال "ديزيه" يخبره بنبأ احتلال القصير ، ويصفها له ، ويبين له بأنها قرية صغيرة يبلغ عدد سكانها وقتذاك ما بين أربعمائة وخمسمائة نسمة . ويصف له قلعتها وكيف تتحكم بفضل موقعها فى السيطرة على البلدة . كما أن بعد القلعة عن ساحل البحر جعلها فى مأمن من مرمى مدافع السفن الحربية الإنجليزية ، وهى فى حاجة إلى اصلاح ، وقد كلف الجنرال "دنزلو" القيام به ، كى تؤدى عملها على الوجه الأكمل ، وتكون مستعدة لأية مفاجأة . (٢٠)

سرعان ما غادر "بليار" القصير بعد أن ترك قيادة القوات الفرنسية بها للجنرال "دنزلو"،أى فى أول يونية من السنة نفسها بعد أن زوده بتعليماته وهى : " أتركك ياعزيزى "دنزلو" فى القصير لتضع أسس أول مؤسسة فرنسية فى بلد يعطى احتلالها أهمية كبيرة للعلاقات

---

(١٩) Deherain , Op . cit . p . 393 .

(٢٠) نفسه ص ٣٩٥ .

التجارية التى يجب أن تقيمها الجمهورية الفرنسية فى الهند ، ولتضمن هدوء الأوضاع فى مصر العليا . أنى أضع بين يديك ، يا عزيزى "دنزلو" مهمة العناية بالتحصينات وباقى الأعمال لأؤكد لك بأن الصعوبات التى تواجهنا فى الصحراء سوف تزول ، وأن مؤسستنا سوف تعيش فى أقرب وقت فى مأمن من كل أنواع العداء . " (٢١)

يتضح من هذه الرسالة أن من أهداف الحملة الفرنسية الرئيسية إيجاد علاقات تجارية مع الهند ، لمنافسة التجارة الإنجليزية ، وأن موقع القصيرعلى البحر الأحمر ، واتصالها بصعيد مصر عن طريق قنا ، وعلاقتها بشبه الجزيرة العربية ، يؤهلها للقيام بهذا الدور الذى كانت تقوم به فعلا قبل مجىء الحملة ، كما أن الاستيلاء على البلدة سيسد هذا المنفذ فى وجه المجاهدين المسلمين ، وبذلك تطيب لهم الإقامة بعد القضاء على المقاومة فى الصعيد .

ومما يدل على مدى أهمية الاستيلاء على القصير بالنسبة للفرنسيين ، التقدير الذى أرسله "بونابرت" عقب عودته من حملة الشام (١٧٩٩) إلى حكومته يقول فيه : " إن احتلال القصير والسويس والعريش قد أقفل طريق الوصول إلى مصر من جهة البحر الأحمر وسوريا اقفالا تاما . كما أن تحصين الإسكندرية ورشيد ودمياط يحبط كل هجوم من البحر المتوسط ، ويضمن إلى ما شاء الله للجمهورية الفرنسية امتلاك البقعة الجميلة فى العالم التى ستكون للحضارة أكبر الأثر فى إنهاضها وإحياء عظمتها القومية . " (٢٢)

كان "دنزلو" يخشى مفاجأة الأسطول الانجليزى له ، وقد صدق حدسه ، ولذا كان تحصين مواقعه بكل ما لديه من إمكانيات هو شغله الشاغل فى تلك الفترة . ويتضح ذلك من خلال الرسائل العديدة التى بعث بها إلى الجنرال "ديزيه" ، والجنرال "بليار" ، و"ديجوا" Dugua يطلب فيها إمداده بالمدافع الكبيرة ، وبالبنادين المهرة ، حتى يتسنى له تأمين قواته . ومما زاد من صعوبة مركزه ، أنه كان يعتمد فى إمداده بالمياه والدقيق والفول والشعير والزيت على مدينه قنا .

---

(٢١) نفسه ص ٣٩٦ .

(٢٢) الرافعى ، المرجع السابق ١ / ٤٣٢ .

وفى الوقت نفسه قام بحفر العديد من الآبار ليقلل من اعتماده بعض الشيء على جلب المياه من قنا . كما قام بتشكيل كتيبة من القناصة المحمولة على الإبل لمنع تسلل المجاهدين من الساحل الحجازى ، وهو التسلل الذى لم ينقطع .

الهجوم الانجليزى البحرى على القصير :

حاصرت بريطانيا الشواطىء المصرية المطلة على البحر المتوسط لتقطع كل اتصال بين الحملة وفرنسا . وكذلك راقبت شواطىء البحر الأحمر لتحول دون اتصال الحملة بشبه الجزيرة العربية والهند . ولما كان ميناء القصير ذا قيمة كبيرة للفرنسيين ، فهو منفذ مهم لهم على البحر الأحمر ، فقد رأت بريطانيا مهاجمته بفرقاطتين حربيتين تحت قيادة الضابط بلانكت Blankett فى منتصف أغسطس ١٧٩٩ ، حيث هاجمت الفرقاطتان القلعة ، تمهيدا لاقتحامها ولكن حاميتها لم ترد على النار بالمثل . وعندما استقل الجنود الانجليز الزوارق واقتربوا من الشاطىء فى محاولة للنزول ، بدأت حامية القلعة تمطرهم بوابل من قذائفها ، أرغمتهم على الارتداد إلى الفرقاطتين مسرعين .

تكررت المحاولة فى اليوم التالى تحت حماية طلقات المدفعية البحرية ، ونجحوا فى إنزال بعض الجنود ، ونشبت معركة حامية بين الطرفين ، لم يستطع الإنجليز خلالها من تثبيت أقدامهم على الشاطىء فانسحبوا مرة ثانية .

وفى المرة الأخيرة (١٦ أغسطس ١٧٩٩) قام الإنجليز بمحاولة أخرى ، لم يكن نصيبها بأفضل من المحاولتين السابقتين ، فلم تجد الفرقاطتان بدا من الانسحاب فى ١٧ أغسطس بعد أن أحدثت خسائر جسيمة فى جدران القلعة وفى البلدة .

ونظرا لاحتمال معاودة الإنجليز الهجوم بقوة بحرية أكبر ، أسرع "دنزلو" باصلاح ما خربته المعارك من مبانى القلعة ، بل وأضاف تحصينات جديدة استغرقت عدة شهور . ويعتبر نجاح القائد الفرنسى "دنزلو" فى صد الهجوم الإنجليزى أكبر نجاح فى تاريخ حياته العسكرية .

وعندما ترامى إلى سمعه نبأ اعتزام الحملة الفرنسية الجلاء عن مصر ، كتب إلى الجنرال "ديزيه" فى ٧ نوفمبر ١٧٩٩ يبدى أسفه لسماع هذا النبأ ، لأنه كان من أنصار البقاء فى

مصر، والاحتفاظ بها لصالح الجمهورية الفرنسية . ولما تيقن من الخبر بعد توقيع معاهدة العريش فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ ، [٢٣] وطلب منه الجلاء عن القصير ، أرسل إلى الجنرال "ديزيه" فى ٧ فبراير ١٨٠٠ يبدى دهشته لأمر الجلاء ، ويود معرفة السبب . ولكنه قام بتنفيذ الأمر ، وغادر القصير فى نهاية هذا الشهر . وقد منح دنزلو حكم مصر الوسطى قبل جلاء الفرنسيين عن مصر بصفة نهائية . [٢٤]

وعلى أثر انسحاب الفرنسيين من القصير نزلت بعض القوات الهندية ، وتقدر بثلاثة آلاف مقاتل تحت قيادة الميجر جنرال "دافيد بير" David Bird على شاطىء القصير . ثم عززت بعد ذلك بألفين آخرين ، ونزلت بالقلعة وكانت فى حالة جيدة بعد أن رممتها ودعمتها القوات الفرنسية فى أعقاب الغزو البحرى الانجليزى . ولم تطل إقامة تلك القوات بالقصير ، فغادرتها فى يونيه ١٨٠١ متجهة إلى قنا ، ومنها إلى القاهرة .

وبعد خروج الفرنسيين من مصر عادت حركة التجارة بين ميناء القصير وميناءى جدة وينبع كما كانت عليه من قبل . وسنجد أن حروب محمد على فى شبه الجزيرة العربية ستزيد من حركة التجارة والنقل بين القصير وموانيء الحجاز بشكل ملحوظ . ومن ثم زادت أهمية هذا الميناء ، لأنه أقصر طريق بحرى عبر البحر الأحمر .

الاتفاق مع مراد بك :

نعود مرة ثانية إلى سير الأحداث فى صعيد مصر ، فنجد أن الهزائم التى منى بها مراد بك ، أرغمته على التفكير الجدى فى التقرب من الفرنسيين ومصالحتهم ، لا سيما بعد أن أرسلت الدولة العثمانية حملة إلى مصر لإخراج الفرنسيين بمساعدة بريطانيا . فقد أدرك أن انتصار العثمانيين سيؤدى إلى إخضاع مصر لحكمهم المباشر بعد تجريد المماليك من سلطاتهم . وكان ذلك قبل عقد معاهدة العريش . وقد ذكر الجبرتى [٢٥] فى حوادث ذى الحجة ١٢١٤هـ / مايو ١٨٠٠ أن الصلح قد تم بين كليبر ومراد بك بعد إخماد ثورة القاهرة فى ٧ ذى الحجة ١٢١٤ هـ / ٢ مايو ١٨٠٠ م . وقد سبقه تفاهم بين الطرفين بعد نقض معاهدة

---

(٢٣) Bonaparte au citoyen Tallyrand , Ministre des Relations Exterieures , Lausanne , no. 4800 , 25 Floreal (15 Mai 1800) 1 er T.V , pp . 284 -285 .

(٢٤) Deherain , op . cit . p 398 .

(٢٥) الجبرتى ، ٣ / ١١١ .

العريش ، وقبيل معركة عين شمس (٢٠ مارس ١٨٠٠) بأن يقف مراد على الحياد فى الصراع الفرنسى العثمانى ، وقد بر مراد بوعده ، انتظارا لنتيجة المعركة وللانضمام إلى الجانب المنتصر .

وعندما تحقق للفرنسيين النصر ، عزم على عقد صلح معهم ، بشرط أن يتركوا له حكم الصعيد تحت سيادتهم . فأرسل مراد من قبله عثمان بك البرديسى مفوضا لعقد الصلح سرا حتى لا يتعرض أتباعه لانتقام العثمانيين .

ويعلق "كليبر" فى مذكراته على ذلك بقوله : " على أن مراد بك كتم أمر الاتفاق عن أتباعه ، وهذا يرجع لسببين ، فإما أن مراد بك خشى إذا أذاع أمر الاتفاق أن يسىء إلى البكوات والمماليك من أتباعه الذين غامروا بأنفسهم فى ثورة القاهرة ، ويجعلهم عرضة لانتقام العثمانيين ، وإما أنه كان غير واثق من أن النصر النهائى سيكون لنا ، فأراد أن يرقب الحوادث قبل أن يكشف عن حقيقة موقفه ، وهذا ما أرجحه . " (٢٦) وأرى أن السببين معا حتما على مراد إتخاذ هذا الموقف .

نص الاتفاق على منح مراد حكم الصعيد من جرجا إلى أسوان ، على أن يدفع خراجا سنويا قدره ٢٥٠ كيسا ، بالإضافة إلى ١٥٠٠٠ أردب قمح و٢٠٠٠٠ أردب شعير وحبوب . على أن يمنح مراد بك إيراد جمركى القصير وإسنا ، وأن يحتل الفرنسيون القصير .

زاد ولاء مراد للفرنسيين بعد الاتفاق ، " وأهدى إلى بعضهم هدايا جليلة وتقادم عظيمة وأعطاه (يقصد كليبر) ما كان أرسله درويش باشا (المعين من قبل الصدر الأعظم واليا على الصعيد) معونة للباشا والأمراء من الأغنام وغيرها ، وكانت نحو أربعة آلاف رأس . " (٢٧)

بلغ من سوء تصرف مراد وخيانته لمصر ما ذكره المسيو "جالان" وهو شاهد عيان لثورة القاهرة الثانية – بأن مراد سعى لدى أعوانه بالقاهرة للعمل على تسليم المدينة للفرنسيين .

---

(٢٦) الرافعى ، ٢ / ١٦٥ .
(٢٧) الجبرتى ، ٣ / ١١١ .

وعندما وجد أن مسعاه قد فشل عرض على الفرنسيين إحراق المدينة ، وأرسل لهم عدة مراكب محملة بالأخشاب لهذا الغرض . " [٢٨]

وعندما هزم "بليار" فى معركة الزوامل (١٦ مايو ١٨٠١) أمام القوات الإنجليزية العثمانية المشتركة ، تحرج موقفه فى القاهرة ، فاستنجد بحليفه مراد بك الذى هب لمساعدته ، فسار على رأس قواته متجها إلى القاهرة ، ولكنه أصيب بالطاعون ، وتوفى بسوهاج فى ١٨ أبريل ١٨٠١ . وبذلك فقد الفرنسيون العون الوحيد لهم فى مصر .

عين عثمان بك الطمبورجى خلفا له ، فأظهر ولاءه للفرنسيين ، ولكنه ما لبث أن انقلب عليهم بعد أن رجحت كفة العثمانيين والإنجليز . وكان لتعاقب الهزائم على الفرنسيين ، وانتشار الطاعون الذى أودى بحياة خمسمائة من الجنود ، أثره على القادة العسكريين الفرنسيين الذين اجتمعوا فى المجلس الحربى الفرنسى فى القلعة ، للنظر فيما يجب عليهم اتخاذه حيال هذا الموقف الخطير . فاقترح الجنرال "دنزلو" الذى قدم لتوه من الصعيد بانسحاب الجيش الفرنسى إلى الوجه القبلى ، حيث إنه أصلح لمقاومة القوات النظامية ، والعمل على إنهاك القوات العثمانية والإنجليزية ريثما تقرر الحكومة الفرنسية ما تريده بشأن مصر .

لم يؤخذ بهذا الرأى لعدم جدواه ، ولاستطاعة قوات الدولتين مطاردة القوات الفرنسية إلى أقصى حدود مصر فى الجنوب . واتفقت الآراء أخيرا على فتح المفاوضات من جديد . تلك المفاوضات التى انتهت بتوقيع اتفاقية الجلاء فى ٢٧ يونيه ١٨٠١ ، على أن يتم جلاء الفرنسيين عن مصر فيما لا يزيد عن خمسين يوما من توقيع الاتفاقية ، وهى لا تختلف فى بنودها عن معاهدة العريش التى رفضتها بريطانيا . واضطر "مينو" الذى كان معتصما بالإسكندرية إلى توقيع اتفاقية أخرى لجلاء قواته عن المدينة فى ٣١ أغسطس ١٨٠١ .

بعد هذا العرض الموجز لما قامت به الحملة الفرنسية على الصعيد ، يمكننا الخروج بالنتائج التالية :

---

(٢٨) الرافعى ، ٢ / ١٧٠ .

أولا : إن الحملة الفرنسية قد وجدت مقاومة شديدة فى صعيد مصر أكثر مما وجدته فى بسط نفوذها على الوجه البحرى ، وذلك لاختلاف طبيعة كل منها .

ثانيا : كان المقاتلون المصريون يمثلون الأغلبية الساحقة بالنسبة للمماليك فى كل المعارك التى خاضوها ضد الفرنسيين . ومعنى هذا أن عبء مقاومة الحملة قد وقع على كاهل المصريين فى المقام الأول .

ثالثا : دأبت المدن والقرى التى خضعت للفرنسيين ، على الانقلاب عليهم أكثر من مرة ، ليس بدافع الوطنية والدفاع عن الأرض والعرض فحسب ، وإنما بدافع الأخذ بالثأر لقتلاهم أيضا .

رابعا : لعب المجاهدون من الحجاج والمعتمرين الذين تدفقوا على القصير من الأراضى الحجازية ، وانضموا تحت لواء المقاتلين المصريين ، دورا مهما فى إذكاء روح المقاومة والقتال من أجل تحرير الأرض أوالشهادة . ويمثل هذا الشعور الفياض نوعا من التضامن العربى الإسلامى .

خامسا : ظهرت أثناء الحرب أهمية القصير على البحر الأحمر كميناء استطاع أن يصد هجمات الأسطولين الفرنسى والإنجليزى المتعاقبة عليه ، وأن يقوم بدور مهم فى مقاومة الفرنسيين .

سادسا : تكبد الفرنسيون خسائر كبيرة ، نتيجة تفشى مرض الطاعون ، والرمد الذى أصاب الكثيرين منهم .

سابعا : رغم التضحيات الجسيمة التى بذلها الفرنسيون فلم يستطيعوا الاستقرار فى الصعيد ، واضطروا فى نهاية الأمر إلى الاتفاق مع مراد بك ، تنازلوا بمقتضاه عن حكم الصعيد تحت سيطرتهم .

القرية فى صعيد مصر فى مواجهة الغزو الفرنسى

١٧٩٨-١٨٠٠

الأستاذ الدكتور/ على بركات
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة حلوان

فى البداية لابد من الإشارة إلى أن هذه الورقة لا تتعرض لكل معارك الحملة الفرنسية فى صعيد مصر ، وبالتالى فهى ليست دراسة للتاريخ العسكرى للحملة الفرنسية فى الصعيد فهذا الموضوع تعرض له المؤرخ عبدالرحمن الرافعى باستفاضة فى الجزء الأول من كتابه تاريخ الحركة القومية (١) . وانما هذه الورقة محاولة لرصد بعض جوانب المواجهة التى تمت بين القرية وحملة ديزيه فى محاولتها تأسيس سلطة فرنسية فى صعيد مصر بالتالى فالقضية هنا أوسع من محاولة رصد للمعارك العسكرية . وفيما يتعلق بتناول المعارك العسكرية فقد حاولت أن تكون قاصرة على المعارك التى خاضتها القرية منفردة دون المماليك أو من عناصر البدو ، كما هو الحال فى المعركة التى خاضتها قرية الغنايم ضد الفرنسيين كذلك المعارك التى كان الفلاحون الطرف الرئيسى فيها . هذه ملاحظة أولى أما الملاحظة الأخرى فتتعلق بالمصادر وفى هذا المجال يمكن رصد ثلاث صعوبات :

١- إن المصادر الفرنسية وهى أساسية فى الموضوع ومتعددة . هذه المصادر منحازة وبالضرورة للجانب الفرنسى ، كما أنها تعانى من سوء الفهم للثقافة والمعتقدات والقيم السائدة بين السكان وقد انعكس ذلك على طبيعة الصراع . يمكن ملاحظة ذلك من تعليق " فيفان دينون " على ما أسميته هنا سياسة الأرض المحروقة التى اتبعها الفلاحون وسكان القرى فى مواجهة قوات الغزو . حين كان الفلاحون يرحلون عن القرى قبل أن يهاجمها الفرنسيون ويجردون القرى من كل ما يمكن أن يستفيد منه الفرنسيون . " دينون " يقول تعليقا على ذلك ماذا لو بقى الفلاحون فى قراهم ليشاركهم الفرنسيون فى غنائمهم .. وفى هذه الحالة سوف يغتصب من نسائهم عدد أقل ، ويتضح ذلك أيضا من تعليق " ديزيه " على واقعة الغلام الذى تسلل إلى معسكرات الجيش الفرنسى قرب المنيا وتم أسره وعندما

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ، النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٥ .

سأله " ديزيه " عن الذين حرضوه قال إن الله أمره بذلك وأمره بقتال الفرنسيين . وكان تعجب القائد الفرنسي من تلك المبادىء والعقيدة التى تجعل ذلك الغلام يضحى بنفسه دون تردد (١) .

٢- أن " الجبرتى " المؤرخ المصرى الذى عاصر أحداث الحملة لم يهتم كثيرا بوقائع حملة " ديزيه " على الصعيد ويرجع ذلك إلى أنه كان عازفا بشكل عام عن متابعة أخبار الريف . كما أنه كان ينظر للطبقات الدنيا فى الريف والمدينة باستعلاء شديد . يمكن ملاحظة ذلك فيما كتبه من أخبار وتعليقات على الطبقات الدنيا فى المدينة وعن الفلاحين فى الريف (٢) .

٣- أنه فى اطار التاريخ الشفهى أو التاريخ غير المكتوب للقرية لا تحتفظ ذاكرة القرية بأية ذكريات عن تلك المقاومة العنيفة التى خاضتها القرية ضد الفرنسيين فى الصعيد بينما احتفظت بعض القرى بذكريات وأغانى ومواويل عن أحداث أقل أهمية يرجع بعضها إلى أوائل عصر محمد علي وأوائل عصر عباس ومنها الصراع الذى كان قائما بين بعض القرى والذى أشار " علي مبارك " إلى بعض جوانبه فى حديثه عن قرية بنجا (٣) . وربما يرجع ذلك إلى محاولات الفرنسيين الاعتداء علىالأعراض عند مهاجمتهم للقرى وبالتالى اسقطت القرية من ذاكرتها تلك الصفحة من نضالها ضد الغزاة الفرنسيين .

بعد هذه المقدمة يمكن أن نعرض للواقع الاقتصادى والاجتماعى للقرية وموقفها من السلطة فى صعيد مصر . وسوف يساعد ذلك على تفسير عنف المقاومة ضد الفرنسيين فى ريف مصر عموما . وفى الصعيد على وجه خاص .

---

(١) "فيفان دينون" أحد علماء الحملة الفرنسية الذين صاحبوا حملة "ديزيه" على صعيد مصر وصور المعابد المصرية هناك كما سجل معارك الحملة التى شاهدها فى صعيد مصر فى كتاب ترجم إلى الانجليزية :
Denon , V. , Travels in Upper and lower Egypt , New-York 19 , V.I , PP. 360 - 365 .

(٢) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، طبعة بولاق سنة ١٢٩٧هـ . جـ٣ ، ص٨ ، ١٠ ، ١١ ، ٢٥ وأيضا جـ٤ ، ص٢٠٨ .

(٣) علي مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة ، القاهرة مطبعة بولاق سنة ١٣٠٥هـ ، جـ٩ ، ص٨٤ .

الواقع الاقتصادى والاجتماعى للقرية قبيل الغزو الفرنسى :

خلال العصر العثمانى كانت الضرائب هى الوسيلة الرئيسية للحصول على الفائض فى القطاع الزراعى . كما كانت السخرة تمثل وسيلة أخرى للحصول على الفائض ، وكان نظام حيازة الأرض خلال تلك الفترة يسمح لفئات بعينها بالحصول على الجزء الأكبر من الفائض فى شكل ضرائب عينية ونقدية . وبذلك شاركت تلك الفئات الدولة فى الحصول على الفائض بل أصبح ما تحصل عليه هذه الفئات من الفائض يزيد فى بعض الأحيان عما تحصل عليه السلطات المركزية صاحبة الحق فى هذه الضرائب (١) .

ففى البداية اتبع العثمانيون نظام الجباية المباشرة للضرائب فى الأرض الزراعية عن طريق تطبيق ما عرف بنظام الأمانات أو المقاطعات . وهو نظام كان يقوم على تجميع عدد من القرى فى مقاطعة واحدة تمثل وحدة ادارية يعين عليها مسئول لجباية الضرائب وكان يساعده فى ذلك موظف للإشراف على الأراضى وتحديد الضرائب . ثم أخذت الدولة تتخلى عن هذا النظام ابتداء من النصف الثانى للقرن السابع عشر بنظام بديل هو نظام الالتزام الذى كان تطورا للنظام السابق . وكان ظهور نظام الالتزام تعبيرا عن ضعف السلطة العثمانية حيث يقوم النظام الجديد على اعطاء حق جباية الضرائب لبعض الأفراد الأقوياء من المماليك ورجال الحامية ومشايخ العرب وفى فترة لاحقة إلى كبار التجار وكذلك العلماء . وبذلك شاركت هذه الفئات الدولة فى الحصول على الفائض (٢) . واصبحت هذه الفئات تلعب دور الوسيط فى تحصيل الضرائب بين الفلاحين والسلطات العثمانية . وفى البداية كان الالتزام يمنح كامتياز لسنة قابلة للتجديد أصبح يمنح لعدة سنوات . ومع استمرار التدهور فى اوضاع السلطة العثمانية أصبح الالتزام يورث ويباع ويمكن التنازل عنه للغير .

---

(١) حول الضرائب الإضافية فى القرية خلال تلك الفترة انظر :

– دار الوثائق ، دفتر ترابيع ولاية الشرقية سنة ١٢١٥هـ رقم ١٦٠٨ .

(٢) Shaw , S., Land Holding and land tax Reveues in Ottuman Egypt , in Holt , Political and Social change in Egypt , London , 1968 , PP. 94 - 96 .

وابتداء من ١٨٣٠ أنشأت الادارة المالية (الرزنامة) دفاتر أطلق عليها اسم دفاتر اسقاط القرى بعد أن اصبحت الدولة تعترف من الناحية الواقعية بما انتهى إليه نظام الالتزام على الرغم من أن الدولة من الناحية القانونية كانت لاتزال تملك رقبة الأرض (١) .

وقد ضاعف من قسوة الحياة على الفلاحين خلال تلك الفترة ان الملتزمين وقد حلوا محل الحكومة فى الريف وانتقلت اليهم سلطاتها الادارية بعد أن تطور نظام الالتزام من نظام مالى إلى نظام مالى وإدارى وبذلك انفتح الباب على مصراعيه لظلم الفلاحين واستنزافهم لدرجة قرر معها " الجبرتى " أن الفلاح أصبح مع الملتزم أذل من العبد المشترى (٢) .

وقد زيدت الضرائب خلال العصر العثمانى عدة مرات على الأرض الزراعية ومع مرور الوقت اصبح النظام الضريبى فى مصر العثمانية بعيدا عن العدالة . فمن ناحية لم تشهد فترة الحكم العثمانى عملية مسح للأرض الزراعية أو إعادة تقييم للضرائب على الرغم من التغيير الذى طرأ على مساحة الأرض الزراعية أو على خصوبتها على الرغم من تلك الجهود التى كان يبذلها بعض الملتزمين أو الادارة المحلية لتحقيق قدر من العدل فى هذا الاتجاه . ففى البداية كان الخراج والمال الحر متقاربين حيث كانت كل الاراضى المزروعة خاضعة للضرائب تقريبا . كان الجزء الأكبر من الضرائب المحصلة من الأرض الزراعية يذهب إلى الخزانة . ولم يكن هناك سوى قدر ضئيل يذهب للإنفاق على الادارة المحلية ، لكن المتحصل من الضرائب أصبح يقل تدريجيا . وكان العامل الرئيسى فى هذا النقص هو التدهور الشديد فى قيمة العملة فى مصر ، ونتيجة لتدهور قيمة العملة وما صاحب ذلك من تضخم فى الأسعار ازدادت الضرائب على الأرض وأصبحت قيمة المال المضاف تبلغ ٥٠٠٠ بارة عن كل ٢٥,٠٠٠ بارة من المال القديم كما أصبح متوسط الضريبة على الفدان يصل إلى ٧ بارات فى نهاية القرن الثامن عشر . بينما ارتفع دخل الدولة من الضرائب على الأرض الزراعية من ٤٤,٤٧٨,٣١٢ عام ١٥٩٦م إلى ٧٥,٢١٢,٣٨٩ بارة عام ١٧٩٨م بزيادة قدرها ٦٠٪ وهى زيادة قد تبدو عادلة بالقياس الى التدهور الذى حدث فى قيمة العملة . لكن الحقيقة أن المال الحر (مجموع الضرائب التى تحصل عن الأرض الزراعية) قد زاد من ٥٠ مليون بارة تقريبا مع نهاية القرن السادس عشر إلى ٤١١,٨٠٠,٠٢٥ بارة فى نهاية القرن

---

(١) بيتر جران ، الجذور الإسلامية للرأسمالية مصر ١٧٦٠ – ١٨٤٠ ، ترجمة محروس سليمان ، دار الفكر ، القاهرة ١٩٩٣ ، مجـ٨٠ .

(٢) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ٤ ، ص٢٠٧ .

الثامن عشر أى بزيادة تصل إلى ٨٠٠٪ كان يذهب منها ٢١٪ فقط إلى الخزانة و ١٢٪ إلى الإدارة المحلية والباقى وتبلغ نسبته ٦٧٪ فيذهب إلى الملتزمين وعملائهم فى الريف (١) .

ومع نهاية القرن الثامن عشر كان عدد الملتزمين يصل إلى ٦٠٠٠ ملتزم من بينهم ٣٠٠ ملتزم من المماليك يحوزون أكثر من ثلثى الأراضى الزراعية فى مصر . وإلى جانب الأسباب الاقتصادية المشار إليها يمكن إضافة أسباب أخرى كانت وراء الأعباء والمطالب المالية المتزايدة التى عانى منها الفلاحون فى نهاية القرن الثامن عشر وهذه نحصيها على النحو التالى :

١- تطور أطماع المماليك السياسية وزيادة تطلعهم إلى السلطة ابتداء من حركة على بك الكبير وتوسع المماليك فى تجنيد المرتزقة للاستعانة بهم فى تحقيق تطلعاتهم وكان هؤلاء المرتزقة يحصلون على أجور عالية . كذلك توسع المماليك فى استخدام الأسلحة الحديثة وهى غالية الثمن بالقياس إلى الاسلحة التقليدية التى كان يستعملها المماليك من قبل . وكان اعتماد المماليك فى تسليحهم فى ذلك الوقت عى الفرنسيين مكلفا للغاية . وكان ذلك أحد أسباب الضغوط الاقتصادية الرئيسية التى دفعت المماليك للأخذ بأساليب قصيرة الأجل لزيادة أموالهم عن طريق فرض الضرائب الباهظة على القرى والتجار وجماعات المدن . وهذه الأساليب مارسها علي بك الكبير . كما حاول مراد بك استخدام أساليب قصيرة الأجل أيضا عن طريق استخدام القوة فى جمع أكبر جزء من محصول القمح وبيعه نقدا بسعر مرتفع (٢) .

٢- الترف الذى عاشه المماليك كطبقة عسكرية (شبه اقطاعية) وهو ترف تحدثت عنه المصادر سواء فى أسلحتهم الشخصية أو قصورهم أو حفلاتهم . فقد صور الجبرتى مظاهر البذخ التى صاحبت زواج عديلة هانم ابنة ابراهيم بك عام ١٢٠٦هـ (١٧٩٢م) والعربة الفرنسية التى استقلتها إلى بيت أبيها (٣) .

---

(١) Shaw , op - cit , PP. 97 , 98 ;
هيلين ريفلين ، الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص٤٠ .

(٢) محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى (١٥١٤ - ١٩١٤) ، مكتبة سعيد رأفت ، القاهرة - ١٩٧٧ ، ص١٥٩ - أيضا بيتر جران ، الجذور الإسلامية للرأسمالية فى مصر ١٧٦٠ + ١٨٤٠ ، ترجمة محروس سليمان ، القاهرة دار الفكر سنة ١٩٩٣ ، ص٤٥ ، ٤٧ .

(٣) بيتر جران ، المرجع السابق ، ص٤٧ - عجائب الآثار ، جـ٢ ، ص٢٢٧ .

٣- تدهور تجارة البن ابتداء من عام ١٧٢٥ وكان البن اليمنى قد أصبح السلعة الرئيسية فى تجارة البحر الأحمر وأصبحت له الصدارة فى تجارة مصر الخارجية فى نهاية القرن السابع عشر ثم ما لبث أن تعرض للمنافسة من قبل البن المنتج فى المستعمرات الفرنسية فى أمريكا الوسطى . وقد أضاف تدهور تجارة البن عاملا جديدا فى ضعف موارد البلاد المالية فى الوقت الذى زادت فيه المطالب المالية للطبقات الحاكمة (١) .

٤- التدهور المستمر فى قيمة العملة العثمانية التى تحدد وزنها فى القرن السادس عشر بمقدار ١,٢٨ من الجرام وكانت نسبة الفضة بها ١٠٠٪ ، هذه القيمة ما لبث أن انخفض وزنها إلى ٦٨,٩٪ من الجرام كما انخفضت نسبة الفضة بها إلى ٧٠٪ فى نهاية القرن السابع عشر . وفى عام ١٧٩٨ اصبح وزنها ٢٢,٥٪ من الجرام كما انخفضت نسبة الفضة بها إلى ٣٠٪ . أما العملة الذهبية المعروفة بالسكوين فقد كان وزنها يبلغ ٣,٤٤٨ جرام وكانت نسبة الذهب بها تصل إلى ٩٩,٦٪ ما لبث أن انخفض وزنها إلى ٢,٥٩٢ جم فى نهاية القرن الثامن عشر كما انخفضت نسبة الذهب بها إلى ٦٩,٦٪ . أما الفندقى وهى عملة ذهبية كان وزنها ٣,٥١٠ جم عام ١٧٠٣ وكانت نسبة الذهب بها تصل إلى ٩٦,٨٪ وفى نهاية القرن الثامن عشر أصبح وزنها يصل إلى ٣,٤٤٨ جم كما انخفضت نسبة الذهب بها إلى ٧٥٪ (٢) .

٥- أما العامل الأخير فى هذا السياق فهو اتساع مساحة الأراضى الزراعية المعفاة من الضرائب من الأوقاف والوسية وهى الأرض التى كانت فى حيازة الملتزمين فضلا عن مسموح العلماء ومسموح البدو . وكان ذلك يعنى تزايد الضرائب على أراضى الفلاحة وهى الأراضى التى كان يزرعها الفلاحون (٣) .

إن تدهور تجارة العبور والتضخم فى الأسعار واتساع مساحة الأراضى المعفاة من الضرائب قد أرهق القطاعات المنتجة فى الريف والمدينة . وكان هذا الإرهاق أكثر وضوحا

---

(١) Raymond , Artisans et commercant au caire 18 Siecle Damascus ,1973 ,T.I,PP.412 - 414

(٢) Shaw , op - cit P. 97 .

(٣) على بركات ، تطور الملكية الزراعية فى مصر وأثره على الحركة السياسية ١٨١٣ – ١٩١٤ القاهرة ١٩٧٧ ، دار الثقافة الجديدة ، ص١٦،١٧ .

في القطاع الريفي الذى كان يعاني من عملية نهب وابتزاز مستمرة تحدث عنها " الجبرتى " في أكثر من موضع (١) .

يفسر " جيرار " (أحد علماء الحملة الفرنسية) أسباب تدهور الاوضاع فى الريف خلال تلك الفترة بوسائل المماليك فى الحصول على الفائض والتى كانت تعتمد على القوة وبالتالى جعلتهم لا يهتمون بتحسين الأرض أو النهوض بالزراعة .

غير أن " جيرار " يؤكد أنه فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر تحسنت أوضاع المنطقة الواقعة بين أسيوط وقنا حيث حدثت عناية كبيرة بصيانة الترع والجسور ويرجع ذلك إلى ضعف قبضة المماليك خلال تلك الفترة على هذه الأقاليم وإلى الاصلاحات التى نفذها شيخ العرب همام الذى حكم الصعيد خلال الفترة ما بين عامى ١٧٦٥ - ١٧٦٩ . ثم المنطقة ما لبثت أن اصبحت مسرحا للصراعات والقلاقل بين المماليك الفارين من سلطة القاهرة بعد القضاء على حركة همام . ونتيجة لذلك عادت هذه المنطقة لتصبح فى حالة من الضنك (٢) .

وقد أفاضت المصادر فى تصوير مدى البؤس الذى وصل إليه الفلاحون خلال تلك الفترة فالرحالة الفرنسى " فولتى " الذى زار مصر خلال عامي ١٧٨٣ - ١٧٨٤ ، كتب عنها يقول فى مثل هذا القطر (يقصد مصر) كل شيء يذهب إلى الحكومة حيث لا يحصل الزراع على نتائج عملهم . ويعمل الفلاحون تحت ظروف من القهر والاجبار فإن الناتج الزراعى يكون ضعيفا .

تلك هى حالة مصر خلال تلك الفترة فالجزء الأكبر من الارض الزراعية فى أيدى المماليك ، والفلاحون مجرد آلات مأجورة لا يترك لهم ما يكفى استمرار حياتهم . فالأرز والقمح يذهب إلى موائد سادتهم ولا يترك لهم إلا محصول الذرة وهو طعامهم طول العام

---

(١) عجائب الآثار ، جـ٢ ، ص٧٩ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٤ .
(٢) جيرار ، وصف مصر ، المجلد الرابع ، جـ١ من ترجمة زهير الشايب مكتبة الخانجى القاهرة ١٩٨٧ ، ص٣٧ .

ويعيش الفلاحون تحت ظروف من القلق والخوف المستمر من النهب من قبل البدو والابتزاز من قبل المماليك (١) .

وكان من الطبيعى أن يقاوم الفلاحون تلك الأوضاع الجائرة بشتى الوسائل واتخذت مقاومتهم مظهرين :

- الهرب من الأرض وهى ظاهرة قديمة فى التاريخ المصرى لكنها أصبحت ملحوظة فى العصر العثمانى . فقانون نامة مصر الذى صدر فى عهد السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ - ١٥٦٦) أشار إلى ظاهرة هرب الفلاحين من الأرض ووضع الضوابط الخاصة بمواجهتها ويستفاد مما جاء بهذا القانون أن بعض القرى قد هجرها الفلاحون بشكل كامل ، إن خراب تلك القرى يرجع إلى ظلم عمال الحكومة أو تعدى الكشاف (الحكام المحليين) أو ظلم شيوخ العرب أو هجمات البدو (٢) .

وخلال زيارته لسوريا لاحظ الرحالة " فولنى " أن الفلاحين المصريين المهاجرين إلى سوريا ينتشرون حتى حلب وديار بكر شمالا بسبب الاعباء المالية والمظالم الواقعة عليهم حتى أقفرت مناطق واسعة من أهلها مثل اقليم الفيوم الذى اشتهرت أرضه بخصوبتها ووفرة خيراتها وتشير سجلات الضرائب وحيازة الارض (الترابيع) التى عملت زمن الحملة الفرنسية (١٢١٥هـ) ١٨٠٠م إلى أن بعض القرى فى صعيد مصر قد خربت وجلا عنها أهلها مثل قرية ناقوسة بمصر الوسطى التى تقول عنها هذه الدفاتر انها كانت عام ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) عند وصول الفرنسيين خرابا ولم تحصل منها أية أموال (٣) .

- أما المظهر الآخر لمقاومة الفلاحين فهو الانتفاض ضد السلطة بشكل مباشر والصدام معها أو من خلال حركات مناهضة لهذه السلطة مثل حركة شيخ العرب همام . التى لاقت تأييدا وتجاوبا واسعا من الفلاحين فى صعيد مصر . واذا كانت حركة همام قد انهارت بسبب اصطدامها بطموحات على بك الكبير الذى كان يطمح فى قيام دولة مركزية إلا أن أصداء

---

(١) Volney , Travels through Syria and Egypt in the Years 1783 - 1785 , London 1972 . V.I , PP. 1988- 1990 . Tranlated .

(٢) قانون نامة مصر ، ترجمه وقدم له وعلق عليه أحمد فؤاد متولى (دكتور) ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص٧٠-٧٢ .

(٣) دار الوثائق دفتر تاريخ ولاية الأشمونين سنة ١٢١٥هـ رقم ١٦٨٨ .

هذه الحركة التى كانت تهدف إلى ضرب سلطة المماليك فى مصر ظلت فى وجدان السكان فى صعيد مصر . فرفاعة رافع الطهطاوى بعد أكثر من ستين عاما يحاول أن يقرب فكرة الجمهورية للمصريين عندما يقارنها بنظام الحكم الذى أقامه شيخ العرب همام فى صعيد مصر حيث يطلق عليه تعبير جمهورية التزامية وذلك فى كتابه المعروف تخليص الإبريز (١) .

وإلى عهد قريب كانت القرى فى جنوب أسيوط لا تزال تحتفظ بأغنية كانت ترددها الأمهات لأطفالهن قبل النوم ربما كانت تشير إلى حركة شيخ العرب همام ويقول مطلعها :

يا ولد ياولد حسن طبلك ضرب ∴ والمدينة تزعزعت والغز هجمت عالبلد (٢) .

وقد اعقب انهيار حركة همام (١٧٦٩) حالة من الفوضى وعدم الاستقرار فى الصعيد استمرت حتى مجيء الحملة الفرنسية (١٧٩٨) .

ففى رحلته إلى صعيد مصر عام ١٧٧٨ وصف الرحالة الفرنسى " سونيني " حالة الاضطراب وعدم الاستقرار التى شاهدها فى المنطقة الواقعة بين جرجا وأسيوط بقوله إن المنطقة كانت بعيدة كل البعد عن الاستقرار . فالفلاحون كانوا فى تلك المناطق فى حالة ثورة بعد أن رفضوا دفع الضرائب المطلوبة . كما انضم إليهم بعض العرب المستقرين واستطاعوا أن يلحقوا هزيمة كبيرة بقوات الكشاف المحليين الذين حاولوا توحيد قوتهم لمواجهة العناصر الثائرة . ونتيجة لذلك تردت المنطقة فى حالة من الفوضى والاضطراب فالحقول قد شاع فيها الدمار بعد أن هجرها الفلاحون ولجأوا إلى حمل السلاح وأصبحت الطرق الرئيسية تعج بالعصابات وقطاع الطرق . ويقول " سونيني " أن الفترة التى قضاها فى طهطا لم يكن يستطيع مغادرة المدينة بسبب حالة الهياج فى مناطق الريف المجاورة وإنه اضطر إلى ركوب إحدى سفن نقل غلال الميرى إلى العاصمة بسبب تلك الاضطرابات (٣) .

نصل من هذا إلى أن القرية المصرية وخاصة فى صعيد مصر كانت عند وصول الفرنسيين مشتبكة فى صراع عنيف مع سلطات المماليك وأتباعهم فى الأقاليم . ومع عناصر

---

(١) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث من الحملة الفرنسية إلىعصر اسماعيل ، الخلفية التاريخية والفكر السياسى والاجتماعى ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص٣٧-٤٣ .

(٢) أغنية شعبية من الغنايم فى نهاية الاربعينات .

(٣) Sonini , Travels in Upper and Lower Egypt , Hans 1979 Translated PP. 674 , 675 .

البدو غير المستقرين ومع قطاع الطرق المحترفين وبعض هذه الأخطار ترجع إلى أوائل العصر العثمانى حيث أشار إليها قانون نامة مصر الذى أشرنا إليه (١) . وأكدها مرة أخرى الرحالة " سونيني " عند حديثه عن القرى فى المنطقة المجاورة لدمنهور التى رآها فى حالة قلق مستمر بسبب الخوف من هجمات الكشاف والبدو (٢) .

هذه الأخطار أثرت فى تخطيط القرية المصرية بشكل عام وفى طرز العمارة فى ريف مصر حيث كانت مبانى القرى فى تلك الفترة تشبه الفلاح وكان الفلاحون بها على استعداد لمواجهة أى هجوم مفاجيء كما تقول المصادر المعاصرة (٣) . وهى حقيقة أشار إليها الرحالة الانجليزي " بايلي سان جون " الذى زار مصر فى أوائل عصر عباس حيث يذكر : أن القرية كانت تحصن نفسها فى الماضى ضد هجمات أعدائها بطريقة بدائية فكانت منازلها تبنى وظهرها للخارج فى شكل دائرى مثل قطيع الخيل الذى يتعرض لهجوم قطيع من الذئاب أما منافذ القرية للخارج فكانت تحكمها بوابات تتكون من كتل ضخمة من الخشب (٤) . كما كانت بعض القرى فى صعيد مصر يحيطها سور تتخلله فتحات من أعلى لاطلاق النار عند الضرورة مثل قرية بنجا (جرجا) التى أشار " علي مبارك " إلى أنه كان يحيط بها سور من الخارج به فتحات من أعلى كانت تستخدم للدفاع عنها (٥) .

وعلى هذا فالقرية كانت قد تمرست على الأخطار عندما حدث الغزو الفرنسى لمصر حيث كانت القرية مشتبكة فى صراع مع سلطات المماليك . وكذلك مع عناصر البدو غير المستقرين وعناصر التهديد الأخرى التى يمكن أن تأتى من عصابات اللصوص المحترفين . وكان من المنطقى أن تتجه تلك المقاومة إلى الفرنسيين الذين احتلوا البلاد ويحاولون تأسيس سلطة لهم فى الريف . وقد أعاد الغزو الفرنسى إلى الأذهان ذكريات الحروب الصليبية . ومن ثم أصبح الجهاد واجبا مقدسا . فضلا عن أن الفرنسيين لم يكونوا أقل قسوة من المماليك فى وسائل جمع الضرائب بل زادوا فى قسوتهم عن المماليك كما تؤكد المصادر الفرنسية نفسها

---

(١) قانون نامة مصر ، ص٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ .

(٢) Sonini , op - cit , P. 292 .

(٣) Reynier . J . L . T . , State of Egypt after the battle of Heliopolis , Translated , London , 1802 . P. 66 .

(٤) Bayle st J , Village life in Egypt , New-York 1973 V . I , P. 43 .

(٥) الخطط التوفيقية ، جـ٩ ، ص٨٤ .

وكما يؤكد " الجبرتى " ذلك (١) . وقد اضاف الحصار الانجليزي للشواطيء المصرية فى أعقاب معركة أبى قير البحرية أعباء اقتصادية جديدة على الفلاحين والمزارعين من زراع الأرز فى شمال الدلتا (٢) .

هذه العوامل مجتمعة ضاعفت من مقاومة الريف المصرى عموما للحملة الفرنسية .

المواجهة فى صعيد مصر :

من البداية كان " بونابرت " يرى أن بقاء الصعيد بعيدا عن السلطة الفرنسية يهدد الوجود الفرنسى فى القاهرة نفسها . كما يحرم القاهرة من مواردها من الغلال التى كانت تحصل عليها قبل وصول الفرنسيين إليها وعلى ذلك فقد كان تأسيس سلطة للفرنسيين فى صعيد مصر أمرا حيويا بالنسبة للفرنسيين (٣) . وعلى ذلك فقد حاول الفرنسيون الوصول إلى نوع من التفاهم مع المماليك الذين فروا إلى الصعيد بقيادة مراد بك فى اعقاب معركة امبابة غير أن مشروع المعاهدة قد فشل حيث رفض مراد بك أن تحدد إقامته مع قواته فى المنطقة الواقعة إلى ما وراء حدود إقليم جرجا كما رفض أن يحكم الاقليم الواقع إلى الجنوب تحت السيادة الفرنسية . وكان ذلك إيذانا ببداية حملة "ديزيه" على الصعيد ، وقد تكونت الحملة من حوالى خمسة آلاف رجل من المشاة والفرسان والمدفعية والمهندسين مع السفن الحربية اللازمة (٤) . وقد بدأت الحملة تحركها جنوبا من مصر القديمة فى أواخر أغسطس سنة ١٧٩٨ وفى ٣١ أغسطس احتلت مدينة بنى سويف ثم استولت على البهنسا بعد أن انسحب مراد بك منها ثم واصلت قوات الحملة اندفاعها جنوبا إلى أسيوط فى محاولة للاستيلاء على أسطول مراد لكن " ديزيه " قد فشل فى ذلك لانسحاب أسطول مراد جنوبا إلى جرجا وبالتالى قرر " ديزيه " الرجوع شمالا للاستيلاء على الفيوم حيث دارت معركة وهى معركة من أشد معارك الحملة هولا حيث خاضها الأهالى من المشاة والفرسان إلى جانب قوات المماليك يحدوهم الأمل فى سحق قوات " ديزيه " وبالفعل كادت هذه الجموع أن تسحق قوات " ديزيه "

---

(١) وصف مصر المجلد الثالث من ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص٧٩ .

(٢) فاطمة الحمراوى ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة لكلية الأداب – جامعة القاهرة .

(٣) عبد الرحمن الرافعى، المرجع السابق ، ص٣٦٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص٣٥٢ ، ٣٥٣ .

لولا تفوق المدفعية الفرنسية عليهم . وقد بلغت خسائر الفرنسيين حوالى٥٠٠ رجل من بين قتيل وجريح بينما قدرت خسائر المماليك بأربعمائة قتيل (١) .

وقد حددت معركة " سب منت " طبيعة الصراع فيالفترة التالية بين قوات الغزو الفرنسى وبين قوات المماليك وكذلك أهالى القرى الذين أصبحوا الطرف الأصيل فى المعارك القادمة . فقد فقد المماليك الأمل فى الانتصار على القوات الفرنسية فى معارك مواجهة وبالتالى اعتمدوا على أساليب الهجمات الخاطفة وأساليب الكر والفر وأصبحت معارك القرى تجهد الفرنسيين وتستنفذ قوتهم . وقد وقع العبء الأكبر فيهذه المعارك على الفلاحين وسكان القرى . بينما تراجع دور المماليك ليصبح قاصرا على التحريض والمناوشات الأولى فى المعارك ثم الانسحاب فى الوقت المناسب ليحافظوا على قواتهم ، حدث ذلك فى أكثر من معركة (٢) .

وقد أجهدت معارك القرى هذه ، القوات الفرنسية لدرجة تشبهها المصادر الفرنسية بحرب " انطونيو " مع البارثيين وهى حرب أرهقت القوات الرومانية فى ذلك الوقت (٣) . وخلال معارك القرى اتبع الفلاحون مع الفرنسيين ما يمكن أن نسميه بسياسة الأرض المحروقة وهى سياسة تقوم على حرمان الفرنسيين من الموارد المتاحة فى القرى . وتقرر المصادر الفرنسية أن القرى التى كان يجتازها الفرنسيون كانوا يجدونها خالية من أى موارد يمكن أن يستفيد منها الجيش الفرنسى (٤) .

وفى المقابل كان الفلاحون عند عودتهم لقراهم لا يجدون بها سوى الطين الذى بنيت به حيطان منازلهم فالأبواب وسقوف المنازل والمحاريث وأدوات المنازل كانت تستعمل لطهى طعام قوات الغزو كما يقرر " فيفان دينون " (٥) .

---

(١) المرجع السابق ، ص٣٥٤ – ٣٦٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص٣٦٧ ، ٤٠٥ .
(٣) Denon , op - cit , P. 240 .
– حول حرب "انطونيو" فى بارثيا انظر :
عبد اللطيف أحمد على (دكتور) ، التاريخ الرومانى ، عصر الثورة ، النهضة العربية القاهرة ١٩٦٧ ، ص٣٥٥
(٤) هيرولد ، المرجع السابق ، ص٣٣٠ .
(٥) Denon , op - cit , P. 359 .
– أيضا هيرولد ، المرجع السابق ، ص٣٣١ .

لقد كانت عمليات اخضاع القرى مقرونة بنهبها . وهناك أدلة متعددة على ذلك فعقب استيلائه على الفيوم شرع " ديزيه " فى تنظيم الادارة فى الاقليم وجمع الخيول اللازمة لقوات الحملة وتحصيل الضرائب ومصادرة الغلال . ولما كانت معظم القرى تمتنع عن تقديم ما يطلب منها فقد عزم " ديزيه " على تجريد قوة عسكرية على هذه القرى لاخضاعها وارغام الفلاحين على تسليم ما يفرض عليهم . فتحركت فى ٦ نوفمبر سنة ١٧٩٨ كتيبة فرنسية لاخضاع القرى الثائرة غير أن هذه القوة لقيت مقاومة عنيفة من قرية سرسنا . وعندما تمكن الفرنسيون من اخضاعها قاموا بنهبها واضرام النار فيها (١) .

إن عمليات نهب القرى والفظائع التى ارتكبها الفرنسيون زادت من اصرار الفلاحين على المقاومة ولم يتركوا وسيلة إلا إتبعوها ونسوا مظالم حكامهم من المماليك حيث وقف الفلاحون فى صعيد مصر إلى جانب جيش مراد (٢) .

ولم يكن أسلوب الفرنسيين فى النهب قاصرا على القرى بل إمتد إلى الأسواق وهو ما كان يفعله المماليك من قبل ففى أوائل أكتوبر نزلت فصيلة من القوات الفرنسية إلى سوق المنيا وبعد أن حصلوا على مؤنتهم من السوق رفضوا دفع ثمن ما حصلوا عليه فثار عليهم الفلاحون الذين كانوا فى السوق يسوقون محاصيلهم وقتلوا منهم خمسة جنود كما جرحوا ثمانية (٣) . بل أن نهب القرى كان يصحبه عملية إذلال للفلاحين حين كان الجند يحاولون الاعتداء على أعراض النساء ، الأمر الذى كان يفجر فى نفوس الأهالى براكين الغضب ضد الفرنسيين ولا عجب فإن الصعيد كله قد اشتعل حريقا ضد الفرنسيين الأمر الذى لم يستطع معه الفرنسيون تأسيس سلطة لهم فى الريف . وهو ما تؤكده المصادر الفرنسية نفسها فالجنرال " ديزيه " يقرر فى رسالة إلى " بونابرت " فى ١٧ مارس سنة ١٧٩٩ أنه رغم المجهود والتضحيات التى قدمتها القوات الفرنسية فإنهم ليسوا سادة البلاد وحسب قوله لأننا إذا أخلينا بلدة لحظة من الجنود عادت إلى حالتها القديمة (٤) . لقد كان الصراع على امتداد الريف فى صعيد مصر هائلا وضاريا للأسباب التى أشرنا إليها وضاعف من ضراوته أن كثيرا من القرى كان عليها أن تدافع عن نفسها فى نفس الوقت ضد تجاوزات المماليك حين

---

(١) عبد الرحمن الرافعى ، المرجع السابق ، ص٣٦٥ ، ٣٦٦ .
(٢) المرجع السابق ، ص٢٠٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص٣٦٤ .
(٤) المرجع السابق ، ص٣٩٧ .

كانت تتعرض للنهب من الفرنسيين والمماليك فى وقت واحد . حيث تشير المصادر إلى أن أهالى قرية " صنبو " قد اشتبكوا مع قوات مراد فى معركة ضارية عندما حاول المماليك نهب القرية ، وقتل فى هذه المعركة ثمانين شخصا من الفلاحين كما قتل من قوات مراد ثمانية من بينهم أمين خزانة مراد وتمكن المماليك من نهب القرية بعدها (١) . على ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نعرض لبعض معارك القرى ومنها المعركة التى وقعت بين قرية الغنايم والقوات الفرنسية حيث واجهت القرية بمفردها قوات الغزو فى زحفها جنوب أسيوط . فقد انسحب المماليك من أسيوط بعد أن اغرقوا سفينة مسلحة من أسطولهم وتركوا ست سفن أعجلهم عنها سرعة زحف " ديزيه " ، فلم يتمكنوا من أخذها أو حتى إغراقها . وعلى ذلك فقد استولى الفرنسيون عليها بما فيها من أقوات وذخائر . وبعد أن استقر الجيش الفرنسى بضعة أيام فى مدينة أسيوط شرع فى فجر يوم ٢٦ ديسمبر فى الزحف جنوبا منقسما إلى فرقتين فرقة الجنرال " فريان " وهذه سارت مع خط التقاء الرمل بالطين . والأخرى كان معظمها من الفرسان . وهذه أوغلت فى السهل وكان معها " فيفان دينون " وبعد مسيرة ثلاثة عشر ساعة التقت الفرقتان على مشارف قرية الغنايم مع حلول الظلام وفى محاولة احتلال القرية اشتبك الفرنسيون مع أهلها فى معركة قتل فيها بعض الجنود الفرنسيين وحسب رواية الجنرال "بليار" فإن قوة أخرى أرسلت لإعادة النظام للقرية ومن ثم اشتبك معها الأهالى فى معركة أخرى قتل فيها أحد الأهالى وجرح اثنان من الجنود الفرنسيين وخلال المعركة نهب الجنود القرية نهبا تاما (٢) . ويفهم من رواية " دينون " أن فرقة الجنرال " فريان " هى التى بدأت الهجوم على القرية مستفيدة من الظلام الذى خيم على المكان ويزعم أن التعزيزات التى أرسلت للقرية كانت تحاول وقف عمليات النهب والاعتداء على السكان وأنه بسبب فقدان التفاهم بين الطرفين حدثت المعركة الثانية وأن هذه التعزيزات اضطرت للدفاع عن نفسها بعد أن هاجمها الأهالى لأن هذه القوة كانت تعوزها الوسيلة فى شرح أهدافها للسكان (٣) .

أما معركة " نجع البارود " فتعتبر واحدة من أكبر الهزائم التى لحقت بالفرنسيين فى تاريخ الحملة ككل حيث هاجم الأهالى سفن أسطول " ديزيه " التى كانت تعزز زحف القوات البرية وتتكون من ١٢ سفينة تتقدمها السفينة الحربية " ايتاليا " وفى هذه المعركة تمكن الأهالى من الاستيلاء على بعض سفن هذا الأسطول بما عليها من أسلحة وذخائر وفى محاولة

---

(١) هارولد ، المرجع السابق ، ص٣٣٠ ، ٣٣١ .
(٢) الرافعى ، المرجع السابق ، ص٣٧٥ .
(٣) Denon , op - cit , P. 11 .

الاستيلاء على سفينة القيادة " ايتاليا " اشتبك الأهالى فى معركة مع القوة الفرنسية التى على ظهرها مما جعل قائدها يشعل النار فيها فانفجر مستودع البارود بها فدمرها تماما واحدث انفجار السفينة خسارة كبيرة بين الأهالى وبين القوات الفرنسية حيث بلغ عدد قتلاهم من الجنود والبحارة حوالى خمسمائة قتيل وهى أكبر خسارة أصيب بها الجيش الفرنسى خلال زحفه على الصعيد (١) . أما معركة أبنوب فقد استمرت ثلاثة أيام متصلة (٨ - ١٠ مارس ١٧٩٩) وفى هذه المعركة حاول الأهالى الاستفادة من الأسلحة التى حصلوا عليها من الأسطول الفرنسى والتى اخذت تقوى مركزهم فى المواجهة مع الفرنسيين . فعقب معركة نجع البارود واصل الأهالى انسحابهم تحت ضغط القوات الفرنسية وهم يدافعون عن كل قرية فى تراجعهم فلما وصلوا إلى أبنوب تحصنوا بها وأدرك " بليار " قائد القوة الفرنسية المتوغلة جنوبا أن موقفه أصبح محفوفا بالمخاطر طالما ظلت الأسلحة الفرنسية فى أيدى المصريين ومن ثم وضع خطته على أساس استرجاع هذه المدافع عند بدء المعركة . وبالفعل نجح فى ذلك ، وتحول القتال فى هذه المعركة إلى قتال متلاحم فى بيوت القرية وطرقاتها ولم يتمكن الفرنسيون من التغلب على مقاومة الأهالى إلا بعد أن اضرموا النار فى القرية التى تحولت إلى شعلة من الجحيم . بالرغم من ذلك استمر الأهالى فى المقاومة بعد أن تحصنوا فى قصر كان فى السابق مقرا لكشاف المماليك وفى مسجد مجاور له . واشتد القتال حول المنزل والمسجد واستمرت المعركة حتى حل الليل وتكبد الفرنسيون خسائر خلال القتال . وقد قام الفرنسيون بمحاصرة المنزل خلال الليل . وعندما استؤنف القتال فى اليوم التالى اعاد الفرنسيون ضرب القصر بالمدافع . وحاول الأهالى الذين تجمعوا من القرى المجاورة بمساعدة المماليك اختراق الحصار لكن الفرنسيين ردوهم على أعقابهم كما استطاع الفرنسيون الوصول إلى ساحة القصر وأضرموا فيها النار ليرغموا المتحصنين بداخله على التسليم لكنهم استمروا فى القتال حتى أقبل الليل وكان قد قتل منهم عدد كبير وتمكن بعضهم من الخروج من القصر تحت جنح الظلام وعندما استؤنف القتال فى اليوم الثالث كان الباقون قد أصبحوا فى حالة إعياء وأثقلتهم الجراح ورغم ذلك استمروا فى المقاومة حتى قتل معظمهم ويقول " دينون " تعليقا على هذه المعركة والمعارك التى سبقتها . إن العدو لم يكن يعبأ بنيران مدافع الميدان التى نملكها وكان اندفاعهم الشجاع يعوض حاجتهم إلى السلاح ... ويقول أيضا وقد وجدنا مقاومة أشد فى القرى حيث كان العدو يتفوق علينا فى العدد ويملك بعض الأسلحة النارية ويتمتع بحماية حوائط القرى ويقول أن القوات الفرنسية استطاعت اقتحام القلعة مرتين

---

(١) الرافعى ، المرجع السابق ، ص٣٩٢ .

وفي كل مرة كانت ترغم على الجلاء عنها وفى الساعات الاثنى عشر الأخيرة من الحصار كان المحاصرون بلا ماء وجفت حلوقهم وأصبح وضعهم رهيبا وبعد ساعة من طلوع النهار كان هناك ثلاثون من أفضل محاربيهم يشقون طريقهم خلال قواتنا المتقدمة ومع طلوع النهار دخلت قواتنا القلعة خلال الثغرات التى أحدثتها المدفعية . ويستطرد " دينون " فيقول إن القوات الفرنسية قد وضعت السيف فى أولئك الذين ظلوا نصف أحياء بعد أن شوتهم النيران وظلوا يقاومون رغم كل الظروف (١) .

وقد شهد شهر أبريل سلسلة من المعارك بين أهالى المنطقة الواقعة بين جرجا وأسيوط كان أبرزها معركة بني عدي وكانت بني عدي قد أصبحت مركزا لعناصر المقاومة بعد أن استطاع الفرنسيون التغلب على عناصر الثورة فى برديس (٦ أبريل) وجرجا (٧ أبريل) وجهينة (١٠ أبريل) وكان أهالى بنى عدى يهاجمون فى جماعات السفن الفرنسية فى النيل . وقد بدأت المعركة عندما اشتبكت القوات الفرنسية مع بعض الأهالى المتحصنين فى غابة قريبة من البلدة . ثم شرع الفرنسيون في مهاجمة بنى عدى وفى الهجوم الأول قتل " بينون " Pinon قائد القوة الفرنسية ثم ما لبث أن تحول القتال إلى قتال متلاحم فى شوارع البلدة ومنازلها واستمر القتال إلى الليل . وكعادتهم عندما يعجز الفرنسيون عن قهر مقاومة القرى أشعل الفرنسيون النار فى البلدة وبهذه الوسيلة تغلب الفرنسيون على مقاومة بني عدي واحتلها الفرنسيون . وقدرت المصادر الفرنسية الذين قتلوا فى هذه المعركة من جانب الأهالى بعدد يتراوح ما بين ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ قتيل معظمهم من ضحايا الحريق وبدعوى التفتيش على عناصر المقاومة فى المنازل والبيوت نهب الفرنسيون الودائع والأموال المحفوظة لدى الأهالى .

وكانت بني عدي تتمتع بأهمية خاصة فهى تقع على طريق الواحات وعلى نهاية طريق درب الأربعين الذى يربط مصر بغرب السودان وتجارة وسط أفريقيا وكان ذلك سببا من أسباب غنى أهلها حيث كانت تعمل كمركز توزيع لتجارة تلك المنطقة . وكثيرا ما كان أهلها يقاومون ظلم المماليك وتعدياتهم . ويفهم مما كتبه " الجبرتى " أن أهالي بني عدي كانوا موضع ثقة أهالى المناطق المجاورة وأعيانها وكانوا يضعون عند أهلها ودائعهم وربما كان ذلك نوعا من الائتمان يمارسه أهالى البلدة قبل أن تعرف مصر نظام المصارف الحديثة . أو

---

(١) وصف دينون هذه المعركة تفصيلا فى ٢٣ صفحة : Denon , op - cit , PP. 202 - 216
أيضا عبد الرحمن الشرقاوى ، الجبرتى وكفاح الشعب ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص١٠٢ .

أن ذلك الوضع كان مؤقتا بسبب القلاقل والاضطرابات التى صاحبت الغزو الفرنسى للاقليم واعتقاد الأهالى المجاورين أنه يصعب على الفرنسيين اخضاع البلدة كما يفهم من رواية " الجبرتي " . وحسب هذه الرواية فإن الفرنسيين بدأوا هجومهم باحتلال تل مجاور للقرية ومنه أمطروا القرية بقنابل مدافعهم التى تسببت فى اشتعال أجران القرية ثم أعقب ذلك الهجوم على القرية حيث يقول " الجبرتي " ضمن أحداث عام ١٢١٣هـ " ... وفيها حضر إلى مصر الأكثر من عسكر الفرنسيس والذين كانوا بالجهة القبلية وضربوا فى حال رجوعهم بنى عدى من بلاد الصعيد مشهورة وكانوا أهلها ممتنعين عليهم فى دفع المال والكلف ويرون فى نفسهم الكثرة والقوة والمنعة فخرجوا عليهم وقاتلوهم وأحرقوا جرونهم ثم كبسوا عليهم وأسرفوا فى قتلهم ونهبهم وأخذوا أشياء كثيرة وأموالا عظيمة وودائع جسيمة للغز وغيرهم من مساتير أهل البلاد القبلية لظن منعتهم " (١) .

من هذا العرض يمكن أن نستخلص النتائج الآتية :

١- إن القرية المصرية كانت قد تمرست على الأخطار قبل الغزو الفرنسى وبالتالى فإن أهلها كانوا على استعداد للصدام فى أى وقت كما أن نمط العمران الذى فرضته الظروف على القرية كفل لها قدرا من الصمود فى وجه هجمات الفرنسيين كما حدث فى معركة شباس عمير وكفرها وكذلك فى معركة أبنوب .

٢- إن سقوط السلطة العثمانية جعل الفلاحين وأهالى القرى أمام مسئوليتهم فى الدفاع عن أنفسهم ضد الغزو الفرنسى . خصوصا وأن الفرنسيين قد مارسوا كل عمليات النهب والابتزاز التى كان يمارسها المماليك وبنفس أسلوبهم العنيف وزاد الفرنسيون على ذلك محاولاتهم انتهاك الأعراض وكل ما يؤدى إلى استفزاز الفلاحين .

٣- إن الفلاحين وأهالى القرى نظروا إلى هذه الحرب على أنها حرب مقدسة يتضح ذلك من انضمام عناصر من المغاربة والحجازيين للمقاومة تحت قيادة الجيلانى الذى زعم البعض أنه المهدى المنتظر ونسجت الأساطير حول بطولاته . وقد لعب هؤلاء دورا فى معركة أبنوب . وكذلك بطولة الطفل التى أشرنا إليها والحوار الذى دار بينه وبين ديزيه خير دليل على ذلك .

---

(١) عجائب الآثار ، جـ٣ ، ص٥٨ .

٤- إن هروب بعض عناصر المماليك إلى صعيد مصر وتزعمهم للمقاومة قد شجع الفلاحين على الاصطدام بالفرنسيين وجعل الحرب أقرب إلى حرب العصابات الحديثة وهو أسلوب أرهق الفرنسيين وأقض مضاجعهم .

٥- نتج عن ذلك أن الفرنسيين لم يستطيعوا تأسيس سلطة حقيقية لهم في صعيد مصر وفي الريف خاصة على امتداد صراع استمر من أغسطس ١٧٩٨ وحتى أبريل ١٨٠٠ عندما وقعوا اتفاقية مع مراد .

٦- إن القوة الفرنسية قد تآكلت من جراء الصدام المستمر في ريف مصر ومدنها وشمالها وجنوبها . فلما جاءت الحملة العثمانية الانجليزية في مارس ١٨٠١ لم يكسب الجيش الفرنسي في مواجهتها معركة واحدة واضطر الفرنسيون للجلاء عن مصر .

العمليـات الحربية الأخيـرة للفرنسييـن
فى أقصى جنوب مصر ١٧٩٨ - ١٧٩٩
دور المقاومة الأهلية

الدكتور / محمد عبدالحميد الحناوى
مدرس التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة أسيوط

شهدت مصر من أدناها إلى أقصاها أحداثا جساما خلال فترة الاحتلال الفرنسى إثر نـزول الجيش تحت قيادة "نـابليون بونـابرت" بشـاطىء العجمـى ليلـة أول يوليـو عـام ١٧٩٨م وحتـى خروج هذا الجيش مدحورا بعد ثلاث سنوات وثلاثة أشهر ؛ نتيجة للحروب المتتالية بينه وبين القوات الإنجليزية والعثمانية (التركية) ومقاومـة الشـعب المصـرى الباسلة فـى أنحـاء البـلاد شمالها وجنوبها ؛ مما أدى إلى أن يفقد الفرنسيون ما يقرب من نصف قواتهـم العسـكرية التـى جاءوا بها إلى مصر ، وفشلت بذلك مخططاتهم فى تحقيق حلم إمبراطورية الشرق .

وكانت المقاومة المصرية للحملة الفرنسية قد بدأت مع نـزول قـوات الحملـة فـى العجمـى وأثناء مسير الفرنسيين متجهين من الغرب نحو الإسكندرية لاحتلالهـا ؛ اذ تعرضـوا لهجمـات متتالية من أعراب تلك المنطقة وحتى مشارف أسوار المدينة التى احتلها "نابليون" بقواتـه بعـد لأى بل كاد أن يقتل برصاصة أحد السكندريين داخل شوارع المدينـة التـى رضخـت للمحتـل الأجنبى على مضض .

وجابه الفرنسيون مقاومة أهل الوجه البحـرى والقـاهرة طـوال فـترة الاحتـلال ، واشـتعلت نيران الثورة فى أنحاء متفرقة من البلاد . أقضت مضجع الفرنسيين ، ولسـوف نركـز حديثنـا هنا على مقاومة أهل الوجه القبلى وعلى وجه الخصوص فـى إقليـم أسـوان وكـانت بدايـة هـذه المقاومة بعد فرار مراد بك بقواته من المماليك إلى الجنـوب نتيجـة لهزيمتـه وشـريكه إبراهيم بك فى إدارة البلاد أمام قوات "بونابرت" فى معركة الأهرام (إمبابة) فى ٢١ يوليو ١٧٩٨م. وكان "بونابرت" يعلم مدى قوة المماليك وقدرتهم على إعادة تنظيم قواتهم واسـتعداد الشـعب

المصرى لمساندتهم أمـام قوات الغزو الفرنسـي ؛ ولذلـك فقد أبدى القـائد الفرنسـي استعداده للاتفاق مع أمـراء المماليك رغـم هزيمتـه لهم وقبل دخولـه القـاهرة ، وأوفد لمـراد بـك أحد الوسطاء للتفاوض معه ولكن مراد رفض الاتفاق مع الفرنسيين وآثر الاتجاه نحو الجنوب فـارا بقواته وإعداد العدة لمقاومة طويلة الأمد بمساعدة أهالى الصعيد له ، والواقـع أن جميـع أهـالى جنوب مصر كانوا دائما متأهبين للثورة ضد الغزاة ، متـأثرين بمنشـورات الممـاليك (١) بينهـم والتى تنادى بضرورة الوقوف بجانبهم لدفع الخطر المشترك على البلاد ، واستطاع مـراد بـك أثناء حروبه فى الصعيد الأعلى أن يشكل جيشا كبيرا بلـغ نحـو أربعـة عشر ألف مقـاتل مـن المماليك والمشاه والفرسان المصريين ، ومـن بينهـم نحـو ألفيـن مـن عـرب ينبـع وحـده ببـلاد الحجاز (٢) .

وعهد القائد العام Gereral en Chef بونـابرت" إلـى أحد قواده وهـو الجنرال "ديزيـه" Desaix وهو القائد الثانى فى الحملة بعد "كليبر" أن يتولى أمر مراد بك وقواته ، فقام "ديزيــه" باحتلال المنطقة التى كـان يعسـكر فيهـا مـراد بقواتـه إلـى جـانب الأراضـى الشاسـعة الواقعـة جنوبى الجيزة وأقام الاستحكامات الحربية لعدم عودة مراد للهجوم على القوات الفرنسـية مـرة أخرى (٣) ، ولم يكن مراد قادرا على استئناف المقاومة والقتال إلا بمساندة أهالى الوجه القبلـى وتأييدهم له ؛ بغية القضـاء على الغزاة الأجانب ، ولم يكن يشغل المماليك سوى عـودة نفوذهـم القديم وسيطرتهم على مقاليد الأمور فى البلاد ، أما المصـريون فـإن دفـاعهم عن بلادهـم كـان نابعا من حبهم وارتباطهم بهذه الأرض الطيبة .

وكان على "بونابرت" أن يحاول إخضاع الصعيد فى أسرع وقت ممكن إذ أن وجود قـوات المماليك المعادية له سوف تهدد بلا شك سلطة الحكومة المركزية الفرنسية بالعاصمة القاهرة ، ولسوف تؤدى بلا شك إلـى تعطيـل الملاحـة النيليـة وانقطـاع سبل الأقـوات مـن الصـعيد إلـى القاهرة وخاصة القمح ، وهذا هو ما حدث بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر إذ حدثت أزمة فى توريد الصعيد للقمح للعاصمة مما نتج عنده شح الأقوات بهـا وارتبـاك القيـادة الفرنسية ومحاولاتهـا إيجاد البديل فى تلك الظروف الصعبة التى كانت تواجه الفرنسيين إذ أنهم لم يكونوا قد أحكموا سيطرتهم بعد على أنحاء مصر شمالها وجنوبها (٤) .

على أن "بونابرت" قبل أن يوجه قائده "ديزيه" لمطـاردة مـراد بـك فـى الصعيد سـعى إلـى الاتفاق (٥) مع شيخ البلد المملوكى – مراد – وملخص هذا الاتفاق أن يترك الفرنسـيون لمـراد

إقليم جرجا وما يليه جنوبا حتى الجندل الأول (الشلال) يحكمه بنفسه أو من ينوب عنه بشرط أن يكون تابعا للحكومة الفرنسية ويدفع لها الخراج السنوى الذى سيتقرر بينهما ، وعلى ألا يستبقى مراد معه سوى خمسمائة أو ستمائة من الفرنسان فقط لحماية البلاد الواقعة فى نطاق إقليم جرجا من شلال (جندل) أسوان جنوبا وحتى شمال مدينة جرجا بقليل من هجمات الأعراب (٦) ، ولكن مراد بك رفض الاتفاق مع الفرنسيين معتمدا على مساندة أهالى الوجه القبلى له وتيقنه من إحكام سيطرته على الصعيد وإعادة السيطرة على البلاد ونفوذ المماليك مرة أخرى ، ولكن القائد العام الفرنسى لم يمنحه الوقت للتفكير وإعادة تجميع جنوده إذ بادر بإصدار أمر القيادة العامة بمطاردة مراد وقواته ، والقضاء عليه ، وإخضاع مصر العليا للسيادة الفرنسية ، وكانت قوات "ديزيه" Desaix تتألف من خمسة آلاف فرد (٧) من قوات المشاة والفرسان والمدفعية والمهندسين مدعمين بالذخائر والأسلحة والمدفعية الحديثة إلى جانب السفن الحربية التى رافقت الحملة نحو الجنوب فى نهر النيل بالإضافة إلى عدد كبير من الجمال لحمل مهمات قواته ، وضمت الحملة عددا من المترجمين والأدلاء (٨) ، كما اصطحب المعلم يعقوب القبطى وهو من أبناء الصعيد وهو أدرى بمسالكه ودروبه ليساعد الفرنسيين على إنجاح مهمتهم فى إخضاع هذه البلاد " ويعمل لهم أنواع المكر والخداع ، ويطلعهم على الخبايا ، ويصنع لهم الحيل " ويروى الجبرتى أن يعقوب كان يرسل الجماعة من الإفرنج لقبض الأموال أو المطالبة بالكلف ، فيرتدى الفرنجى " لبس العثمنلى " ، ويكتب لهم التحذير من المخالفة ، ذاكرا لهم التحذير من المخالفة ، ذاكرا لهم أن هذا أمر سلطانى ، فيروج ذلك على كثير من أهل البلاد ويمتثلون للأوامر (٩) .

وتدل عمليات حملة "ديزيه" الحربية على الوجه القبلى والتى سنتعرض لبعض ملامحها الرئيسية خاصة فى أقصى جنوب مصر أن مهمة هذا القائد كانت شاقة إلى أبعد الحدود لأسباب عديدة منها : أن طبيعة مدن وبلدان الصعيد تؤهلها للمقاومة المستمرة لتفرق هذه البلدان وبعد المسافات بين كل مدينة وأخرى ، وصعوبة المواصلات فيما بينها سواء بطريق البر أو بطريق النيل وفروعه الصغيرة ، كما أن طبيعة وأخلاق أهالى الصعيد تأبى الضيم والهوان وهم من سلالة القبائل العربية التى واكبت الفتح العربى الإسلامى لمصر وما يتميزون به من شجاعة ورباطة جأش وعدم الرضوخ للعدو المحتل ، ولهذا فقد واجهت قوات ديزيه حركات مقاومة حربية منظمة إلى أبعد الحدود (١٠) .

ولم يتوان أهل الصعيد فى هذه الظروف الحرجة عن مساندة مراد رغم ظلم المماليك من قبل لهم ، وإمداده بالمؤن والعتاد والأفراد المحاربين بل والاشتراك مع قوات المماليك فى كثير من المعارك التى اصطبغت بالصبغة الأهلية ، مما نتج عنه فى كثير من الأحوال إحراق هذه القرى والمدن بعد انسحاب قوات مراد منها عقابا لأهلها على مشاركتهم فى محاربة الفرنسيين وفضلا عن ذلك فقد وصلت لمراد إمدادات حربية كبيرة من أشراف الحجاز ، وأتباع الشيخ الكيلانى الموجودين فى أسوان وقنا ، ولذلك فقد استمرت عمليات "ديزيه" فى أنحاء الصعيد شماله وجنوبه نحو أربعة عشر شهرا لم يحقق خلالها أى نجاح يذكر أو يتمكن من احتلال أى من مدن الوجه القبلى احتلالا فعليا بل كان عليه أن يقتفى أثر المماليك من مكان لآخر ؛ مما أدى إلى تشتيت قواته وإرهاقها ؛ فانتشرت الأمراض والأوبئة بينها وخاصة مرض الرمد الذى كان منتشرا فى الوجه القبلى للحرارة الشديدة فى فصل الصيف وانتشار الأتربة الضارة فى هذا الجو الحار .

واستغل مراد تلك الظروف – التى كانت بلا شك فى صالحه – منذ أن تعقبه "ديزيه" فى أواخر أغسطس ١٧٩٨م ، وعمد ألا يشترك مع الفرنسيين فى حرب ثابته بل نجح إلى حد كبير فى التعامل مع الفرنسيين من خلال حرب المناوشات وتكبيد الفرنسيين خسائر فادحة فى كل معركة ومغادرة الموقع إلى مكان آخر وهكذا ، معتمدا على مساندة كل أهالى الصعيد له وإمداد قواته بما يلزمها من الأقوات والعتاد على عكس الفرنسيين الذين كانت دائما تعوزهم هذه الإمدادات .

وتمكن "ديزيه" من احتلال المناطق الواقعة جنوب الجيزة حتى بنى سويف التى احتلها بعد مقاومة ، وواصل زحفه نحو المنيا ثم أسيوط ولقيت قواته مقاومة عنيفة فى هذه المناطق أفقدت الفرنسيين أكثر من خمسمائة من القوات ما بين قتيل وجريح (١١) ، ورأى ديزيه قبل التوغل نحو الجنوب الى جرجا وأسوان أن يطلب المدد من القائد العام لأنه كان فى موقف لا يحسد عليه بعد تناقص عدد قواته بصورة رهيبة ، وبالفعل أمر بونابرت الجنرال "بليار" Belliard – قائد منطقة الجيزة حينئذ – بالتوجه نحو الجنوب بقواته لمساندة ديزيه وذلك فى أوائل شهر نوفمبر ١٧٩٨م ، وكان مراد آنذاك يلم شتات جنوده واتفق مع حسن بك الجداوى وعثمان بك وهما من بكوات المماليك ذوى النفوذ بالصعيد على تأييده ضد الخطر المشترك فى نفس الوقت الذى تمكن فيه الجنرال "دافو" Davout قائد فرقة الفرسان تحت قيادة ديزيه من مهاجمة الغنايم جنوبى أسيوط ، ولم تمنعه ثورات الأهالى التى انتشرت ما بين أسيوط

وجرجا من مواصلة الزحف نحو أسوان مع أول شهر فبراير ١٧٩٩م بعد معركة سمهود بقنا التى انهزم فيها مراد فى ٢٢ يناير ١٧٩٩م (١٢) ، ولذلك أصبح الطريق مفتوحا أمام "ديزيه" لبلوغ أسوان بسهولة ويسر بعد مطاردته لفلول المماليك أمامه فى دندرة وطيبة وأرمنت وإسنا وإدفو ثم دراو ، ولم يكن أمام المماليك سوى الانسحاب إلى بلاد النوبة فى أقصى الجنوب وترك أمر الدفاع عن بلاد الصعيد لأبنائه ، فترك "ديزيه" أحد قواده وهو الجنرال "فريان" Friant مع كتيبة من الجنود الفرنسيين لإخضاع منطقة إسنا وواصل بنفسه السير نحو الجنوب ووقف فى مقابلة أسوان على البر الغربى للنيل فى أول فبراير ١٧٩٩م ، ثم اجتاز النيل واحتل المدينة بعد استيلائه على سفن المماليك الراسية فى النهر .

ولما كان مراد قد انسحب مع فلول المماليك إلى ما وراء الجندل الأول (الشلال) وعسكرت قواته فى تلك المنطقة ، فقد أدى ذلك إلى قلق الفرنسيين وعدم تمكنهم من تثبيت أقدامهم بالصعيد ، فاعتزم الجنرال "بليارد" Belliard مطاردة المماليك فى بلاد النوبة وإقامة عدة حصون واستحكامات عسكرية فى أسوان ، وفى خلال اليومين اللذين قضاهما "ديزيه" بأسوان عمل على تنظيم قواته وإعادة ترتيبها ، ثم غادرها نحو إسنا فوصلها فى فبراير عازما على جعلها مقرا لقيادته للصعيد ، وترك بأسوان الجنرال "بليار" (١٣) وفى خلال هذه الأيام عاد المماليك بقيادة عثمان بك حسن لمناوشة الفرنسيين بعد تمركزهم على الشاطىء الشرقى للنيل ما بين أسوان وإسنا بغية قطع طريق المواصلات بين جزئى الجيش الفرنسى فى أسوان بقيادة "بليار" ، وإسنا بقيادة "ديزيه" قائد الحملة ، ولذلك فقد أرسل الجنرال بليار كتيبة من جنده لمحاربة قوات عثمان بك فى دراو شمال أسوان على البر الشرقى للنيل ، وبالفعل هربت هذه القوات المملوكة فى الصحراء وعاد بليار بقواته إلى أسوان لكى يقطع خط الرجعة على فلول المماليك المتمركزين فيما وراء الشلال ويجبرهم على البقاء فى بلاد النوبة ويمنع عنهم الإمدادات والمؤن من بلاد الصعيد الأخرى ولذلك ظلت القوات المملوكية مشتتة فى الصحراء الشرقية القريبة من النيل قرب أبريم والدر وجنوبى أسوان ، ولم تفلح مناوشات المماليك المتفرقة بين الحين والآخر فى التأثير على معنويات الفرنسيين الذين ظلوا يتعقبون المماليك فى بلاد النوبة ويقومون بتخريب مزروعاتها ونهب منازلها والاستيلاء على ما تقع أيديهم عليه فى قراها (١٤) .

على أن أهالى أسوان قد أثبتوا أنهم لا يقلون وطنية عن بنى وطنهم فى مقاومة الحملة الفرنسية ففى السادس من فبراير ١٧٩٩م اتجه الجنرال "بليار" نحو جزيرة الفنتين (فيلة)

على رأس كتيبة مكونة من مائتى جندى على الشاطىء الأيمن للنيل ، وعندما أراد أن يعبر بقواته نهر النيل مستخدما مركب الأهالى قوبل بالرفض الشديد ، ولم يقبل أى مواطن أن يقوم بتسليم مركبه للفرنسيين لاستخدامها ضد أهله وعشيرته ، فعاد أدراجه إلى أسوان مرة أخرى ، وكرر المحاولة مرة ثانية بعد عدة أيام فقوبل بمقاومة عنيفة من النوبيين فى جزيرة فيلة والحساة تحدث عنها في يومياته قائلا (١٥) : " حمل الأهالى أسلحتهم وصاحوا صيحات القتال ، ورأينا النساء ينشدن أناشيد الحرب والهيجاء ويحثون التراب فى وجوهنا ، أما الرجال فأطلقوا الرصاص على رجالنا الذي ركبوا البحر ، وكنت قد أحضرت معى مدفعا لإخضاعهم، فدعوتهم إلى الصلح والسلام فكان جوابهم أنهم لا يقبلون منا كلاما وأنهم لا يهربون أمامنا كما يهرب المماليك ، واستأنفوا إطلاق الرصاص علينا ، فجرح ثلاثة من رجالنا ، ولم يكن لدينا مراكب نصل بها إلى الجزيرة ، وحاولنا أن نتخذ من جذوع النخيل طوقا لنقل الجنود ولكنه غرق فى المياة ، فاضطررنا إلى إرجاء احتلال الجزيرة " . وظلت القوات الفرنسية مرابطة يوم ١٩ فبراير على شاطىء النيل فى مقابلة الجزيرة تمهيدا لجلب بعض ألواح من الخشب من أسوان للعبور عليها .

وفى يوم ٢٠ فبراير وبعد أن تمكن الفرنسيون من عبور النيل أطلق عليهم الأهالى الرصاص ، ولكن نظرا لقوتهم الضئيلة أمام حجم القوات الفرنسية فقد استطاع العدو احتلال الجزيرة ، والجزر الأخرى المجاورة لها والتى اشترك أهلها فى الثورة ضد الفرنسيين الذين جردوا الأهالى من أقواتهم وخاصة التمر ، وقد خسر الأهالى - فى خلال مقاومتهم - ثلاثين مواطنا من القتلى واستولى الفرنسيون منهم على مائتى بندقية ، ومائتى طبنجة وسيف ، إلى جانب كميات كبيرة من التمر واللحم والأقوات (١٦) .

وعلى إثر احتلال تلك الجزر الواقعة جنوبى أسوان اطمأن الفرنسيون إلى تأمين حدود مصر الجنوبية ، وبدأ الجنرال "بليار" فى تحصين أسوان وعزم على إقامة قلعة حربية بها لقطع الطريق على المماليك المتواجدين فى أقصى الجنوب والذين أحبطوا هذا المخطط بهروبهم فى الصحراء الغربية والسير شمالا تجاه أسيوط ، وحاول بليار تعقبهم ولكنه فشل فى ذلك فعاد فى ذلك إلى اسنا فى ٢٨ فبراير حينما علم "ديزيه" أن جماعات من عرب الحجاز عبروا البحر الأحمر لمساعدة المصريين فى كفاحهم ضد الغزاة (١٧) ، وأن عثمان بك حسن وحسن بك الجداوى قد تحركا بقواتهما بالبر الشرقى تجاه إدفو فعهد إلى الجنرال "فريان" باحتلال قنا وقطع الطريق على عرب الحجاز ، كما أوفد الجنرال دافو لمطاردة قوات

الأميرين المملوكيين قبالة إدفو ؛ مما أدى إلى اشتباك الجانبين فى معركة حامية الوطيس بالردسية على البر الشرقى جنوبى إدفو (١٨) . وقتل فيها عددا كبيرا من الجانبين وجرح عثمان بك حسن نفسه ، وانتهت المعركة بانسحاب المماليك إلى الصحراء الشرقية بطريق القصير (١٩) .

وتحرج الموقف بالصعيد من شماله إلى جنوبه ولم يكن فى صالح الفرنسيين الذين ظل نفوذهم مزعزعا نتيجة تفرق قواتهم وانقطاع سبل الاتصال فيما بينها ، ولم يتعد سلطانهم المدن المقيمة بها حامياتهم ، إلى جانب اشتداد روح المقاومة الأهلية ، وأصبح أمام "ديزيه" – الذى اتخذ من إسنا مقرا لقيادته الجنوبية – أن يجابه بقواته المنهكة العرب القادمين من الحجاز عبر القصير ، والمماليك والأهالى الذين أصبح يقع على عاتقهم عبء الدفاع الأكبر ، وانسحبت قوات مراد بك ومحمد بك الألفى إلى الصحراء تاركة أهالى الصعيد يواجهون القوات الفرنسية دون معاونة منهم ، بل إن كثيرا من مماليكهم هربوا وانضموا إلى القوات الفرنسية (٢٠) .

وعلى الرغم من تقلص المقاومة المملوكية إلا أن المقاومة الأهلية أصبحت أقوى تأثيرا وأجدى فعالية بعد اشتعال نيران الثورة فيما بين أسوان جنوبا وأسيوط شمالا واستيلاء الأهالى على السفن الفرنسية المحملة بالذخائر فى النيل أمام نجع البارود قرب قوص ، وانفجار السفينة " ايتاليا " مما أدى إلى إخلاء الجنرال "بليار" لمدينة أسوان فى ٢٤ فبراير لتوجيه قواته نحو الشمال لإخماد الحركات الثورية هناك وشهدت قفط وأبنود معركتين كبدتا الفرنسيين خسائر فادحة فى شهر مارس على الرغم من انتصارهم فى معركة أبنود ، مما اضطر "ديزيه" إلى مغادرة أسيوط للنيل محاولا قطع الطريق على رجال حسن بك الجداوى بالتعاون مع بليار ودارت معركة أخرى بين الفرنسيين وقوات المماليك تساندها الأهالى قرب بئر عنبر جنوبى قوص وقتل عددا كبيرا من القواد الفرنسيين وكاد "ديزيه" نفسه أن يقتل فى هذه المعركة ، وارتد على أثرها حسن بك الجداوى نحو أسوان جنوبا للتمركز بها ، وظل الفرنسيون مشغولين بمحاولات إخماد الثورات الأهلية فى قنا وجرجا وجهينة وبنى عدى وغيرها من مدن الصعيد (٢١) فى المنيا وبنى سويف .

وحاولت قوات حسن بك الجداوى المتمركزة جنوبى الجندل الأول (الشلال) بعد انسحابها إثر موقعة بئر عنبر مناوشة القوات الفرنسية على النيل واقتربت من أسوان حينما آنست من الفرنسيين ضعفا ، وكان "ديزيه" قد كلف أحد ضباطه ويدعى "إيلر" Eppler

بالتمركز فى إسنا ومراقبة تحركات حسن بك الجداوى ومنعه من العودة إلى أسوان ولكن قوات "إيلر" التى تزيد على خمسمائة جندى لم تستطع مجابهة الأمير المملوكى الذى تمكن بالفعل من دخول أسوان والامتناع بها مع جنوده ، ثم واصل سيره شمالا حتى بلغ دراو ، وحاول الكابتن "رينو" Renaud السير من إدفو لملاقاة المماليك ، ونشبت معركة بين الجانبين جنوبى أسوان فى السادس عشر من مايو جرح فيها حسن بك الجداوى جرحا مؤثرا ، كما أصيب عثمان بك حسن وانتهت بهزيمة المماليك ومقتل خمسين وجرح ستين فردا منهم ، على الرغم من مساندة العربان والأهالى لهم ، وانسحب المماليك للمرة الثالثة إلى ما وراء الشلال (الجندل) ، ولم يبق من أمراء المماليك بعد هذه الهزيمة سوى مراد بك بقواته الضعيفة معتصما بالواحة الخارجة ، ولما حاول "ديزيه" مطاردته بالواحات غادرها مخترقا الصحراء الغربية نحو الشمال للانضمام للمهدى الذى قام بثورته هو الآخر ضد الفرنسيين فى البحيرة (٢٢) وعلى الرغم من استخدام الفرنسيين لأسلوب الشدة والبطش بالأهلين لتثبيت دعائم الحكم الفرنسى فى صعيد مصر ، إلا أن الفرنسيين وعلى حد قول "بونابرت" نفسه كانوا دائما محاطين بـ " الأعداء " وهذه البلاد دائما مستعدة لثورة ، وهكذا ظلت قوات "ديزيه" تطارد قواتا لا حصر لها ، لا يكاد ينتصر على أحدها حتى تتجمع وتعود ثانية للقتال مدعمة بأهالى البلاد المتحفزين دائما للثورة . وفى ميدان واسع مترامى الأطراف ، يمتد من الجيزة شمالا إلى أسوان جنوبا ، ومن القصير شرقا إلى الواحات غربا ، دون أن يتمكن الفرنسيون من إخضاع جنوب مصر إخضاعا تاما ، أو تثبيت دعائم السلطة الفرنسية على أرضه ، وأثبت أبناء مصر أنهم أشد مراسا من أى غاز لأرض بلادهم .

الحواشى

(1) Berthier , Memoires du Merechal Berthier campagne d' Egypt , I er pa . Paris , 1827, p. 118 .

(2) De la Jonquiere . L' Expedition d' Egypt , 1798 - 1801 , T . III , Paris , 1899 - 1907 , PP . 526 - 528 .

(3) De la Jonquiere , L' Expedition d' Egypt , I . II , P. 330 .

(٤) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول ، ص ٣٣٧ .

(٥) أرسل "بونابرت" المسيو "روستى" Rosetti قنصل النمسا فى مصر بشروطه عن هذا الاتفاق إلى مراد بك .

(6) Correspondance de Napoleon , Vol . IV Documents NO . 2921 , 2922 .
General Jean - Pierre Doguereau , Journal de L'Expedition d' Egypte, Paris , 1904 , P . 124 .

(٧) يقول نقولا الترك إن عدد قوات "ديزيه" فى حملة الصعيد بلغت أربعة آلاف جندى فقط :
نقولا ترك : مذكرات نقولا ترك ، نشرها وترجمها وعلق عليها جاستون فييت ، القاهرة ، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، ١٩٥٠ ، ص ٣١ .

(٨) ألان مورهيد : النيل الأزرق ، ترجمة نظمى لوقا ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ ، ص ١٥٢ .

(٩) عبد الرحمن الجبرتى : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، تحقيق أحمد زكى عطية وآخران ، القاهرة ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، ١٩٦١ ، ص ٨٩ .

(١٠) عن حركات المقاومة فى الصعيد يمكن الرجوع الى :
DE La Jonquiere , L' Expedition de Egypte , T . IV .
د. جلال يحيى : مصر الحديثة ، ص ٤٠٣ .

(١١) تمكن الجيش الفرنسى من احتلال أسيوط فى ٢٥ ديسمبر ١٧٩٨ والتى كان عدد سكانها حينئذ خمسة عشر ألف نسمة فقط

(12) General Jean - Pierre Doguereau , op - cit , pp. 124 - 125 .
أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث أو نابليون بونابرت فى مصر ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .

(13) Reybaud , Histoire Scientifque et militaire de L'Expedition Francaise en Egypte , T . 3 Paris , 1836 , PP. 1-50 .

(١٤) د. جلال يحيى : مصر الحديثة ، ص ٤١٣ .

(١٥) عبدالرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول ، ص ٣٦٧ .
De la Jonquiere , op. cit , T . III , p . 546 .

(16) Ibid , p . 547 ; Paton , A.A ; A History of the Egyptian Revolution , Vol . I , London , 1870 , P . 242 .

(١٧) من ينبع وجدة ومكة والمدينة المنورة والطائف وغيرها من عرب شبه الجزيرة العربية الذين نزلوا بالقصير لمساندة إخوانهم عرب صعيد مصر :
انظر نقولا ترك : مصدر سابق ، ص ٣٢ - ٣٣ .
عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(١٨) د. جلال يحيى ، المرجع السابق ، ص ٤١٤ .

(19) Dogyereau , op . cit , p . 125 .

(٢٠) د عبد العظيم رمضان : الغزوة الاستعمارية للعالم العربي وحركات المقاومة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥ ، ص ٥٦ .. Reybaud , op . cit , pp 35 et suiv

(٢١) عبدالرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، الجزء الثاني ، أحداث شهر ذي القعدة ١٢١٣ هـ .

ج كريستفور هيرلد : بونابرت في مصر (مترجم) ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦ ، ص ص ٢٦٥ – ٢٦٨ .

(22) Reybaud ; op . cit , P . 102 ; Berthier ; Memoires , op - cit , pp. 146 - 147 .

عن الفترة الأخيرة من حروب ديزيه ومراد بك في الصعيد يمكن الاطلاع على :

Journal de l' Expedition d' Egypte , Paris, 1904 , pp . 292 et Suiv .

عن ثورة المهدى واتصال مراد بك بها أنظر : محمد الحناوى ، الاسكندرية في عصر الحملة الفرنسية ، رسالة ماجستير لم تنشر ، المنيا ، ١٩٨٥ .

المصادر والمراجع

أولا : باللغة العربيـــة :

١- أحمد حافظ عوض : فتح مصر الحديث ، أو نابليون بونابرت في مصر ، القاهرة ، ١٩٢٥ م .

٢- آلان مورهيد : النيل الأزرق ، ترجمة نظمى لوقا ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ م .

٣- ج . كريستوفر هيرولد : بونابرت في مصر (مترجم) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ م .

٤- جلال يحيى (دكتور) : مصر الحديثة ، الاسكندرية ، دار المعارف ، د . ت .

٥- سعاد ماهر محمد (دكتور) : مدينة أسوان في العصر الإسلامي ، القاهرة ، دار الشعب ، ١٩٧٧ م .

٦- عبدالرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، الجزء الثاني ، بيروت ، دار الجيل ، ط ٢ ، ١٩٧٨ م .

٧- ———————— : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس ، تحقيق أحمد زكي عطية وآخران ، القاهرة ، الهيئة العامة لشئون المطابع ١٩٦١ م .

٨- عبدالرحمن الرافعى : تاريخ الحركـة القوميـة ، الجزء الأول ، القـاهرة ، دار المعـارف ، ١٩٨٧ م .

٩- عبد العظيم رمضان (دكتور) : الغزوة الاستعمارية للعالم العربـى وحركـات المقاومـة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٥ م .

١٠- محمد الحناوى : الاسكندرية فى عهد الحملة الفرنسية رسالة ماجستير لم تنشر ، المنيا ، ١٩٨٥ م .

١١-نقـولا تـرك : مذكـرات نقـولا تـرك ، نشـرها وترجمهـا وعلـق عليهـا جاسـتون فييـت ، القاهرة، مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، ١٩٥٠ م .

ثانيا : باللغة الأجنبية :

1- Berthier ; Memoire du marechal berthier Campagne d ' Egypte, 1 er pa . paris , 1827 .

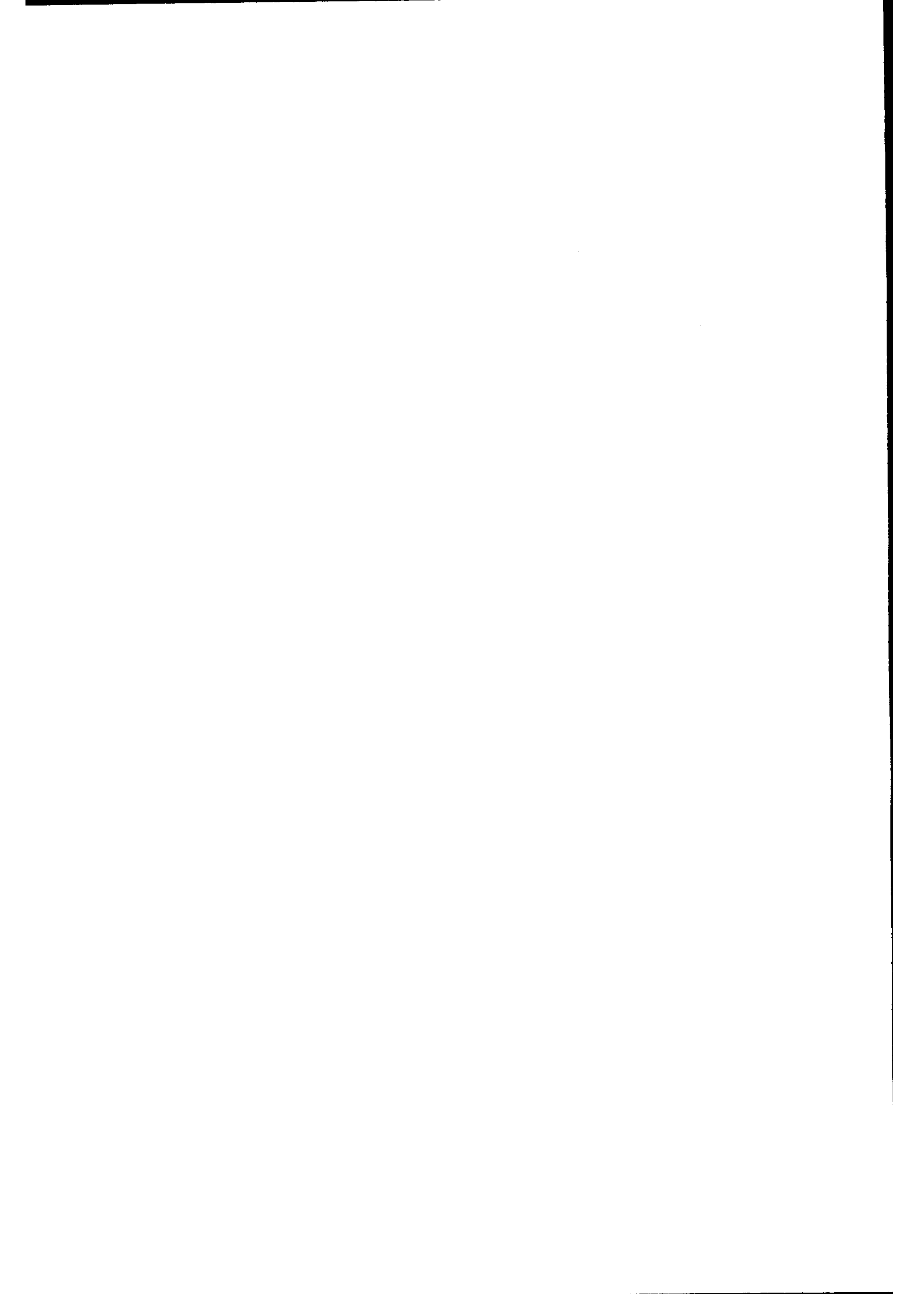
2- Correspondance de Napleon , Vol . 4 , Decuments , No . 2921 , 2922 .

3- De la Jonquiere ., L' Expedition d' Egypte , 1899 , T . 2 , 3 , 4 .

4- Jean - Pierre Doguereau (general) , Journal de L' Expedition d' Egypte , Paris , 1904 .

5- Paton ; A . A ; A History of the Egyptian Revolution , vol . 1 , London , 1970.

6- Reybaud ; Histoire Scientifique et militaire de L' Expedition Francaise en Egypte , Paris , 1836 .



دور الضباط الأمريكيين فى الحملة المصرية الحبشية (١٨٧٥ - ١٨٧٦) وخروجهم من الجيش المصرى

أ.د/ محمود حلمى مصطفى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب - جامعة المنيا

ترجع أسباب الحملة المصرية الحبشية المعروفة باسم حملة راتب فى أصولها إلى الوقت الذى انتهج فيه إسماعيل سياسة التوسع بقصد القضاء على تجارة الرقيق فى ممتلكاته الإفريقية ودعم سلطة الحكومة فى تلك البقاع وبسط نفوذه على البلاد التى كانت موطنا لهذه التجارة غير المشروعة في النيل الأبيض وأعالى النيل ودارفور وبوغوص وساحل الصومال وهرر وعلى هذا الأساس فقد استرشد فى سياسته هذه بامتلاك مصوع وسواكن وتثبيت حقوق سيادته فيها وعلى كل المنطقة القريبة من باب المندب وسارت سياسته هذه قدما بضم إقليم بوغوص الواقع بين تاكا ومصوع وذلك بعد أن كان الأحباش قد اتخذوها منذ عهد محمد علي قاعدة للنهب والسلب والاعتداء (١) على الأراضى الإقليمية المصرية وصارت هذه قاعدة للاعتداء المستمر من جانب الأحباش ومن ثم صار غزو " بوغوص " وضمها للأملاك المصرية لا مندوحة عنه لوضع حد لتلك الاعتداءات ولحماية الحدود المصرية (٢) ثم توجت سياسته فى هذا المضمار بالحصول على ميناء زيلع من الباب العالى على الساحل الصومالى لقاء دفع مبلغ ١٥٠٠٠ جنيه سنويا (٣) وكان الاستيلاء على زيلع -على حد قول مستر بيرزلى قنصل عام الولايات المتحدة فى مصر- أمرا بالغ الأهمية ؛ لأنه يضع كل ساحل البحر الأحمر تحت السيادة المصرية (٤) حيث إنها تواجه عدن ومن المعروف أن الولايات المتحدة كانت تحتكر تجارة البن فى البحر الأحمر فى ذلك الوقت وعلى هذا فقد كانت هذه ترقب التوسع المصرى

---

(١) From Beardsley to fish : No (19) (16-10-1872) Vol 6 P
Abdin Corresp . Fran . 9- If 20899 . Mossowa (15-9-1872)
Munzinger a` Khairi Pacha .

(٢) Borelle : 0 : choses Politiques d' Egypte (1883 - 1895) Paris 1895 . P 414 .

(٣) Bolli : OP . Cit . P 414 .

(٤) From Beardslry to fish . no (337) (17-7-1876) vol 10 P 145.

على ساحل البحر الأحمر باهتمام بالغ بدافع من مصالحها المتزايدة فى عرض ذلك البحر ثم حدث بعدئذ أن استولت القوات المصرية بقيادة رؤوف باشا على هرر (١) .

وكان من نتائج هذه السياسة التوسعية من جانب الخديوى إثارة مخاوف الأحباش (٢) رغم بذل الجهود الصادقة فى سبيل المحافظة على العلاقات الودية بين مصر والحبشة . ومبعث هذا الخوف أن الحبشة صارت مطوقة بالأملاك المصرية من كل جهاتها تقريبا ومن ثم أخذت تستشعر منذ احتلال مصر لإقليم بوغوص على وجه الخصوص أن هذا الاستيلاء على ذلك الإقليم إنما هو بمثابة تهديد لها باجتياحها واعتبرته اعتداء على أملاكها وترتب على ذلك أن تدهورت العلاقات السياسية بين البلدين تدهورا سريعا منذ أن تتاخمت الحدود بين مصر والحبشة .

ولم تكن مسألة امتلاك بوغوص فى حقيقة الأمر وواقعه إلا ذريعة وتكأة اتخذتها الحبشة لتحقيق أطماعها القديمة التى تهدف إلى امتلاك مصوع أو أمفيلا (٣) . وتلك رغبة كانت تجيش فى صدر الحبشة منذ أيام تيودور كاسا ، الذى أخذ يهدد بغزو السودان وتحويل مجرى النيل للإضرار بمصر وإخضاعها لسيطرته حتى يحقق أطماعه والاستيلاء على سواكن ومصوع ميناءى السودان وباقى ساحل البحر الأحمر على اعتبار أن هذه الأراضى كانت تابعة للحبشة وذلك لكى يتسنى له شق طريق إلى البحر المنفذ الطبيعى للحبشة (٤) وذلك لأنه لم يكن يعترف أبدا بتبعية هذا الساحل للدولة العثمانية ويحدوه اعتقاد راسخ بأن بلاده تصل إلى ساحل البحر الأحمر (٥) .

---

(١) From Beardslry to fish . no (338) (26-11-1875) vol 11 P 55.

(٢) From Beardslry to fish . no (364) (29-9-1875) vol 11 P 29.

(٣) دفتر ٤٠٨ صدر ديوان المعيه وثيقة رقم ٤٠٦ فى ١٧ جمادى سنة ١٢٦٣ (٣يونيه سنة ١٨٤٧) .

(٤) C. R. A. Enclosure in No (229) . (25-6-1855) P 149 .

C. R. A. No (236) Bruce to Clarendon (17-2-1856) .

C. R. A. No (229) .

من تقرير واكر القائم بعمل نائب القنصل الإنجليزى فى مصوع عن تجارة الحبشة سنة ١٨٦٣ – دكتورشكرى : مصر والسودان ص٨٣ .

(٥) Beke . C.T : The British Capives in Abyssinia P 242 - De Rivoyre : Mer Rouge et abyssine P 114 .

رأت الحبشة -إذن- تحقيق أطماعها القديمة بعد أن صار أمر اتصالها بالعالم الخارجى يتم عن طريق السلطات المهيمنة على هذه الموانى وذلك منذ أن وضعت الدولة العثمانية يدها على سواكن ومصوع وفرضت نفوذها على كل الساحل فخضعت بذلك تجارتها -أي الحبشة- من صادرات وواردات للرسوم الجمركية التى يفرضها الباب العالى أو من يمثله فى حكم الساحل ولم تكن البضائع أو السلع هى كل ما يمر بمصوع أو سواكن بل كذلك الحجاج الأحباش الكثيرون الذاهبون إلى القدس والقادمون منها إلى جانب الكثرة الغالبة من الرحالة الأوربيين المبشرين بالمذاهب المسيحية المختلفة .

ونشدت الحبشة مؤازرة الدول الأوربية لها فى مسعاها هذا ومعاونتها فى الحصول على ميناء على ساحل البحر الأحمر عن طريق التوسط لدى الدولة العثمانية منتهزة فرصة تعيين مستر بلودن Blowden قنصلا لانجلترا فى مصوع وكان هذا من أشد المتحمسين لثيودور والمؤيدين لدعواه (١) ويشاطره فى ذلك لورد كلارندون Clarendon وزير خارجية انجلترا ويهدفان من وراء مؤازرة ثيودور ورعاية مصالح انجلترا وإبرام اتفاق تجارى معه وتبادل السفارات وإقامة القنصليات بين انجلترا والحبشة (٢) ويتوج كل ذلك قيام ثيودور بتعيين حاكم أوربى لميناء مصوع بطبيعة الحال يكون هذا الحاكم انجليزيا لأن انجلترا هى الدولة التى قدمت له يد العون ولا أقل - وذلك على حد اعتقادها -- من الاعتراف بهذا الجميل . كما لا يخفى أيضا ما يترتب على هذا التعيين من إلغاء الضرائب على البضائع الإنجليزية واستتباب الأمن على الحدود الأمر الذى لا يمكن أن يتوفر إلا إذا تنحت الدولة العثمانية عن تلك الممتلكات التى تحتلها بساحل البحر الأحمر وأن هذا الساحل -على حسب اعتقادها- سيظل ميدانا للغارات المتبادلة مع الأحباش وهذا ليس فى صالح انجلترا التى تسعى لإبرام اتفاق تجارى مع الحبشة فى وقت كانت تجارة انجلترا مزدهرة ورائجة فى عرض البحر الأحمر لاسيما التجارة الوافدة من زنزبار وغيرها من الأقاليم الإفريقية (٣) وأضحت المراكب

---

(١) Roger Acton : The Abysinia Expedition and the Life and reign of King Theodore P. 15 .

(٢) C.R.A. No (177) P 94 - From Bmpwden to Clarendon (10-7-1854) - roger : OP ; cit P. 15 .

(٣) C.R.A. Enclosure in No (227) P 149 (25-6-1855) - Hotten . J.C: Abyssinia and Its people or life in the land of Prester John. P 240 .

الإنجليزية والأمريكية ترتاد مياه هذا البحر منذ وقت مبكر حاملة الرقيق من تلك البقاع (١) وإلى جانب ذلك كله مسعاها لتأمين طريق التجارة إلى الهند عبر مصر وفى عرض البحر الأحمر بعد أن توصلت إلى إقناع الوالى لمد خط حديد (القاهرة - السويس) ولكل هذا فقد طلبت انجلترا من مستر ستراتفوردى رد كليف سفيرها فى القسطنطينية بأن يعرض على الباب العالى موضوع تنازله عن مصوع لثيودور الثانى حتى يصبح للحبشة ميناء على الساحل ويتسنى عقد اتفاق تجارى مع الحبشة (٢) .

غير أن سياسة انجلترا هذه إزاء تأييد ثيودور الثانى قد اعتراها تغير ظاهر إثر تولى لورد راسل Russel منصب وزير الخارجية خلفا للورد كلارندون حيث آثر سياسة عدم التدخل فى هذا الموضوع وعلى هذا الأساس كلف مستر بلودون بترك الحبشة والعودة إلى مقر وظيفته بمصوع (يناير سنة ١٨٦٠) (٣) وكان سبب هذا التغيير توجسها خيفة من نجاح فرنسا فى السيطرة على منفذ على البحر الأحمر عن طريق الاتفاق مع ثيودور فى وقت كانت قد ظفرت فيه بتنفيذ مشروع قناة السويس ومما أيد هذا الاعتقاد لدى الدوائر السياسية الإنجليزية قيام فرنسا بتعيين مسيو ليجيان قنصلا لدى الحبشة وتكليفه بالعمل على تنفيذ هذه السياسة (٤) .

وعندما أدركت الحبشة عدم جدية انجلترا فى مؤازرتها ولت وجهها شطر فرنسا وذلك بعد أن كان مسيو ليجيان قد نجح فى لفت نظر " ثيودور " إلى التقرب إلى فرنسا وبادر هذا بإيفاد مبعوث إلى نابليون الثالث يطلب منه مؤازرة فرنسا له ضد مصر فى السودان والسعى لدى الباب العالى للحصول على جزء من ساحل البحر الأحمر يشمل زولا ومصوع ولكن عاد المبعوث بخفى حنين ؛ وذلك لأن فرنسا كانت فى هذا الوقت جد حريصة على إنجاز مشروع قناة السويس فهى وإن كانت فى بادىء الأمر لم تؤيد المشروع بصفة رسمية إلا أنها تشجعه وتعطف عليه لما فيه من مصلحة كبيرة لفرنسا وعلى هذا الأساس رأت عدم إثارة عراقيل فى سبيل تنفيذه ولم يسع الإمبراطور الفرنسى الذى كانت تربطه بمصر روابط صداقة متينة إلا

---

(١) Elton Frederic : Thavels and Researches Among The Lapes and Mountains of Eastern and Central Africa (1879) P. 3 .

(٢) C.R.A. No 228 P. 154 From Clarendon to Blowden (27-11-1855) .

(٣) Roger : OP Cit P 15- C.R.A. No (403) P 192 - From Russel to Blowden (181860)

(٤) C.R.A. Enclosure 2 in No 34 P 213 - (8-1-1863) A Report by Beke .

إبـلاغ ثيـودور الكـف عـن القيـام بـالصدام والاحتكــاك بـالقوى المحيطــة بــه وحمايــة الإرساليات الكاثوليكية (١) .

ويتكشف من كل هذا أن الحبشة كـانت تسـعى دون جـدوى لتأمين مواصلاتها واتصالها بالعالم الخارجى عن طريق الحصول على ميناء على ساحل البحر الأحمر وسارت الأمور تترى والحوادث تباعا حتى ما لبث ثيودور أن جلب على نفسه عداء انجلترا حتى كان القضاء عليه (١٨٦٨) إبان حملتها ولم تلبث الحبشة أن صارت مسرحا للمنازعات الداخلية والحروب التى قامت بين الطامعين فى العرش وذلك ابتداء من (١٨٦٨-١٨٧٤) إلى أن تمكن يوحنا الرابع من ارتقاء العرش ومن ثم أخـذت الحبشـة تطـالب من جديد بـالحصول علىمنفذ على ساحل البحر الأحمر (٢) وظل يوحنا يردد مسألة اغتصـاب مصـر لميناءى " زولا وأمفيلا " وفرض القيود المشددة على تجارته المارة بمصوع وأنه أصبح محاصرا من المصريين الذين استولوا على كل الموانى وحرمـوه من الاتصـال الخـارجى (٣) وذلك علـى الرغم من تفنيد مزاعمه وادعاءاته فى هذا الساحل وعلى الرغم من إبداء مصر رغبتها فى الاتفـاق معه علـى تسهيل مرور التجارة الحبشية إلى الساحل وفق شروط مرضية (٤) والعيـش فـى وئـام وسـلام مع الحبشة وأنها لا تبغى إطلاقا سوى إقامة العلاقات الوديـة مـع جيرانـها وخاصـة الأحبـاش التى تكن لهم كل ود واحترام لحقوقهم كاملة (٥) .

وكان من الطبيعى عندما تعددت حوادث الاعتداء على الحدود بين البلدين حتى صـارت على حد قول محافظ مصوع لا يمكن الصبر عليهـا (٦) والتجـاء يوحنـا إلـى فـرض ضريبـة مضاعفة على التجار الذين يريدون إرسال بضائعهم إلى مصوع (٧) كان من الطبيعى بعـد أن تفاقمت الحال على تلك الصورة وذلك نتيجة طبيعية بعد أن تتاخمت الحـدود وصـارت القبـائل

---

(١) Douin : OP. Cit . T.I. PP. 121-122 .

(٢) Loring : OP. Cit. P. 289 .

(٣) De Cosson : The Craddle of the Blue Nile Vo. II. P. 42 .

(٤) Shukry : Op. Cit. P. 261-262 - Douin T. II. P. 379 .

(٥) Douin : Op. Cit. T. II. PP. 416 - 417 - Shukry Op. Cit. 263 - Do Cosson Op. Cit ; Vol. II. P. 40 .

(٦) دفتر ٣٣ عابدين وارد تلغرافات صورة التلغراف العربى بالشفرة رقم ٢٩٦ ص٤٠ فى ٢١ شعبان سنة ١٢٩٢ من محافظ مصوع إلى خيرى باشا .

(٧) دفتر ٣٣ عابدين وارد تلغرافات صورة التلغراف العربى بالشفرة رقم ٩٧ ص١٦ فى ١٩ شعبان سنة ١٢٩٢ من محافظ مصوع إلى خيرى باشا .

النازحة بتلك الجهات دائمة التنقل وكانت هذه كثيرا ما تقوم بالاعتداء على جيرانها ومما عاون على ذلك أيضا أن الأحوال الداخلية بالحبشة ذاتها لم تكن مستقرة حتى تستطيع الحكومة المركزية وضع حد لتلك الاضطرابات وكان مظهر هذا القلق الذى ساد على الحدود التجاء كثير من زعماء الحبشة إلى مصر مطالبين معاونتها وتعضيدها ضد بعضهم بعضا وكان من بين تلك العوامل التى أدت إلى زيادة حدة التوتر على الحدود موقف سارزك (١) (وكيل قنصل فرنسا) العدائى من مصر وانتقاده لسياسة الحكومة المصرية وايغار صدر يوحنا ضد مصر وبذل الوعد له بمعاونة فرنسا له ضد مصر (٢) مفضلا المهمة الأساسية التى عين من أجلها وما تفرضه عليه من تبعات تتعلق برعاية مصالح الإرسالية الكاثوليكية فحسب وكان من نتائج هذا الموقف العدائى أن تشجع الأحباش واعتدوا على الحدود الحبشية المصرية (يناير سنة ١٨٧٣) كما رفض الملك يوحنا عروض الصلح التى تقدم بها منزنجر على لسان فرانز حسن (٣) كما لم يدخر سارزك جهدا فى سبيل الإساءة إلى سمعة الحكومة المصرية على اعتبار أنها تشجع تجارة الرقيق (٤) وتحديه سلطة الحكومة المصرية وإثارة العراقيل فى سبيل ممارسة السلطات المصرية بمصوع وظائفها عندما رفض أن يفض أختام الصناديق المرسلة من ماكماهون McMahonne رئيس جمهورية فرنسا إلى الملك يوحنا فى ٥ أغسطس سنة ١٨٧٣ لمعرفة محتوياتها عندما طلب منه رامز أفندى وكيل الجمرك بمصوع وذلك تنفيذا للقوانين الجمركية السائدة (٥) وإلى جانب ذلك كله تأليبه الأهالى الخاضعين للحكومة المصرية للخروج عليهما ممنيا إياهم بمنحهم الحماية الفرنسية (٦) .

---

(١) لقد تم تعيين سارزك وكيل قنصل فرنسا بدون أخذ رأى مصر حسب العادة المتبعة وعلى هذا فقد كتبت الحكومة المصرية إلى قبوكتخذا بالقسطنطينية تنبئه برفض الحكومة المصرية قبول تعيين سارزك لأنه سيثير الفتن ويعمل على بذر بذور الشقاق فوعد الباب العالى بحل المسألة (دفتر رقم ٤٣ عابدين ترجمة المكاتبة التركية رقم ١٣٩ فى ٣ ربيع أول سنة ١٢٩٢) ؛ من الجناب العالى إلى إبراهام باشا قبوكتخذا – دفتر رقم ٤٣ عابدين ورقة رقم ١١٦ ص٢٦٣ من إبراهام باشا إلى الجناب العالى .

(٢) Douin : Op. Cit. T. II. PP. 425 - 426 - 427 .

(٣) كان قد التحق بخدمة كمرون الذى خلف بلودن كسكرتير له ثم استغنى عنه .

(٤) كان سارزك أغرى عبدالله وكيل منزنجر بمصوع على حماية تجار الرقيق نظير حصوله على جزء من الأرباح وبذلك تتاح له الفرصة – أي سارزك – لستغلال هذا للإساءة إلى سمعة الحكومة المصرية .

(٥) دفتر رقم ١٨٦٤ وارد المعية – صورة المكاتبة العربية رقم ٣١ (٢٢ جمادى الثانية ١٢٩٠ من شرقى السودان ومحافظ البحر الأحمر إلى المعية) .

(٦) دفتر رقم ١٨٦٤ وثيقة رقم ١٢ (٢٩ ربيع أول سنة ١٢٩٠ صورة المكاتبة الواردة من شرقى السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر إلى المعية) .

ولم يتراخ يوحنا عن تهديد أمن الرعايا الخاضعين لمصر وذلك بإيعاز من سارزك الأمر الذى اضطر الحكومة المصرية إلى إعداد حملتين صغيرتين لتأديب يوحنا إحداهما بقيادة الكولونيل ارندروب السويدى ومهمته مهاجمة يوحنا من الشمال والأخرى بقيادة السويسرى منزنجر ليزحف على إقليم العيس بين الحبشة والأملاك المصرية عند تاجورا فى الجنوب ولكن ارندروب هزم فى موقعة جندت (١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٥) فى حين قتل منزنجر فى ١٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥وهو فى طريقه إلى أرض العيس (١) فاضطر الخديوى بتكليف الأمير حسين كامل ناظر الجهادية وستين رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى بمهمة تجهيز الحملة (٢) بعد أن وجدت الحكومة المصرية نفسها مضطرة إلى خوض غمار هذه الحرب مع يوحنا ولم تسفر جهودها فى سبيل تجنبها عن أية فائدة (٣) لإعادة الثقة لدى الأهالى فى الحكومة المصرية ولدى الدول الأوربية فى مقدرة الحكومة المصرية لأن هذه الثقة كانت قد تلاشت لدى هذه الدول بسبب بيع مصر لأسهمها فى قناة السويس (٤) .

وأسندت قيادة الحملة إلى محمد راتب أحد كبار ضباط الجيش المصرى المشهود لهم بالكفاءة والمقدرة الحربية وممن نالوا شهرة واسعة بسبب مساهمته فى أعمال الفتح بالسودان (٥) وعلى أن يكون جنرال لورنج رئيس أركان حرب الحملة . كما ضمت الحملة نفرا من الضباط الأمريكيين من بينهم أميرالاى فيلد Field ودريك وبكباشى لوش Loch

---

(١) دكتور شكرى : مصر والسودان ص١٤٢ .

(٢) يذكر داي أن السلطات المصرية أخذت رأى القائد الروسى فاديف Fadeieff الذى كان يقضى شتاء (١٨٧٥ – ١٨٧٦) فى مصر فى كل ما يتعلق بتجهيز الحملة وثائق نمساوية من ماير إلى وزير خارجية النمسا (١٨٧٦/٣/٢٥) .

(٣) دكتور محمد صبرى : مصر فى أفريقيا الشرقية ص٣٢ .

(٤) Dye : Moslem Egypt and Christian Abyssinia P. 159 .

(٥) كان الرأى السائد إسناد قيادة الحملة إلى لونج على أن يكون داى Dye رئيسا لأركان حرب الحملة ثم استبدل راتب بلورنج بسبب انقسام مستشارى الخديوى فى الرأى إلى فريقين يتزعمه نوبار الأرمنى الجنسية وكان يؤيد اسناد قيادتها إلى ضابط أجنبى من ضباط الجيش وفريق يتزعمه اسماعيل صديق المشهور بالمفتش ويمثل الدم المصرى وشريف يمثل الدم التركى الشركسى وكانا يريان إسناد القيادة لضابط مسلم لأن الحرب إسلامية وقد انتصر الفريق الثانى ولما كان راتب يمثل العنصر التركى الشركسى من أحد أبويه على الأقل علاوة على قرابته لشريف الذى تربطه به رابطة المصاهرة فقد أسند إليه قيادتها على أن يكون لورنج رئيسا لأركان حرب الحملة .

Dye : Op. Cit. PP. 153 - 154 . - Loring : Op. Cit. PP. 329 - 333 .

ولامسون Lamson (١) وبورتر وايرجنس Irgens على أن ينضم إليها بمجرد وصولها إلى مصوع الضباط الباقون على قيد الحياة من حملة أرندروب (٢) .

ولقد تم ترحيل القوات من السويس على دفعات حيث أبحرت الدفعة الأولى في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٧٥ وتتابع بعدئذ وصول القوات المصرية ولم يكد يحل يوم ٦ يناير سنة ١٨٧٦ حتى كانت جميع قوات الحملة قد وصلت إلى مصوع (٣) .

وعلى الرغم من أن تشكيل الحملة كان أفضل تشكيل لحملة سبق إرسالها إلى الحبشة من حيث إمكانياتها من السلاح والعتاد الحربي والسهر على راحة الجند (٤) والتنظيم الدقيق وتنسيق العمل وتوزيعه بين سائر الضباط منذ اللحظة الأولى الذى روعى فيه الاختصاص والمواهب (٥) فقد كانت تفتقر إلى الرجال وذلك إذا أدخلنا فيإعتبارنا العدد الكبير الذى يستطيع يوحنا أن يجمعه إلا أن هذا النقص فى الرجال كان يقلل من حدة خطورته لحملة فى أراضى وعرة المسالك مثل الحبشة وكذلك حداثة الأسلحة التى يمتلكها الجيش المصرى بالنسبة لتلك التى يستعملها جيش الأحباش وإلى جانب ذلك فقد كانت الحملة تفتقر أيضا إلى دواب الحمل والنقل (٦) .

ولعل مما يخفف من حدة هذا النقص الملحوظ فى الدواب الذى افتقرت إليه الحملة وقلة عدد رجالها ما كان يسود الحبشة وقتئذ من انقسامات داخلية حتى أصبحت مسرحا للفوضى السياسية الضاربة أطنابها وكان لهذه آثارها على أهل الحبشة حيث إن الحكام المنشقين على يوحنا والخارجين عليه كانوا يتطلعون إلى الجيش المصرى المهاجم لمساندتهم وتأييدهم لتحقيق مآربهم من حيث الوصول إلى الحكم (٧) إلى جانب هذا فقد كان كثير من الحكام

---

(١) لقد توفى لامسون فى يناير سنة ١٨٧٦ وهو فى طريقه إلى دارفور حيث انتدب . التقرير الرسمى للحملة وضع بمعرفة رجب صديق المعاون ص١-٢ .

(٢) التقرير الرسمى للحملة ص٥ .

(٣) التقرير الرسمى للحملة ص٢٣ - ٢٤ - ٢٥ حوادث يوم الأحد ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٩٢ .

(٤) The Egyptian Campaign P. 8 .

(٥) Dye : Op. Cit. PP. 172 - 173 .

(٦) دفتر ٢٧ صادر تلغرافات - تلغراف تركى رقم ١٦ فى ١٦ ذى الحجة سنة ١٢٩٢ .

Douin : T. III. P. 800 .

(٧) دفتر ٣٤ عابدين وارد تلغرافات : تلغراف ٥٩٦ فى ١٦ ذى القعدة سنة ١٢٩٢ (١٤/١٢ سنة ١٨٧٥) من سردار العساكر المصرية إلى خيرى باشا .

المنشقين يفدون على المعسكر المصرى على رأس وفود من تابعيهم للترحيب بالجيش المصرى (١) وانتهج راتب سياسة قوية لاستغلال هذا المظهر الرائع من الترحيب من جانب الأحباش لجذبهم إلى جانب القوات المصرية ولاستمالتهم وذلك عن طريق تقديم الهدايا وتوزيعها على الشيوخ والحكام ليثير فيهم الحمية والغيرة والحماس ولكى ينضم باقى الحكام والشيوخ بدورهم إلى مصر ولتحقيق هذا الهدف بادر بطلب بعض الخلع والهدايا من سيوف وطرابيش مغربية وشيلان وسروج وصلبان من الفضة وغيرها من الأشياء التى يولع بها الأحباش (٢) وتمشيا مع تلك السياسة الرشيدة أذاع منشورا إلى جميع أهالى الحبشة أوضح فيه أن القصد من دخول الجيش المصرى بلاد الحبشة ليس بقصد الفتح أو التعرض لحقوقها وقوانينها المقررة وإنما القصد إلزام وإجبار كاسا الملك يوحنا لمكوثه فى عين أراضيه واحترام أراضى وحدود مصر ومن يجاوره لبلاده وأن يتعهد فى المستقبل ليس فقط لحفظ الصلح بل يتنازل عن نهب وسلب أموال أهالى مصر وغيرهم . وأن يرخص أيضا للأهالى باتصال التجارة كما أمن فيه الرجال والنساء والأطفال القاطنين فى بيوتهم وأن كل ما يحتاج إليه جنود الجيش المصرى لا يؤخذ منهم إلا بثمن طيب وتعهد أيضا باحترام كافة المساجد والكنائس والهياكل من أى ملة كانت وبدون تمييز (٣) .

وواصلت الحملة سيرها عن طريق قياخور وذلك نزولا على رأى الأغلبية (٤) حتى وصلت إلى سهل قرع ونظرا لأن لورنج لم يكن يعتقد فى جدوى الموقع الذى استقرت به الحملة فقد طلب من القاهرة استحضار المهندس الأمريكى لوكيت Lockett وأحد أعضاء هيئة أركان حرب الجيش المصرى وذلك لأنه يثق فى مقدرته وكفاءته ومن ثم بادر جنرال ستين رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى بإرساله فورا وأقر لوكيت موقع المعسكر الجديد الذى أقام فيه الجيش المصرى غير أنه أشار ببناء طابية حصينة فيه وبدأ الجنود من فورهم فى إنشائها .

---

(١) دفتر رقم ٣٥ وارد تلغرافات : تلغراف رقم ٢٣ فى ٢٩ ذى القعدة سنة ١٢٩٢ (١٢/١٧ سنة ١٨٧٥) من نشأت إلى خيرى .

(٢) دفتر ٣٧ عابدين وارد تلغرافات : تلغراف رقم ١٠ فى ٦ محرم سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦/٢/١) من السردار إلى خيرى .

(٣) المرجع السابق .

(٤) انقسم الرأى حول اختيار أحد الطريقين وهو طريق أسمره وكان يؤيده راتب وطريق قياخور وكان يؤيده لورنج وستون من قبل بالقاهرة . Dye : Op. Cit. PP. 201 - 202 .

وكان داى من ناحية أخرى يرى أن الطابية ليست صالحة من حيث موقعها وبناؤها لحماية ممر قياخور وخطوط تموين الحملة وعدم إمكان اتخاذها مركزا لإمداد الجيش بما يلزمه مستقبلا لودعت الحال إلى تقدم الحملة إلى عدوه وعدم جدواها فى أن تكون نواة معسكر قابل للتوسع هذا فضلا عن عدم ملاءمتها لمواجهة الظروف الجديدة واحتمالات المستقبل التى قد تطرأ نتيجة لاحتلال منطقة الحبشة كلها لو تعذر الالتحام مع يوحنا فترة من الزمن ويذكر داى أن لوكيت قد وافق على موقع الطابية إرضاء لراتب ولورنج دون مراعاة للموقع الصحيح الذى يجب إقامتها فيه (١) .

وهكذا يتكشف لنا مدى تضارب آراء قادة الحملة فى ذلك الوقت الذى كان الملك يحشد الجيوش ويتقدم بجيشه لمهاجمة القوات المصرية بينما كان القواد المصريون وهيئة أركان الحرب من الضباط الأمريكيين يثيرون العراقيل ويضيعون وقتا ثمينا فى مناقشات لا طائل فيها لقد احتكم لونج إلى لوكيت وجاء لوكيت وأقر المكان الذى أقيم فيه المعسكر وأشار ببناء الطابية وهو المهندس المريكى المشهود بكفاءته بشهادة لونج فإذا كان هذا المهندس الأمريكى حقيقة قد أقر مكان إقامة المعسكر وأشار ببناء الطابية مراعاة لخاطر لورنج وخلافه دون مراعاة للمصلحة العامة وتلافى أى خطر أوخسائر تلحق بأفراد الحملة فإن هذه حالة لا شك يرثى لها نظرا لخيبة أمل مصر التى عقدت آمالا كبيرة على خبرة هؤلاء الضباط الأمريكيين وتمرسهم فى فنون الحرب لإسناد هذه الحملة إلى هذا النفر من الضباط .

وثمة حادثة أخرى تكشف مدى إفلاس هؤلاء الضباط من كل خبرة حربية عندما عقد قواد الحملة مجلسا حربيا لمناقشة خطة الحرب (٢) حيث رأى راتب أنه طالما أن القوة التى بقرع غير كافية لعدم تجمع كل القوة بها فمن الأفضل بقاء حاميتها داخل حصونها دون الخروج لملاقاة يوحنا فى السهل لاسيما وأن الاحباش لا قبل لهم على حصار القلاع (٣) .

---

(١) Dye : Op. Cit. P. 252 - 261 .

(٢) Dye : Op. Cit. P. 332 .

(٣) Dye : Op. Cit. PP. 298 - 299 - Shukry : Op. Cit. PP. 268 - 269 .

ولكن لورنج كما هى العادة انبرى برأى مخالف وظهر فيما بعد فساده حيث أنه كان يرى ويؤازره " داى " بطبيعة الحال خروج الجند من القلعة (١) واتباع طريقة الهجوم بدلا من اتباع طريقة الدفاع (٢) ولم يكن راتب مقتنعا بهذا الرأى ولكنه اضطر إلى قبوله نزولا على رأى الاغلبية وحفظا لوحدة الكلمة فى القيادة وتنفيذا لتعليمات السلطات المسئولة فى القاهرة بضرورة العمل بمشورة لورنج (٣) ونظرا لضيق الوقت خصوصا وأن يوحنا كان قد تحرك بقواته صوب قياخور فقرر راتب إخراج الجيش من القلعة لملاقاة الأحباش وليحول بينهم وبين مهاجمة قياخور وكان مبعث اتخاذ هذا القرار ضرورة مواجهة يوحنا بالقوة والقضاء عليه بأسرع ما يمكن لاقتراب فصل الأمطار ولتدهور الأحوال السياسية فى مصر بسبب مسألة " الهرسك " وتوقع حدوث اضطرابات فى أوربا بين الدولة العثمانية وبعض الدول الأوربية وما يترتب على ذلك من آثار على الحالة السياسية الداخلية فى مصر (٤) .

ولقد بدأت القوات المصرية بإطلاق نيران مدفعيتها على الأحباش فقذفت فى قلوبهم الرعب وكادت تحل به الهزيمة ولكنهم صمدوا وتمكنوا لكثرة عددهم من الإحاطة بالجيش المصرى والتغلغل فى صفوفه وبلغت خسائر الجيش المصرى فى معركة قرع هذه جميع جنود الأورط السبع تقريبا بين قتيل وجريح وأسير واستشهد عدد كبير من ضباط الحملة (٥) أما خسائر الأحباش فقد كانت باهظة إذ بلغ عدد قتلاهم وجرحاهم نحو ٣٥٠٠٠ من بينهم ثمانية من وزراء يوحنا (٦) وعلى حد قول الأمير السابق عمر طوسون لولا خفة حركة الجيش لمنى بخسائر أفدح (٧) .

---

(١) محفظة ١٦٠ عابدين ترجمة الوثيقة التركية بتاريخ ١٤ صفر سنة ١٢٩٣ (١٠ مارس ١٨٧٦) من راتب إلى ناظر الجهادية . The Egyptian Campaign P. 9 - Shukry : Op. Cit. P. 269 .

(٢) Loring : Op. Cit. P. 398 .

(٣) Farman : Op. Cit. P. 193 . محفظة ١٦٠ عابدين : ترجمة الوثيقة التركية ١١ صفر سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦/٣/١٠) من راتب إلى ناظر الجهادية .

(٤) دفتر ٢٧ صادر تلغرافات : تلغراف تركى رقم ٤٥٦ فى ١١ صفر سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦/٣/٧) أمر كريم إلى راتب .

(٥) دفتر ٢٩ عابدين وارد تلغرافات – صورة التلغراف العربى بالشفرة ٢ ص١ فى ٥ ربيع أول سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦/٣/٣١) من سردار العساكر المصرية إلى خيرى .

(٦) محفظة ١٦٠ ترجمة البرقية التركية بدون رقم بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦/٣/١٧) .

(٧) مجلة الجيش المصرى العدد ٣٣ ص٣٥٢ مقال للأمير السابق عمر طوسون التقرير الرسمى للحملة ص٦١ حوادث ١١ صفر سنة ١٢٩٣ The Egyp. Camp. P. 14 .

لقد كانت هذه الموقعة حاسمة فى مصير الحملة إذ لم يستطع الأحباش بعدها إحراز أى نصر ولم يفلحوا فى الاستيلاء على الطابية بسبب استماتة الجيش المصرى فى الدفاع عنها وكان يوحنا يتوق لإحراز النصر النهائى بأى ثمن وبأسرع ما يمكن وذلك نظرا لما كان يعانيه جيشه من نقص فى الماء والمؤونة (١) وفشل فشلا ذريعا فى اقتحام الطابية واضطر إلى الفرار تحت وابل من القنابل تاركا وراءه القتلى والجرحى من الأحباش وفقد يوحنا فى تلك الموقعة أكبر وزرائه أما خسائر المصريين فى تلك الموقعة فقد كانت طفيفة .

وتمخضت تلك المعركة عن نتيجة مهمة لها وزنها إذ أسفرت عن صواب رأى راتب قائد عام الحملة والذى كان من مؤداه عدم خروج الجنود المصريين من الطابية والاعتصام بها فى بادىء الأمر لولا معارضة لورنج وهو رئيس أركان حرب الحملة والمسئولة عن تنسيق خطط الدفاع واتخاذ التدابير لإحباط خطط العدو وبما يكفل حماية الجند لا تعريضهم للأخطار فجنرال لورنج حقيقة مارس الحرب عملا فى فلوريدا ضد الهنود الحمر وفى الحرب المكسيكية عام ١٨٤٦ (٢) إلا أن مما لا مراء فيه أن لكل معركة تكتيك حربى خاص واستراتيجية عسكرية تخالف غيرها من المعارك خصوصا وأن الجيش الحبشي كما هو الحال جيش غير منظم يعتمد فى تكتيكه على سرعة الكر والفر ولا تتوفر له مقومات الجيوش الحديثة (٣) التى تضم هيئة أركان حرب وسلاح للمهندسين لتمهيد الطرق ولإقامة الاستحكامات والحصون أو هيئة تشرف على تمويله بل يعتمد على ما تصل إليه يده أثناء زحفه فى طريق تقدمه ولا يعتمد على خطوط مواصلات ووسائل برق منظمة فإذا كان راتب قد رأى الاعتصام بالطابية ورأى لورنج رأيا مخالفا لذلك وإذا كان " داى " قد لاذ بالصمت المطبق ورفض الإدلاء برأيه عندما احتدم الجدل والنقاش بين القائدين بشأن بقاء الجند بالطابية أو عدمه وذلك عندما طلب منه " راتب " الاشتراك فى المناقشة وذلك على حد قوله احتراما لرأى لورنج (٤) فمن باب أولى بعد أن أسفرت النتائج عن خطأ هذا الرأى ألا يستسيغ العقل

---

(١) The Egyptian Campaign P. 12 .

(٢) Farman : Op. Cit. P. 194 .

(٣) محفظة ١٦٠ عابدين من السردار فى غرة صفر سنة ١٢٩٣ (١٨٧٦/٢/٢٧) من راتب إلى خيرى : محمد رفعت : جبر الكسر فى الخلاص من الاس ص٢٤ – ٣٠ – التقرير الرسمى : حوادث يوم الجمعة ٧ صفر . Douin : Op. Cit. T. III. P. 903. The Egyptian Campaign P. 9 .

(٤) Dye : Op. Cit. P. 316 .

قبول ما يرويه فى كتابه " مصر المسلمة والحبشة المسيحية " من أن الاعتصام بالطابية إنما هو بمثابة تحذير للأطفال من النزول إلى الماء طالما أنهم لم يتعلموا السباحة بعد (١) .

وهذا قول تعوزه الدقة فى التعبير ويجانبه الصواب ، فالجيش المصرى له أمجاده ويحق له أن يزهو بمواقف بطولته فى جميع الحروب التى خاض غمارها فى ربوع السودان والشام وبلاد العرب واليونان والمكسيك ذاتها حين أسهمت مصر فى تلك الحرب بارسال أورطة سودانية لمعاونة نابليون الثالث فى إقامة ملكية كاثوليكية (٢) حيث أحرزت انتصارات باهرة ستظل دائما وأبدا صفحات مجد وفخار فى جبين هذا الجيش وليس افتقار الجيش المصرى إلى البسالة والشجاعة وإلى قوة احتمال المشاق أو إلقاء الجنود المصريين سلاحهم عندما التقوا بالأحباش كما يدعى البعض هى سبب هزيمة هذا الجيش الباسل (٣) وما منى به من خسائر فادحة فى موقعة " قرع " بسبب خطأ رأى لورنج وأعوانه من الضباط الأمريكيين وما كان يسود بين رئيس أركان حرب الحملة وقائدها العام من عدم انسجام مرجعه إلى اعتبار هيئة أركان حرب الحملة أنفسهم أصحاب الكفاءة والمقدرة ومن سواهم جهلة تعوزهم الدراية والخبرة (٤) ومما عاون على زيادة حدة عدم الانسجام أيضا بين القائد العام وهيئة أركان حرب الحملة اتهام ضباط هيئة أركان الحرب بميلهم إلى الأهالى المسيحيين أكثر من ميلهم إلى الجنود المصريين ولم ينكر داى أحد مؤرخى هذه الحملة والمشتركين فيها تلك الحقيقة وإن كان قد فسر هذا بأنه هو ولورنج كانا يدافعان عن الأحباش الذين وقع عليهم اعتداء الجنود المصريين وأن هذا الاعتداء قد يدفعهم إلى هجر السوق الذين أقاموه بجوار القلعة التى أقامها المصريون وإلى انتشار روح الكراهية ضد الحملة (٥) على أنه مما يجدر ذكره أن حوادث اعتداء الجنود المصريين على الأحباش كانت قليلة جدا بسبب جشع الأحباش ومغالاتهم فى أسعار الحاجيات (٦) .

---

(١) Dye : Op. Cit.

(٢) راجع الفصل الثالث .

(٣) From : Comanos Vioo Consul to Fish N . 22 (21 - 4 - 1876) Vol. II. P. 161 .

(٤) الياس الأيوبى : المرجع السابق ص٣١ – ٣٢ جـ٢ .

(٥) Dye : Op. Cit. PP. 219 - 274 - 311 .

(٦) دفتر شامل الحرب الحبشية الثانية وضع بمعرفة رجب صديق المعاون : حوادث يوم الاثنين ١٩ محرم سنة ١٢٩٣ والسبت ٢٤ محرم سنة ١٢٩٣ ص٤٧ – ٥٠ .

ولعل هذا الاتهام له نصيب من الصحة وذلك إذا أدخلنا فى اعتبارنا أن رابطة الدين التى تربط هؤلاء الضباط الأمريكيين بالأحباش كان لها وزن كبير فى تصرفاتهم خصوصا وأنه مما يعدم هذا أن قنصل عام الولايات المتحدة فى مصر كان يرسم لحكومته صورة حقيقية عما يجرى من أمور ويوافيها بكافة الانباء التى تروج والتى يحصل عليها منذ حملة منزنجر وارندروب ولابد وأن تلك الأنباء التى كان يبلغها قنصل عام الولايات المتحدة فى مصر لحكومته كان لها صدى لدى هؤلاء الضباط الأمريكيين خصوصا وأن الأذهان والرأى العام العالمي كان معبأ ضد قيام مصر بأية حرب أو غزو لضم الحبشة إلى مصر ففى رسالة مستر " بيرزلى " إلى مستر فيش .Fish وزير خارجية الولايات المتحدة تحمل تاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٢ يذكر أن البرقيات الواردة من مصوع من مصدر موثوق به – وذلك على حد قوله – تذكر أن تحركات القوات المصرية فى الحبشة تتخذ مظهرا خطيرا وأن محاولة إخضاع الحبشة المسيحية لسيطرة مصر المسلمة يثير اعتراضات ومصاعب كبيرة (١) وتلك المصاعب بطبيعة الحال من جانب الدول المسيحية التى ترى المحافظة على استقلال الحبشة أكبر دولة مسيحية فى أفريقيا حيث تجد البعثات التبشيرية حقلا خصبا لمزاولة نشاطها . وفى رسالة أخرى يذكر أنه قابل شريف ووجه انتباهه إلى ما نشر بالصحف الأوربية من أنباء مستقاة من القاهرة من مؤداها أن الاعتقاد السائد فى أوربا أن الخديو يرمى إلى ضم الحبشة إلى مصر وهذا أدى إلى حدوث حالة من الذعر والانزعاج لدى الذين يعطفون على استقلال الحبشة وعلى هذا الأساس فإنه يبادر بإرسال هذه الرسالة لنفى تلك المزاعم على لسان شريف الذى أكد له بأنه ليس فى النية غزو أو ضم الحبشة إلى مصر وذلك لكى يبدد ما عساه أن يحدثه ذيوع تلك الأنباء لدى الشعب الأمريكى من رد فعل عنيف نتيجة انتهاك القوات المصرية لحرمة الأراضى الحبشية (٢) .

ويتوج كل هذا اعتداد لورنج بنفسه باعتبار أنه أحد العاملين مع جنرال سكوت .Scott فى الحرب المكسيكية والمشتركين فى تحطيم أحد أبواب المكسيك (٣) الأمر الذى حدا به إلى اعتبار نفسه الآمر الناهي في تصريف شئون الحملة ولم تجد جهود السلطات المسئولة بالقاهرة نفعا في تصفية الجو بين رئيس أركان حرب الحملة وقائدها العام .

---

(١) From Beardsley to Fish N . 9 (31 - 8 - 1872) Vol. 6 P. 255 - and Its Enclosure .

(٢) From Beardsley to Fish N . 47 (15 - 12 - 1872) Vol. 7 P. 20 .

(٣) Farman : Op. Cit. P. 225 .

وليس أدل على مدى إلقاء مسئولية فشل الحملة على عاتق لورنج مما جاء على لسان محمد رفعت أحد قواد هذه الحملة فى مؤلفه " جبر الكسر فى الخلاص من الأسر " لو أن السبع أورطات أى كامل العساكر التى ساقوها لهذه الغزوة التى خرجت من الاستحكام أقامت بها ولحقها الثلاث أورطات التى كانت فى قياخور لتكون من ذلك قوة عظيمة فى الاستحكام لانهزم جيش العدو شر هزمية ولم يقو على القرب من الاستحكام لوصول مقذوفاتنا إلى النقطة التى أخذها العدو معسكرا ولو كنا اقتصرنا على قذف النيران على العدو من الاستحكام لكان هذا كافيا لكسره وتبديد جموعه ولكن حصول الأمر بخلاف ذلك نشأ عن تفرق الكلمة وتباين الآراء (١) .

ولقد تأكدت هذه الحقيقة بصورة لا يتطرق إليها الشك فى رسالة راتب باشا إلى ناظر الجهادية حيث جاء بها " عندما جاءتنا الأنباء يوم الاثنين ١٠ صفر الجارى أن العدو زحف ميمما وجهه شطر قياخور قال الجنرال لورنج والكولونيل " داى " لنبرز من المتاريس لكى نلاقى العدو وننازله بجانب من الأورط التسع المرابطة فى موقع قرع الذى هو مقرى فأجبتهما بأن خروجنا ومنازلتنا خرقا لقواعد فن الحرب وبينت لهما أننا إن فعلنا هذا فكأنى بالعدو وقد قطع علينا خط مواصلاتنا ولكنهما أصرا وتجبرا قائلين إن جزءا كبيرا من عساكرنا قد وصل إلى قياخور فمهما كان من إسهابى لهما فى بيان أن ما لديهما من القوة العسكرية قليل ضئيل فإنهما لم يتحولا عما أصرا عليه من نيتهما الأولى فحينئذ قلت لهما إن كنتما متمسكين هذا الاستمساك برأيكما .... واضطررت بحكم ضيق الوقت وبمقتضى الإرادة السنية الصادرة بوجوب الاتفاق مع الجنرال لورنج فى كل عمل يتعلق بمقام رياستى ولم يقتنع لورنج وداى بخروج القوة من القلعة والتقدم صوب الناحية الشرقية من الخط الموصل بين عقبة قياخور ومحطة قرع بل صمما على ضرورة تقدم القوة إلى مسافة أكثر حتى وصلت إلى مكان غير صالح وباغتتها قوات العدو وأحدقت بها من كل جانب " ويختتمها بقوله " إن السبب الوحيد فى وقوع هذا القضاء هو لورنج وأركان حربه " (٢) .

---

(١) يذكر محمد رفعت أن الأمير حسن هو الذى أشار بخروج العساكر من الطابية ولكن حقيقة الأمر أن ذلك كان رأى لورنج نفسه .

(٢) محفظة ١٦٠ ترجمة من التركية وبرقية تاريخها ١٤ صفر سنة ١٢٩٣ واردة من سليمان نيازى إلى ناظر الجهادية – محفظة ١٦٠ عابدين ترجمة من التركية من السردار تايخ ورودها ١٥ صفر سنة ١٢٩٣ – وسبب استخدام شفرة نيازى استشهاد كاتبي راتب باشا فى تلك المعركة .

كان تباين الآراء وتفرق الكلمة وإصرار لورنج على إخراج القوات من الطابية وليس سداد رأى راتب فى هذا الموضوع بالذات الذى هدف من ورائه العمل بالآية الكريمة " ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة " [سورة البقرة آية / ١٩٥] خصوصا إذا أدخلنا فى اعتبارنا تفوق جيش يوحنا من حيث العدد وكان لزاما على هيئة أركان حرب الحملة وكلها من الضباط الأمريكيين أو أغلبها على الأقل أن تدرك تماما تكتيك وخطط العدو الذى يواجه الجيش المصرى لأن هذا من صميم عملها ولكن كان للعامل النفسانى لجنرال لورنج أثر كبير فى هذه الخسارة الفادحة التى حدثت فى موقعة قرع وذلك لأنه كان يتوق لأن يتولى قيادة الحملة أسوة بتلك الحملات الاستكشافية العلمية التى أسندت قيادتها إلى أقرانه من الضباط الأمريكيين بهيئة أركان حرب الجيش المصرى أمثال كولستون ويوردى ولوكيت وماسون وكلهم من الضباط الكونفدرائيين وينتمى لورنج نفسه إلى الجيش الكونفدرائى وليس أقل منهم باعا إن لم يكن يفوقهم لأن يتولى قيادة هذه الحملة خصوصا وأن هؤلاء قد استطاعوا إنجاز ما وكل إليهم على خير وجه بفضل تعاون وتفانى الضباط المصريين الذين تفخر بهم البلاد أمثال أحمد حمدى وعامر رشدى وخليل فوزى ويوسف حلمى .

ومن المعروف أن كولستون قد اعتراه المرض أثناء حملاته بسبب مشاق الطريق ووعثاء السفر وأن الذى قام بالعبء الأكبر من هذه الحملات الاستكشافية هذا النفر من الضباط المصريين .

وثمة عامل آخر أدى إلى تلك الكارثة وهو من صميم أعمال هيئة أركان الحرب ومن صميم التكتيك الحربى وتمليه مستلزمات الدفاع وهو إهمال احتلال المرتفعات التى تقع خلف خط الجيش المصرى حتى تعوق التفاف الجيش الحبشى حوله والإحداق به وترتب على هذا الإهمال أن استطاع يوحنا تطويق الجيش المصرى وعندئذ لم يتمكن من الاحتفاظ بمراكزه وفقدت ميسرته السيطرة على مدخل الممر الذى يربط بين قرع وقياخور وبالتالى لم يستطع إنقاذ الجناح الأيمن وكانت النتيجة أن معظم الجنود المصريين الذين نزلوا ساحة القتال قتلوا أو أسروا (١) ولكن استطاعت القوة الباقية بالطابية تحقيق كثير من أغراض الحامية إذ استطاعت إنزال الهزيمة بيوحنا وإجباره على طلب الهدنة والدخول فى مفاوضات الصلح (٢)

---

(١) Dye : Op. Cit. PP. 416 - 417 .

(٢) التقرير الرسمى للحملة ص٥٧ (حوادث يوم ٥ صفر سنة ١٢٩٣) .

وظلت الجيوش المصرية محتفظة بمراكزها التي احتلتها فيإقليم نيجرى بشمال الحبشة بعد أن تم انسحاب يوحنا بجيوشه صوب عاصمته عدوه (١) .

ومما يجدر ذكره أن هناك ثمة عوامل أخرى ساهمت إلى حد كبير في تلك الهزيمة أو عدم نجاح الحملة في تحقيق كل أغراضها نذكر من بينها أن الحملة لم يكن لديها الخرائط الدقيقة عن حقيقة طبيعة الطرق المؤدية إلى داخل بلاد الحبشة خصوصا وأن اسماعيل كان قد عهد إلى كولونيل لوكيت .Lockett بمهمة القيام بعمل مساحة طبوغرافية دقيقة للبلاد التي سيجتازها الجيش المصري ولكنه لم يستطع اتمام مهمته بسبب بدء العمليات الحربية في الحبشة (٢) ولا يخفى أهمية دراسة تلك الطرق والمسالك قبل بدء العمليات الحربية في بلاد وعرة المسالك مثل الحبشة .

وثمة نقص آخر بدا واضحا في تنظيم الحملة وهو مسألة الاتصال البرقي السريع بين قيادة الجيش وبين المراكز التي يتخذها الجيش ركيزة أثناء زحفه وتقدمه وذلك ليتسنى توصيل الأوامر بسرعة إلى ضباط الحملة وجنودها إذ أن الضرورة الحربية تحتم مد مثل هذا الخط البرقي بين مصوع وقرع غير أن هذا الخط لم يتم منه غير جزء يسير وبسيط وهو الممتد بين مصوع وبعرزه وعلى هذا فقد كانت الأخبار والمراسلات الرسمية تنقل بين مصوع وبعرزه ببطء . وليس من شك في أن عدم إتمام هذا الخط البرقي كان له أثره البالغ في تأخير تبليغ الأوامر وما يترتب على ذلك من تأخير تركيز القوات والمؤنة في قرع (٣) .

وإذا كان لورنج بوصفه رئيس أركان حرب الحملة مسئولا إلى حد كبير عن فشل هذه الحملة فإن هذا لا ينفي أن راتبا مسئول أيضا بوصفه قائدا عاما للحملة على أنه ليس من ثمة خطأ ينسب حسبما تكشف عنه الوثائق وأقوال المعاصرين ممن أرخوا للحملة سوى أنه تراخى في تنفيذ الخطة التي اقترحها الضباط الأمريكيون أنفسهم وأن هذا التراخي قد تسبب عنه ما نتج من حوادث ٧ مارس سنة ١٨٧٦ مع أن سير مجرى الحوادث أسفر عن أن التحصن في القلعة والاحتماء بها كان أفضل من الخروج إلى السهل إذا استطاعت قوة صغيرة من الجيش المصري مزودة ببعض المدافع القوية اجبار جيشا حبشيا كبيرا على الفرار دون أن يذهب

---

(١) The Egyptian Campaign P. II - Shukry : Op. Cit. P. 267 .

(٢) Crabites : Op. Cit. P. 197 .

(٣) Dye : Op. Cit. P. 410 .

ليهاجم مركز قياخور أو غيره من المراكز غير أن هذا لا يبرىء نفرا آخلا من الضباط المصريين يعتبر مسئولا عن تلك الهزيمة ونعنى به عثمان رفقى الذى تراخى عن التقدم من قياخور لمساعدة قوة قرع أثناء اشتباك الجيش المصرى مع الأحباش أو تصويب نيران مدفعيته البعيدة المدى من قياخور على مؤخرة الجيش الحبشى بل ترك حامية قرع تتحمل وحدها عبء القتال ضد جيش يوحنا (١) .

وعلى هذا فإن هيئة أركان حرب الحملة من الأمريكيين كانت مسئولة إلى حد كبير عن فشل هذه الحملة إذ أنها قصرت تقصيرا كبيرا ولم تقم بأداء واجبها على خير وجه بما يتفق مع خبرة أناس مارسوا الحرب عملا وهكذا ثبت بصورة قاطعة إفلاس الضباط الأمريكيين من أى خبرة عسكرية أو تكتيك حربى فى أول موقعة عملية أسندت إليهم وعندما تكشف للمسئولين هذا التقصير لم يجدوا مفرا سوى التخلص منهم بالتدريج عندما حانت لها الفرصة إثر الارتباك المالى مستغنية عن خدماتهم ولم يبق منهم سوى جنرال ستون وضابط آخر (٢) ، لاسيما وأن هذه الحملة كبدت الحكومة المصرية أموالا طائلة بلغت مليونا من الجنيهات (٣) علاوة على مبلغ مليون جنيه آخر لم تفصح عنه السجلات فكانت على حد قول مستر فارمان قنصل عام الولايات المتحدة الذى عاصر تلك الحملة " القشة التى قصمت ظهر البعير " (٤) وأسهمت فى زيادة الأعباء المالية والارتباك المالى مما جعل البلاد تعجز عن الوفاء بديونها وأدى هذا بدوره إلى التدخل الأجنبى فى شئون مصر الداخلية وأفضى فى النهاية إلى خلع اسماعيل نفسه (٥) .

ولقد ظل سنينا يشغل منصبه حتى تم الاحتلال البريطانى للبلاد وأقصى هو الآخر إثر حل الجيش المصرى .

---

(١) Dye : Op. Cit. P. 483 .

(٢) Ibid. P. 382 - 383 - National Archives: Microfilm Pyblications From Ebarts to Farman N . 245 (3 - 7 - 1878) .

(٣) Blue Book . Report by Cave on the Financial Condition of Eg . presented to the House of Parliament . by Cave . London (3 - 3 - 1876) - Mc Coan : Egypt as It Is P. 137 .

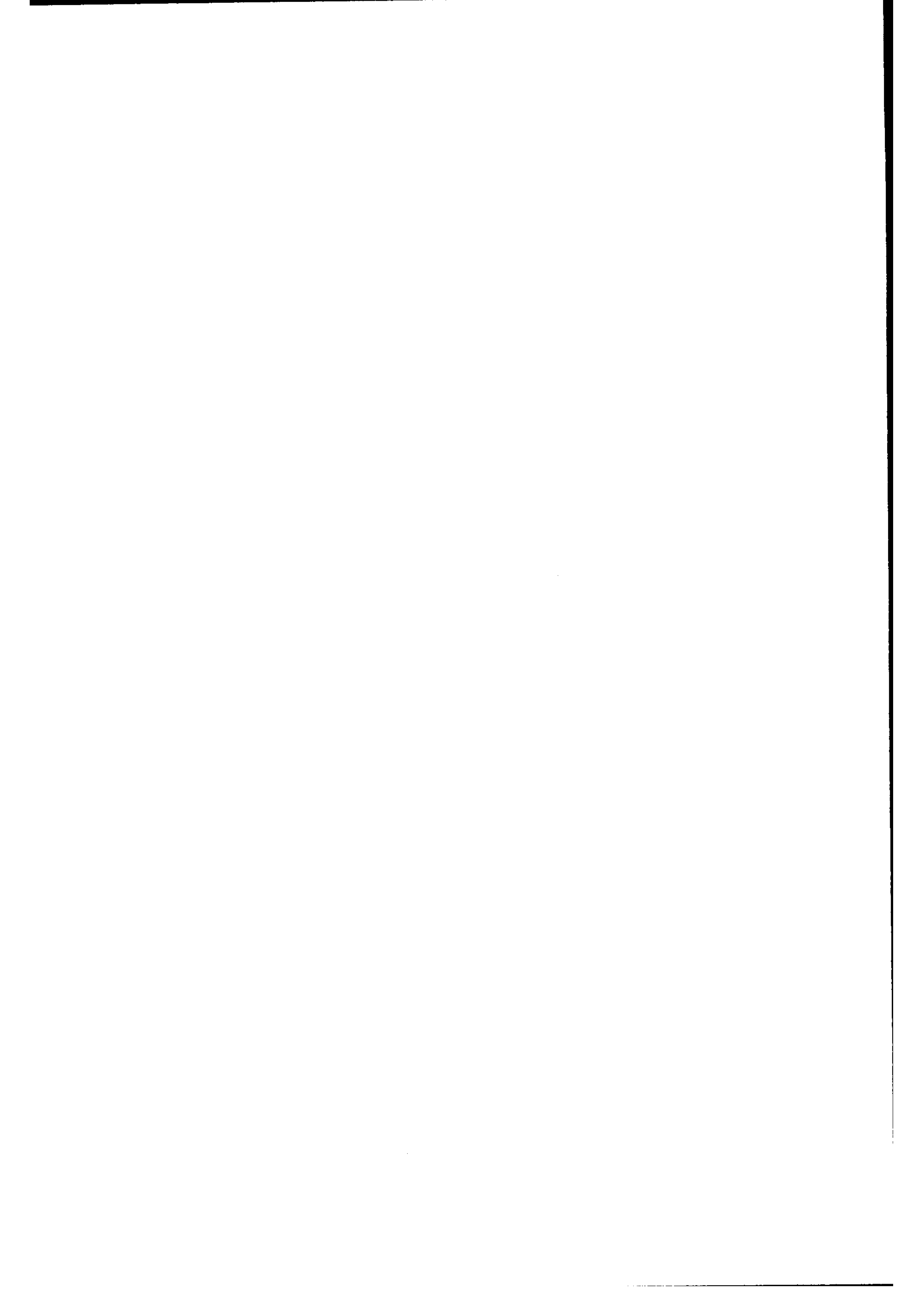
(٤) Farman : Op. Cit. P. 190 .

(٥) دكتور شكرى : مصر والسودان : ص١٥٩ – ١٩٢ .

وثمة حقيقة مهمة ينبغى أن نشير إليها وهى أن يوحنا كان قد أوفد فى يونيه سنة ١٨٧٦ مندوبا إلى القاهرة للاتفاق على مسألة تخطيط الحدود بين الحبشة والخديوية المصرية السودانية وللحصول على امتيازات معينة للأحباش تمكنهم من استخدام ميناء مصوع ولكن هذه المفاوضات لم تسفر عن نتيجة . وفى العام التالى (١٨٧٧) استؤنفت المفاوضات على يدى غوردون فى هذه المرة عندما وصل إلى مصوع فى طريقه إلى الخرطوم وكان قد عين حكمدارا للسودان ولكن دون نتيجة بسبب إصرار يوحنا على أن يخلى المصريين بوغوص وميناء زولا وكل ساحل الدناكل أى الساحل الذى يشمل من الشمال إلى الجنوب موانى زولا وأمفيلا والداد وبيلول وعصب ثم رهيطة عند باب المندب وذلك خلاف تعويض عن أضرار الحرب تدفعه مصر إلى يوحنا وظل الحال على ذلك أى دون اتفاق حتى قامت الثورة المهدية وحاصر المهديون غوردون فى الخرطوم وانسحبت الحامية المصرية من السودان الشرقى وأبرمت معاهدة (٣ يونيه سنة ١٨٨٤) بين حكومة الخديوى وبريطانيا والحبشة والملك يوحنا التى جاء فيها " على جنود الخديوى الانسحاب من كسلا وامبديب وسنهيت (بوغوص) عبر الأراضى الحبشية إلى مصوع فى نظير أن يقوم يوحنا من جانبه بتسهيل عملية الانسحاب هذه " وبذلك أعيدت بوغوص إلى الحبشة (١) .

---

(١) From Farman to Fish N . 9 (1 - 6 - 1876) Vol. 12 P. 31 .
دكتور فؤاد شكرى : مصر والسودان : ص١٤٣ – ١٤٤ .



التحركات العسكرية فى جنوب مصر
(١٨٨٤ - ١٨٩٧)

الدكتور/ محمد على القوزى
مدرس التاريخ الحديث المعاصر
كلية الآداب - جامعة بيروت العربية

كان لمصر قوات عسكرية ووقائع حربية عبر التاريخ ، من عصر الفراعنة إلى العرب والمماليك والأسرة العلوية ، حتى الثورة المصرية فى تاريخنا المعاصر ، وتميز الجندى المصرى فى جميع الحروب التى شارك فيها بأعمال البطولة والتضحية ، ويحسن بالذين لم يعرفوا كفاءة المصريين الحربية أن يرجعوا لتاريخ مصر الحربى من عهد الفراعنة حتى حروبه المشرفة الأخيرة . ومن مشاركة القوات المصرية فى حرب المكسيك(١) فى عهد محمد على إلى اشتراكها فى حرب الكويت فى التاريخ المعاصر . لقد أثبت الجندى المصرى أنه مقاتل من الدرجة الأولى وأقدر من أى جندى آخر على حماية مواقعه والدفاع عنها(٢) .

وعن التاريخ العسكرى الحديث لجنوب مصر أنوه بعد محمد على الذى أصدر أمرا بإنشاء مدرسة المشاة فى أسوان لتكون ميدانا للتدريب بعيدا عن القاهرة بعد حادثة التمرد التى وقعت عام ١٨١٥م ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لوقوع أسوان قريبا من السودان الذى كان يعد العدة لفتحه باعتباره مصدرا غنيا للجنود ، وكانت إدارة هذه المدرسة بالتعاون بين ناظرها محمد بك لاظوغلى ومدربها سليمان باشا الفرنساوى . ولما لم تكن أسوان بالمنطقة الملائمة للدراسة العسكرية ، نقلت المدرسة الحربية إلى إسنا .

ويرتبط التاريخ العسكرى لجنوب مصر بالسودان منذ عهد الأسر الأولى فى تاريخ مصر القديمة ، واعتبر السودان امتدادا طبيعيا للأراضى المصرية فى القرن التاسع عشر(٣) ، على أساس وحدة وادى النيل ، لقد كانت مصر سيدة على السودان إلى أن كانت الثورة المهدية عام ١٨٨١م(٤) . فاضطرت مصر أن تتراجع فى السنة التالية إلى الشمال عند الشلال الثانى ، وسقطت البلاد فى يد المهدى ثم فى يد خليفته ، وأصبح وادى حلفا آخر المراكز على الحدود

المصرية ، بعد أن قررت سلطات الاحتلال فى مصر الانسحاب من بطن الحجر توفيرا للنفقات والمتاعب .

وهنا لابد من التنويه بالصعوبات الكبيرة التى اعترضت سبيل محمد أحمد المهدى ورفيقه التعايشى اللذين وجدا أنه من الصعب عليهما دفع الأهالى فى جنوب مصر للثورة على الحكومة المصرية ، لأن هؤلاء الأهالى أرجعوا أسباب الصعوبة التى يعانون منها إلى تحكم الأجانب الأوروبيين وليس إلى الحكومة المصرية ، وبالتالى لا يجوز شرعا الثورة عليها ، ولقد تمسك الكثير من كبار السودانيين بالولاء للحكومة المصرية ومنهم : السيد أحمد الأزهرى ابن الشيخ اسماعيل الولى الكردفانى الكبير ، ونجيب بك بطركى ، محمد بك الملك ، وفرج باشا الزينى وحسين باشا خليفة ، والشيخ حسين عبدالرحيم شيخ الدويم و الشيخ عبدالقادرقاضى الكلاكلة ، والشيخ عوض الكريم أبوسن شيخ الشكرية(٥) .

وكانت عملية القضاء على الثورة المهدية تقع على عاتق الجنود المصريين منذ المحاولات الأولى عام ١٨٨٣م ، والتى كانت بقيادة ضباط بريطانيين اعترفوا بكفاءة الجندى المصرى فى مواقع عديدة(٦) .

بعد أن انتشرت انتصارات المهدى فى كردفان ودارفور وسنار والسودان الشرقى ، وكان السبب الأكبر فى إخفاق محمد رؤوف باشا حكمدار السودان أنه لم يكن لديه من القوات مايكفى للقيام بعمليات عسكرية على نطاق واسع ، ومرد ذلك إلى اشتعال الثورة فى مصر على يد أحمد عرابى ، وانشغال الحكومة المصرية فيها وعجزها عن مساندة رؤوف باشا بل لقد أرسلت عبدالقادر حلمى باشا إلى السودان دون أن ترسل معه أية نجدات ومع أن عبدالقادر هذا قد أخضع الثورة فى سنار فقد استطاع المهديون الاستيلاء على الأبيض فى ١٩ يناير ١٨٨٣ واستدعى عبدالقادر إلى القاهرة وعين بدلا منه علاء الدين باشا وحضر معه هكس باشا الذى كان نصيبه الموت ونصيب جيشه الفناء فى موقعة شيكان فى ٥ نوفمبر ١٨٨٣ مما قوى مركز المهدى فى الخرطوم .

سياسة بريطانيا لاخلاء السودان :

قررت حكومة جلاد ستون منذ هزيمة هكس إخلاء السودان وجعل حدود مصر عند وادى حلفا ، إلا أن هذه السياسة كانت معارضة من الوزراء والعسكريين المصريين منهم : -

عبد القادر باشا الذى كان حكمدارا إلى أوائل عام ١٨٨٣ ، وقام بحملات ناجحة ضد ثوار الجزيرة وكان عضوا فى وزارة نوبار باشا أوضح أن إخلاء السودان يمكن أن يتم بين سبعة أشهر وسنة ، ولكنه يشترط عدم إعلان الجلاء حتى لا يؤدى هذا الإعلان إلى ارتباكات ، غير أن جوردون أصر على الإعلان فى السودان عن سياسة الجلاء .

الشخصية الثانية هى حسين باشا خليفة - زعيم العبابدة ومدير بربر آنذاك - الذى كتب للخديوى فى ٢٢ يناير ١٨٨٤ - ردا على الأوامر التى وجهت إليه بأن يرسل كل المراكب إلى الخرطوم واستحضار الجمال اللازمة للترحيل ، بأن إعلان الجلاء سيعقبه هياج للأهالى والعربان وربما تمردوا وقطعوا الطريق من أبى حمد إلى كروسكو(٧) .

لقد أيد حسين باشا صعوبة تنفيذ سياسة الإخلاء التى نادى بها جوردون وأظهر مشاكل الترحيل خاصة وأن قبيلته العبابدة هم الذين يحتكرون طريق صحراء العتمور - أبوحمد .

لم تكن حكومة القاهرة لتقبل فكرة تعيين جوردون لتنفيذ سياسة الإخلاء خصوصا بسبب الطابع الدينى الذى اتسمت به الثورة المهدية ، إذ إن وضعه على رأس الحكم فى السودان سيكون معناه انضمام آخر قبيلة موالية لمصر إلى المهدى(٨) .

وكانت آراء جوردون متعارضة تمام التعارض مع سياسة حكومة لندن ، إذ إن جوردون كان معاديا لسياسة إخلاء السودان ، ومطالبا باستخدام الوسائل الحربية ، وكان لايمانع فى إخلاء المديريات السودانية مثل دارفور وخط الاستواء ، ولكنه كان مصرا على الاحتفاظ بالخرطوم وكان يرى أن السماح للمهدى بدخول الخرطوم يعنى تهديدا مباشرا لمصر نفسها . هذه الآراء كانت معارضة لآراء السلطات البريطانية فى مصر أيضا ، والتى كانت ظاهرة عند كرومر بضرورة سحب القوات المصرية من السودان بأسرع وقت ، لكن الحكومة البريطانية لم تقدر خطر إرسال رجل مثل جوردون إلى السودان حق قدره ، وذلك أن أعمال هذا الرجل السابقة وأخلاقه لم تكن لتؤهله بالقيام بمثل هذه المهمة(٩) .

وعند انتقال جوردون إلى السودان عن طريق الصعيد - عتمور - أبى حمد اختمرت فكرة الصلح مع المهدى فى ذهنه على أساس أن يبقى المهدى حاكما فى كردفان وجوردون

حاكما فى الخرطوم ، وكان جوردون قد أبرق من أسيوط عام ١٨٨٤ إلـى حسين باشا خليفة مدير بربر وزعيم العبابدة يخبره بأنه قد سمى واليا مفوضا على السودان .

وفى أسوان اتصل ثانية بحسين باشا خليفة وعلم منه أن الأهالى سيقابلونه بالترحـاب وأن المهدى لا خوف منه ، وأخبره حسين باشا أنه سيفتح الطريق بين بربر وسواكن(١٠) .

دخل جوردون الخرطوم وأعلن أنـه لن يحارب المهدى كما أعلن فرمان الإخلاء عن السودان وأنه عفا عن متأخرات الضرائب وأيضا قام بتخفيض الضرائب الحالية ، واعتقد أنـه بذلك سيعيد الأمن والطمأنينة إلى السودان خلال شهر واحد ، وأن محمد أحمد المهـدى سيتراجع عن دعوته قريبا .

لم تكن هذه السياسة حكيمة ، يؤكد ذلك سيتوارت فى مذكراته عقب هذه التصريحات ، ووصفها بالمتسرعة ؛ لأن الناس سيعتبرون تخفيض الضرائب وهـذه التقديمات بمثابة رشوة تمهيدا لسحب الجنود والمدنيين وترك البلاد للفوضى .

واعتقدت الحكومة المصرية أن إعلان التخلى عن السودان سوف يدفع القبائل التى بقيت موالية لمصر مثل العبابدة والبشارية أو القبائل المترددة فى ولاتها مثل الكبابيش ، إلـى الانضمام للمهدى فتزداد قوته بانضمام إليه ، وسوف يتوجب على الحكومة المصرية أن تكافح هذه القبائل البدوية المندفعة غريزيا للسلب والنهب مما يرغمها على الانكماش بسبب حرمانها من حدودها الطبيعية .

لم تكن القرارات التى أصدرها جوردون ذات فائدة كبيرة فى التأثير على أهل السودان فقد كان إعلان تعيين المهدى أمرا مثيرا للعجب ؛ لأن المهدى كان يحكم فعلا فى كردفان . ويعلق محمد فؤاد شكرى على هذه الأحداث بأن اطـلاع حسين باشا خليفة مدير بربر على كتاب الخديوى توفيق لجوردون أو ما صار يعرف بالفرمان السرى خطأ تقدير ، ووصف ريجينالد ونجيت حكمدار السودان بعد ١٨٩٩ بأن منشور جوردون كان له الأثر المميت فى إضاعة السودان ، ويتساءل سلاطين باشا : كيف يمكن أن تساعد القبائل جوردون ، إذا كان هو قد أعلن عن إخلاء السودان ؟(١١) ، كما يصف جلال يحيى ، تلاوة الفرمان السرى أمام كبار مشايخ المنطقة بأنه " الطامة الكبرى "(١٢) .

كان جوردون قد بعث بكسوة شرف للمهدى معلنا إياه بأنه أصبح ملكا لكردفان ويرجوه توطيد العلاقات بينه وبين الحكومات الأخرى لإنهاء الحرب القائمة ، وفى مارس ١٨٨٤ ظهر ثلاثة من الأنصار يحملون خطابا وربطة فيها ملابس وطلبوا مقابلة جوردون ، وقدموا له الخطاب والربطة التى تحوى جبة التشريفة التى بعث بها جوردون ومعها جبة الأنصار ليلبسها إن هو استضاء قلبه بنور الإسلام ، وكان جورون مسيحيا متعصبا يعتبر نفسه قديسا(١٣) ، فغضب وأيقن أن مفهومه للثورة المهدية وطريقة معالجتها كانت خاطئة .

من جهة ثانية كانت إنجلترا تتوقع حدوث اضطرابات فى مصر وفى الصعيد بشكل خاص نتيجة لتنفيذ سياسة إخلاء السودان ولذلك فإنها قررت إرسال قوات من جيش الاحتلال البريطانى إلى الصعيد لكى تحاول أن تسيطر على الموقف هناك فى أثناء عملية الانسحاب مع احتلال وتحصين كل من وادى حلفا وكروسكو كمحطات للحدود ، فى حين تجمع بقية القوات فى أسوان .

بدأ جوردون بعد وصوله للخرطوم بفرز الجنود المصريين إلى البر الغربى للنيل الابيض ريثما يتم ترحيلهم للشمال ، وبينما كان جوردون منهمكا فى مشاكل الترحيل بعث المهدى برجاله لمناوشة الخرطوم فأدرك جوردون عندها أن سياسته كانت خاطئة فوزع جنوده على خط النار وزاد فى تحصينات عبدالقادر باشا وقواها ، ورجعت الجنود المصرية إلى أماكنها فى خط النار .

تريث المهدى وبعث بأستاذه محمد الخير إلى منطقة الجعليين ليحاصر بربر ويتمكن من اقتحامها والاستيلاء عليها فى مايو ١٨٨٤ ، وبذلك انعزلت الخرطوم عن العالم الخارجى وبدأ الرأى العام البريطانى يخشى سقوط المدينة وموت جوردون ، ونتيجة لضغط الرأى العام البريطانى تقرر إرسال حملة إنكليزية على رأسها ولسلى الذى كان قائدا لجيش الاحتلال لمصر عام ١٨٨٢ ، وسميت الحملة " حملة إنقاذ جوردون " .

ورأى المهدى أن يبعث بالأمير عبدالرحمن النجومى لحصار الخرطوم(١٤) ، فأرسل النجومى إنذارا لجوردون وآخر لأهالى الخرطوم يدعوهم للتسليم ، واتسمت خطابات النجومى بالهدوء ، وكانت ردود جوردون جافة غاضبة ، مع أن المهدى كان مسيطرا على الموقف محكما الحصار على الخرطوم وأنصاره متعطشون للهجوم على المدينة ، وأنه فى المقابل كان

موقف جوردون السياسى والعسكرى ضعيفا ، ومع ذلك فقد رفض جوردون أن يكون كسلاطين باشا(١٥) الذى أظهر انتقاده له في يومياته لارتدائه جبة الأنصار المرقعة .

كانت حامية الخرطوم بقيادة فرج باشا الزينى الذى شارك فى ثورة عرابى وحكم عليه بالنفى إلى السودان ، ولكنه التحق ثانية بالجيش المصرى وعين قائدا عاما للحامية فى الخرطوم ، ورغم أن كثيرا من ضباط جوردون قد قاتلوا الأنصار وسقطوا في الميدان إلا أن فرج تخلى عن بزته العسكرية واتجه نحو الصحراء ، وكان فى الحامية ثلاث أورط من الجنود المصريين بقيادة محمد نصحى باشا يستعدون للرحيل إلى مصر ، ولكن عند حصار الخرطوم بقوا فى المدينة وعين إبراهيم بك فوزى قائدا عاما للقوات المصرية .

ويتضح من يوميات جوردون أنه كان ضحية تضليل فى تقديره لموقف المهدى وكان جوردون مقتنعا بأن خمسة وعشرين جنديا بريطانيا بثيابهم الحمراء فى شوارع الخرطوم كفيلة بإرغام المهدى لقلع خيامه والعودة إلى كردفان .

بالمقابل عندما شعر المهدى بحملة المساندة تطل برأسها عبر الصحراء ، وأن هذه النجدة ستصل إلى الخرطوم بعدما وصلت إلى المتمة(١٦) أمر بالهجوم . ومع أن الدلائل تشير إلى أن المهدى لم يكن راغبا فى قتل جوردون بل كان يريد أسره حيا(١٧) ، فقد تم القضاء عليه .

تراجع طابور الصحراء الذى قاده ولسلى تحت اسم حملة إنقاذ جوردون ، وبقى في دنقلة ينتظر التعليمات الجديدة ، خاصة وأن إنقاذ جوردون لم يتحقق .

تأسف الشعب البريطانى لمقتل جوردون وسقوط الخرطوم بأيدى الثوار فى ٢٦ يناير ١٨٨٥ وألقى باللوم على وزارة جلادستون ، وطلب ولسلى قائد حملة الإنقاذ تعليمات جديدة ؛ لأن هدف الحملة كان إنقاذ جوردون وهذا لم يتحقق ، وكان رد الحكومة أن طلبت منه سحق قوة المهدى فذهب ولسلى إلى القاهرة ليكمل استعداداته(١٨) .

كان الموقف على حدود الهند ينذر بالحرب ، لم يخف الروس نيتهم فى الهجوم على أفغانستان ، وأن هجوما روسيا على الهند سيفقد بريطانيا سيطرتها على إمبراطوريتها ، لذلك رأت بريطانيا أن تتخلى عن السودان(١٩) وتسحب قواتها إلى مصر ، ولم يكن لدى ولسلى فى

جنوبى أسوان سوى سبعة آلاف وخمسمائة جندى بريطانى ، وفى حال تنفيذ سياسة الإخلاء يجب إبقاء ثلثهم على الحدود ، ولا يوفر الإخلاء بذلك إلا ثلثى القوات ، وفى المقابل سيؤدى هذا الإخلاء للانسحاب من دنقلة وتسليمها للثوار ، ويضمن لهم الانسحاب انضمام القبائل الحدودية إليهم والتى كانت مترددة بين الولاء لمصر والولاء للمهدى ، لقد شدد ولسلى على ضرورة البقاء فى دنقلة لمنع الثورة من الوصول إلى مصر ولضمان بقاء القبائل الحدودية موالية لمصر . وفى رسالة من ولسلى إلى هارتنجتون بهذا الشأن فى ١٥ أبريل ١٨٨٥ يقول : " إذا تركنا دنقلة فإن أحوال هذه المنطقة ستصبح مماثلة لأحوال الخرطوم الحاضرة ، سيكون هذا ما جلبناه على حليفنا الخديوى فى إحدى مديرياته الرئيسية ، وكل ماجلبناه على هذه المديرية نفسها لقد وجدناها فى حالة سلم وأمن – نسبيا – وسنتركها فريسة للنهب والقتل(٢٠) "

وكان المهدى يطمح لفتح مصر والشام والقسطنطينية ومكة المكرمة ، وإخضاع جميع الأمم ، وكانت إنجلترا تستعد للخروج من دنقلة ، لذلك شرع المهدى فى الاستعداد لغزو مصر وكان لابد له من رجال يساعدونه على تحقيق ذلك فقام بتسمية حسين باشا خليفة عاملا عاما على قومه العبابدة الذين كانوا داخل حدود مصر ، ومن أراد الانضمام إليهم من أهله وطلب إليه أن يحصل على موافقة المصريين حتى يدركه المهدى بجيشه .

وقد بعث المهدى برسائل إلى زعماء العبابدة من الشناتير والعشاباب ، وإلى حسين باشا خليفة بمنشور يطلب منه تبليغ دعوة المهدى إلى الناس ويفوضه فى تولية من يرى فيه إصلاح المسلمين وعزل من يرى فيه إفسادهم ويبلغه بتعيين الشيخ مشنتح كرار العبادى أميرا على الشناتير والشيخ بشير جبران العبادى أميرا على العشاباب ، ويبلغ الشيخين بتولية حسين باشا خليفة عاملا عاما على العبابدة(٢١) .

وفى التاسع من رمضان ١٣٠٢هـ الموافق ٢٢ يونيو ١٨٨٥ وبعد انصراف المهدى للعبادة ، أصدر منشورا كأنه يودع فيه الدنيا ، وبالفعل فقد أسلم المهدى الروح فى هذا التاريخ(٢٢) . وبعد وفاة المهدى أرسل الخليفة عبدالله التعايشى قوة من الأنصار لتعقب حسين باشا خليفة وإعادته إلى أم درمان ، ولكن حسين باشا تمكن من دخول حدود مصر والوصول إلى أسوان ثم إلى القاهرة ، لقد كانت خدعة أحسن استخدامها حسين باشا خليفة ليتخلص من السودان ويستقر فى بلدته فى صعيد مصر(٢٣) .

وقد جرى تقديم حسين باشا خليفة إلى مجلس عسكرى فى القاهرة لمعرفة الدوافع التى أدت إلى سقوط بربر وضياع خمسين ألف جنيه كانت مودعة بخزانة مديرية بربر ومسئوليته تجاه ذلك ، وفى نهاية المحاكمة ظهرت براءته من هذه التهمة وعين مفتشا بوزارة الداخلية حتى توفى عام ١٨٨٦ (٢٤) .

إن انتصار المهدية الأولى على الجيوش المصرية فى السودان ، وفرار حملة إنقاذ جوردون ، جعلت الخليفة عبدالله يعتقد أن الدولة الكبرى هى الحبشة ، وأن بريطانيا هى الصغرى ، ولهذا فقد أخطا فى تكييف الحملة المرسلة إلى مصر .

اتخذ الخليفة عبدالله التعايشى(٢٥) منذ البدء سياسة الفتح ونشر الدعوة استمرارا لخطة المهدى(٢٦) وكانت مصر هى الهدف الأول فى نية المهدى ، لذلك وجه التعايشى منشورا إلى أحبابه فى الله أهالى مصر والجهات البحرية كافة يدعوهم فيه إلى التسليم للمهدية ، كما أنذر الخديوى توفيق بضرورة اتباعه : " ولو نظرت بعين البصيرة والإنصاف ... لأذعنت لى بذلك وسلكت باتباعى أحسن المسالك " . بل أنه أنذر الملكة فيكتوريا ودعاها للإسلام : " فإن أسلمت واتبعت المهدى ... فإننى سأقبلك وأبشرك بالخير والنجاة من عذاب السعير " : وخاطب السلطان عبدالحميد يحذره من سياسته الخاطئة بصرف جهده : " فى إعانة أهل الأصنام على هدم أركان الإسلام ، كما خاطب قبائل نجد والحجاز وملك الحبشة وغيرهم(٢٧)

موقعة جنس ١٨٨٥ :

التقت القوات المهدية بالجيوش المصرية فى موقعة جنس فى ٣٠ ديسمبر ١٨٨٥ وكان الجنرال ستيفنس قائد جيش الاحتلال فى مصر ، لما علم بقدوم المهديين إلى كوشة ، ساق إليها الجنود المصرية والإنكليزية من مصر والحدود فوصلها فى ١٨٨٥/١٢/١٩ ومعه الجنرال جرنفيل سردار الجيش المصرى ، ووضع تشكيلة قتالية حققت النصر(٢٨) .

ومن الذين امتازوا فى هذه الواقعة من الضباط المصريين : البكباشى أحمد أفندى فهمى أركان حرب ، الذى أدى مساعدات ذات قيمة ، والبكباشى فى الطوبجية المصرية حسين أفندى رضوان فإنه أظهر بسالة ومهارة فى إدارة المدفع .

هذا وبعد الواقعة رأت الحكومة أن لا فائدة لها من احتلال بطن الحجر من غير مشاق ونفقات فأخرجت جنودها منها وجعلت آخر حدها الجنوبى فى حلفا .

فى ٧ مايو خرج العساكر الإنجليز من حلفا وتركوا حمايتها للجيش المصرى ولكن بقى ألف منهم فى أسوان لنجدة الجيش المصرى إذا دعت الحاجة ، وبقوا هناك إلى عام ١٨٨٧ ثم عادوا إلى مصر .

إذن وقع عبء الدفاع عن المنطقة الواقعة بين الشلال الأول والشلال الثانى على عاتق القوات المصرية ، وعلى مسافة ثلاثين ميلا جنوب حلفا امتدت منطقة تفصل بين آخر مراكز الحدود المصرية وسرس التى هى أول مراكز المهديين فى الشمال ، وهذه المنطقة بقيت مسرحا لمناوشات حدودية متعددة .

حاولت سلطات الاحتلال فى مصر الوصول إلى تسوية لمشكلة الحدود الجنوبية بطريقة المفاوضة مع المهدية ، وكان فى وسع الخليفة عبدالله تأمين حدوده من ناحية مصر دون حاجة إلى الدخول فى حرب معها لو أنه قبل المفاوضة ، فقد أوفدت القاهرة إلى وادى حلفا يوسف باشا شهدى لمحاولة التفاوض مع الدراويش فى مايو ١٨٨٦ ، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل وبقى الخليفة مصمما على غزو مصر(٢٩) .

واقعة سرس ٢٨ أبريل ١٨٨٧ :

وكان محمد الخير قد خرب سكة الحديد بين عكاشة وسرس سنة ١٨٨٥ وخرب النور الكنزى الذى كان على مقدمة جيش النجومى سكة الحديد بين سرس وعبكة وكذلك بين خورموسى وحلفا .

عند ذلك جهز قائد حلفا فى٢٧ أبريل ١٨٨٧سرية من العساكر وتوجه بهم إلى سرس بقصد الهجوم ، وباغت النور الكنزى فى سرس وأوقع به خسارة أدت إلى مقتله وجميع رجاله البالغين مائتين .

استعادة سرس :

لما بلغت النجومى أخبار الهزيمة أرسل إلى الحدود جيشا قويا بقيادة عبدالحليم مساعد ، فبنى معسكرا فى فركة وأرسل مقدمة جيشه فاحتلت سرس فى ١٨ يونيو ثم لحقها بجميع الجيش فى ١٦ ديسمبر ١٨٨٧ ، وبلغ عددهم فى سرس ٢٨٠٠ مقاتل .

غزوة دراويش أبى حمد للكلابشة ١٨٨٨ :

وكان الخليفة قد أبقى فى أبى حمد حامية لرصد تحركات الجيش المصرى فى كورسكو وعهد إلى الحسن محمد خليفة قيادة الحامية ، وبلغ الحسن أنه فى شرقى الكلابشة نقطة للبوليس المصرى عليها الملازم محمد فنى فهجم فى ٢٥ فبراير ١٨٨٨ ببعض أنصاره على هذه النقطة وقتل بعض البوليس ثم أسر الملازم المصرى ونقله إلى أبى حمد وبعد ذلك أرسله إلى الخليفة فى أم درمان ، " فسر به التعايشى سرورا عظيما وخرج به إلى ساحة العرضة ... ثم أرسله إلى القلابات ليرى جيوش أبى عنجة ... ثم أعاده إلى أم درمان "(٣١) .

عندها أقام قائد الجيش المصرى سنة ١٨٨٩ نقطة مكونة من القبائل الحدودية وخاصة العبابدة والمليكاب فى منطقة آبار المرات(٣٢) برئاسة صالح بك خليفة لتكون نقطة مقابلة ومراقبة لممر أبى حمد ، وسعى قلم المخابرات مع صالح خليفة فأنقذ الملازم محمد فنى من قلب أم درمان وأتى به إلى مصر عن طريق آبار المرات فى ٢٤ سبتمبر ١٨٩٢ (٣٣) .

غزوة دراويش سرس لارمنة ١٨٨٨ :٣٤

بناء على أوامر الخليفة لقوات النجومى بضرورة الرباط فى سرس ، وبما أن الخطط العسكرية اعتمدت على منع وصول الإمدادات الغذائية للدراويش خاصة وأن سرس لم يكن بها إلا الحجارة ، وأن طلب المؤونة من دنقلة لم يصل : " فلما جاءوا عصوا الأمر وأصبحوا كالذئاب الخاطفة ، يشنون الغارات على بلاد الحدود ويعودون إلى معسكرهم فى سرس ، من ذلك غاراتهم على أرمنة وعلى التوفيقية(٣٥) فى ١٩ يونيو ١٨٨٨ بهدف النهب وبث الذعر كما حصل فى التوفيقية عندما ذعر أهلها عند رؤية الدراويش " فرموا بأنفسهم فى النيل "(٣٦)

لم يدم الأمر طويلا فقد استطاع البكباشى عبدالغنى فؤاد أن يطلب مساعدة نهرية من ودهاوس قائد العساكر فى حلفا ، واستطاع أن يحيط بمهاجمى طابية خورموسى ويهزمهم فى ٢٩ أغسطس ١٨٨٨ .

بعد هزيمتهم فى خورموسى بقى الدراويش فى سرس ينتظرون عودة النجومى من أم درمان لتجديد غزوهم لمصر ، وفى ٢٩ أبريل ١٨٨٩ خرج جماعة من الدراويش بقيادة ود رحمة على قاصدين دبيرة على مسافة أحد عشر ميلا شمالى حلفا ، وكان الجيش قد أخرج البواخر النيلية لحماية البلاد شرقا وغربا بين حلفا وكورسكو . ونجح الدراويش فى غزو البلدة واختطفوا ما استطاعوا من المواشى والأمتعة وساقوا الأسرى فلحق بهم الجيش المصرى وكمن لهم فى طريقهم إلى سرس على بعد ثلاثة أميال من حلفا ، وأغار عليهم وقد طعن أميرهم ودرحمة الباشجاويش فى الجيش المصرى ويدعى حسن محمد الفقى بحربة فى جنبه فأخرج حسن الحربة وصرع بها مهاجمه ، وبلغت ودهاوس بطولة هذا الجندى المصرى فأوصى به ورقى إلى رتبة ضابط .

وقد أظهر الفرسان المصريون فى هذه الموقعة خبرة تامة فى استعمال الحراب ، فأدخل السردار المزراق فى سلاح السوارى منذ ذلك العهد ، وجعل نصفهم مسلحا بالسيوف والنصف الآخر بالمزاريق ، وقد أسر العساكر المصريون ثمانية من الدراويش وعادوا بهم إلى حلفا .

ومع ذلك لم يكف الدراويش عن التعدى والغزو فقاموا بغزوة سحر الغرب فى ٩ مايو ١٨٨٩ ولكنها فشلت كسابقاتها .

وقائع دنقلة :

كانت قوات الخليفة التعايشى فى دنقلة تعانى الانقسام بسبب الخلاف الدائم بين النجومى ومساعده مساعد قيدوم ، واستطاع الخليفة أن ينهى الخلاف بإعادة مساعد إلى أم درمان وتعيين يونس الدكيم أميرا عاما لدنقلة يقيم فيها بينما يغادرها النجومى غازيا مصر . وكان الخلاف بين النجومى ويونس أكثر حدة منه مع سلفه . فغادر النجومى دنقلة فى ٣ مايو ١٨٨٩ يائسا ، وتتبع ود هاوس قائد حامية الحدود فى حلفا تنقلاته ، وأمر ود هاوس سكان الضفة الغربية من حلفا بإخلاء القرى وقطع الثمر وتركها خرابا للأنصار كى لا يستفيدوا منها ، والانتقال إلى الضفة الشرقية .

وقعة أرجين :

نقل ود هاوس ألفين من جنوده إلى أرجين(٣٧) شمالى حلفا واستخدم بيوتها وقلاعها متاريس لجنده ، ووضعت السفن الحربية فى الأماكن الضعيفة لإعانة جنود البر ، واجتمع لدى ود هاوس ١٩٤٢ عسكريا وثمانية مدافع ، وكانت تلال أرجين التى نزل بها النجومى تقع ضمن المرمى النارى للمدفعية المصرية ... " فلما أطل النجومى أمر ود هاوس طوبجيته فرموه بالقنابل من الشرق والغرب والوابورات ، وكان جيش النجومى فى أشد العطش ورأى وأنه لن يتسنى له الوصول إلى الماء إلا بالقوة " ... فشق طريقا بين القنابل والرصاص حتى وصلوا إلى الماء . عندها شن المصريون هجوما عنيفا لطرد الدراويش من النيل ، ودام القتال طيلة النهار وانتهى بهزيمة الدراويش بعد مقتل تسعمائة رجل منهم(٣٨) .

رغم هزيمة النجومى فى أرجين فقد بقى مصمما على القتال ولو منعه ود هاوس من ورود الماء ، وعندما أشار عليه بعض أتباعه بالرجوع إلى الوراء قال النجومى : " لا والله لا أرجعن إلى الوراء إلا محمولا على الأكتاف ، فإذا عطشنا أو جعنا فإنما نحن فى جهاد فلنتذرع بالصبر والثبات حتى نفوز بالنصر أو بالشهادة " . قال ذلك وهز سيفه فوق رأسه محمسا الأمراء فى المجلس .

لم يكن مع ود هاوس مايكفى من العساكر لمهاجمة النجومى فى الصحراء فبقى يلاحقه بقصد منعه من ورود الماء حتى وصوله إلى بلجة أو البلينة(٣٩) على مسافة ٢٥٠ ميلا من أرجين ، حيث وقف النجومى هناك منتظرا النجدات التى علم أنها فى طريقه إليه من الجنوب.

وفى ١٥ يوليو ١٨٨٩ وصل جرانفيل باشا قائد الجيش المصرى إلى بلاجه ليشرف على العمليات بنفسه ، واتضح بعد عملية استكشاف لمعسكر الدراويش أن كثيرين من عساكرهم يفرون يوميا إلى معسكر الجيش المصرى وأن قوات النجومى فى حالة بائسة ، والمؤن معدومة تقريبا ، يؤكد هذا كتاب النجومى إلى الخليفة الذى يذكر فيه الصعاب التى يلاقيها بعد وقعة أرجين وحالة مقاتليه وأسماء الأمراء الذين قتلوا فيها يقول : " فإن الجوع اللاحق بهم أضناهم وأذهب قواهم فورم أجسامهم وغير أحوالهم لأنهم قبل دخول بلد العدو كان قوتهم التمر الأخضر المر ونواه وانقطع عنهم من مدة ... ولشدة الضرر جلسوا جميعا على الأرض وكثيرون منهم ماتوا جوعا ، وأما ضعفاء اليقين منهم فلعدم صبرهم على البأساء والضراء رغبوا فى الأعداء ، والجهادية والعبيد والخدم لحقوا أيضا بالأعداء وارتدوا عن الدين ولم يبق

منهم إلا النادر ... ولولا لطف الله وجميل نظركم لما قدرنا على الوصول إلى بلاجة " .. ثم يتكلم عن موقف المصريين فيقول : " أما أهل الريف من معتوقة إلى بلاجة التى وصلنا إليهم فكلهم قاموا فى عون الكفرة وحزبوهم كل التحزب ومن عهد دخولنا ديارهم إلى الآن لم يأتنا منهم وارد ولا معرج ولا راغب فى الدين ولا من يريد تجارة ، بل الجميع حملوا الأسلحة النارية وحاربونا أشد المحاربة ، وما من قرية من قراهم التى بشاطىء البحر الغربى إلا رأينا أهلها قد قطعوا أثقالهم بالشرق أو أدخلوها الجزائر وتركوا القرية خالية لتكون حصنا لهم

وللكفرة لحرب الأنصار وتبين أن جميع الجهات التى مر الجيش بها من أرض الريف ، أهلها عداة وعصاة بل الذين لم نصل جهتهم إلى الآن فالمترائى من حالهم أنهم كذلك لأننا ناهزنا الوصول إلى بلدهم ولوكانوا راغبين لأتونا فإن المكان ليس ببعيد ، أما بوابير الكفرة فما زالت سائرة معنا بالبحر تبيت معنا حيث بتنا وتقيل حيث قلنا وعساكرهم ماشية بالشرق فى خيل وجمال لمنع لأنصار ماء البحر ولم يكن شرب الماء إلا بقتال ومضاربة واستشهادات وجراحات "(٤٠) أراد النجومى من خلال هذا الكتاب أن ينفس ما يحتقن بداخله من صعوبات وينقلها إلى الخليفة مبررا هزيمته ، مبينا وقوف أهل جنوب مصر إلى جانب حكامها ، ويلومهم على تقاعسهم لعدم الانضمام إلى حركة المهدى التى يمكنهم الانضمام إليها لو شاءوا فهو ليس ببعيد عنهم ، وفى هذا دليل كاف على أن أهل القبائل فى جنوب مصر وقفوا إلى جانب المصريين الرافضين للحركة المهدية .

وكان قائد الجيش المصرى جرانفيل باشا قد أصدر إلى أهل الحدود منشورا بتاريخ ١٠ يوليو ١٨٨٩ حذرهم فيه من ممالأة النجومى بقوله : " إن من كاتب الدراويش أو ساعدهم بشىء ما فعاقبه القتل ، ومن بقى على الولاء وفقد شيئا من زرعه فالحكومة تعوض عليه "(٤١).

كما بعث جرانفل باشا بعد وصوله إلى الحدود بكتاب إلى النجومى بدت فيه عبارات الحرب النفسية وسياسة التفرقة بقوله : .. " وأنا عالم سوء حالك ، وأنت عالم أنك فريسة لغيرة ذلك الخليفة الكذاب الذى جعل ابن عمه يونس عاملا فى مكانك وجعلك تحت طاعته وأرسلك أنت والأعراب الذين يخشى شرهم بحجة فتح مصر وإنما يريد هلاككم فإنه يعلم أن الذى أرسلكم إليه لمستحيل عليكم بل أنتم أيضا تعلمون ذلك ، ولكنكم لعماوة قلوبكم تظنون أن طاعة ذلك الكذاب واجبة ... وأنتم فيما نعلم طالبون بمبان ، فاعلموا أن بمبان تبعد عنكم مئات

الأميال ... بل هب أنكم وصلتم بانكم تلاقون فيها جيوشا إنجليزية ومصرية متعطشة لشرب دماء الأعداء ، وعليه فإذا تقدمت إلى الأمام فأنت هالك لا محالة ، وإذا رجعت إلى الوراء فإن جيوب حلفا واقفة لك بالمرصاد ، وإذا بقيت حيث أنت مت جوعا وعطشا فأصبحت كالطائر فى القفص لا منفذ لك ولا معين ... فقد جئتك بهذا أدعوك إلى التسليم فإذا سلمت سلمت أنت ومن معك من الأمراء " (٤٢) .

ومن هنا تتأكد لنا الفكرة التى أوردها شقير بأن الخليفة التعايشى أمر النجومى ، فسلم جميع الأسلحة إلى يونس الدكيم ولم يبق مع النجومى إلا الجيوش والأمراء الذين لا يأمن الخليفة جانبهم ولايهمه إن عاشوا أو ماتوا ، وبقى يونس فى دنقلة بجيش قوى بحجة المحافظة على دنقلة ونجدة النجومى عند الاقتضاء ، متوقعا للنتيجة ، حتى إذا فاز النجومى لحقه وانتفع بنصره وإلا بقى الجيش المصفى فى دنقلة (٤٣) .

أجابه النجومى فى اليوم التالى ١٧ يوليو بأن حضورهم ليس إلى بمبان فقط من أجل الماء وإنما إلى مصر لإدخال أهلها فى الدين : فمن صدق واتبع وسلم الأمر لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ومهديه " عم " وخليفته عليه الرضوان وسلم جميع ماكان معه من الأسلحة والجباخين أمناه على نفسه ... ومن خالف .. فالسيف حتى يحكم الله بيننا وبينه وهو أحكم الحاكمين (٤٤) .

موقعة طوشكى ١٣ أغسطس ١٨٨٩ : (٤٥)

ولما رأى السردار إصرار النجومى رجع إلى أسوان وحشد الجيوش لمواجهته فى طوشكى . وفى ٢٢ يوليو وصل إلى معسكر المصريين المدعو حسين حبشى فارا من جيش السودان وناقلا لجرانفيل المعلومات الكافية عن حالة جيش النجومى المتردية ، وفى ٢٥ يوليو وصلت إلى النجومى النجدات وهى عبارة عن خمسمائة مقاتل وثلثمائة بندقية (٤٦) . وبدأ النجومى الزحف ثانية إلى الشمال فى ٢٨ يوليو بعد ما توقف فى بلاجة ثمانية عشر يوما .

عندما علم ودهاوس بتحرك النجومى خرج بعساكره وأتى طوشكى ، خاف الجنرال ودهاوس من الدخول فى معركة ثانية مع الأنصار قبل أن يتأكد من تفوقه العسكرى فطلب المعونة من القاهرة وكان جرانفيل قائد الجيش قد حشد الجيوش المصرية ، تقدم من أسوان ووصل طوشكى فى ٣١ يوليو ١٨٨٩ (٤٧) . وفى أول أغسطس وصل النجومى إلى الجبال

المحيطة بطوشكى وعسكر على سطحها الغربى ليكون بمأمن من مدافع البواخر النيلية التى تطارده (٤٨) . وفى أغسطس وقعت معركة وهى من المعارك الحاسمة فى التاريخ العسكرى للمنطقة دامت خمس ساعات من الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقة إلى الساعة الحادية عشرة والثلاثين دقيقة صباحا ، عندما حاول النجومى أن يجمع شتات جيشه ليكر ثانية على المصريين ، لم يلبث أن أصابه الرصاص فسقط مجندلا على الأرض ومات(٤٩) . وانهزم الدراويش بعد ذلك .

وقد امتاز فى هذه الحملة من الضباط المصريين البكباشى على بك حيدر ياور السوارى وحسين أفندى رضوان من الطوبجية ومصطفى أفندى رمزى أركان حرب ، ومن الملكيين عبدالله أفندى فكرى وإبراهيم أفندى زيدان مترجم الحدود ونخلة أفندى تادرس مترجم الأورطة الحادية عشرة السودانية وحضر منهم ميدان القتال ملحم بك شكور وطنوس أفندى شحادة وإبراهيم أفندى زيدان(٥٠)، بالإضافة إلى قبيلة العبابدة فقد وقف أحمد بك حسين خليفة وأخوه ياسين بك وجماعة من قبيلتهم ومعهم مائة جمل مساندين لجيش الحكومة فى هذه الموقعة(٥١) .

وتبدو أهمية هذه بأن البريطانيين اعتبروها أول نصر لهم على السودانيين ، وغطوا بهذا النصر الهزائم التى ألحقها بهم عثمان دقنة فى شرق السودان ، وارتفعت الروح المعنوية عند البريطانيين والمصريين فى نضالهم ضد السودانيين .

وبهذه المعركة تكون تحطمت نهائيا آمال الخليفة التعايشى وتبددت أحلامه لقد اقتضت المغامرة المصرية فى النهاية ثمنا باهظا ، فلقد خسر الخليفة ذلك الملك الذى عمل ثلاث عشرة سنة بعزم لتأسيسه فى السودان .

ومنذ ذلك الحين زال الخطر لعدة سنوات تالية عن حدود مصر الجنوبية ، فقد هدأ الخليفة التعايشى ، ولأول مرة منذ عام ١٨٨٥ ساد الهدوء التام منطقة الحدود الجنوبية ، وتأيدت الثقة فى حسن استعداد الجيش المصرى الجديد ، وقد علق كرومر على آثار هذه المعركة فقال : " لقد أسفر انتصار طوشكى عن نتائج مهمة ، فقد وخز " فقأ " هذا الانتصار فقاعة المهدية ، وأبان أن الدراويش قد لا يزالون أقوياء لأغراض الدفاع فى صحاريهم النائية وغير

المضيافة ولكنهم لم يعودوا يبعثون على الخوف كمهاجمين أو معتدين ، لقد أعطى هذا الانتصار الثقة للجيش والشعب المصرى ولأوروبا(٥٢) .

بعد هذا النصر عاد الجيش المصرى إلى سرس فى ١١ أغسطس ١٨٨٩ وأمكن ترميم الخط الحديدى بينها وبين حلفا ، وكان الدراويش قد جعلوا حدودهم الشمالية فركة ، فلما رأوا الحكومة المصرية قد احتلت سرس تراجعوا إلى سوراده ، على مسافة مائة ميل من سرس وبقوا فيها إلى أن طردتهم الحكومة المصرية منها عام ١٨٩٦ .

وفى أكتوبر ١٨٨٩ أصدرت الحكومة المصرية منشورا إلى أهل السودان تستحثهم فيه على الرجوع إلى الولاء وأرسلته مع بعض أسرى طوشكى ، وقد جاء فيه : " فاغتنموا هذه الفرصة الجليلة وقدموا لأعتاب حكومته الخضوع تفوزوا بالمساعدات الجمة والنعم الجزيلة"(٥٣)

وفى عام ١٨٩١ بلغ صالح بك خليفة أمير عبابدة المليكاب أن الدراويش فى أبى حمد يستعدون للهجوم عليه فرأى أن يبادرهم هو بالهجوم ، فجهز رجاله وهاجم أبى حمد بغتة وقتل قائد رجال المهدى سليمان ودقمر فى هذه المعركة التى ظهر فيه النصر لصالح بك خليفة ، فجار الخليفة بعد هذه الواقعة على المليكاب الموجودين فى السودان وصمم على أن يثأر من صالح بك خليفة .

وفى ١٢ أبريل ١٨٩٢ عين كتشنر سردارا للجيش المصرى واسترجعت الحكومة دنقلة وسائر السودان بدأ من عام ١٨٩٦ ، إن بقاء الجيش المصرى فى سرس والمهديين فى سواردة جعل المهديين يغيرون على مناطق الحدود المصرية بالسلب والنهب ففى ٤ أبريل ١٨٩٢ أغاروا على سرس القديمة وفى ٢١ مايو أغاروا على منطقة سر الغرب شمالى حلفا وغنموا خمسين رأسا من الماشية ، وفى ٢٥ نوفمبر غزا جماعة الإنصار على بلدة قستل فقطعوا خطوط التلغراف بين كورسكو وحلفا .

موقعة امبقول :

لما رأى الدراويش أن السلطات المصرية لا تعير انتباهها الكلى لغزو سرس ، خربوا سكة الحديد سرس وحلفا وقدموا جهة امبقول حيث كانت هناك موقعة فى ٢ يناير ١٨٩٣

خسر فيها الدراويش ، ومن أبطالها المصريين الصاغ فؤاد أفندى قومنداى الهجانة التى كانت مقسومة فرقتين :- الهجانة المصرية وعليها الملازم محمد أفندى بركات - الهجانة الشايقية وعلى رأسهم سليمان أفندى عبدالله ، وحقق المصريون النصر .

غزوة بريس - يوليو ١٨٩٣ :٥٤

علم أمير دنقلة يونس الدكيم أن واحة بريس فيها خير كثير فجهز حملة لغزوها بقيادة عثمان الأزرق ، الذى رأى فى طريقه آثار قافلة مصرية متوجهة من سوهاج إلى وادى النطرون ، فغزاها ثم تابع الأزرق تقدمه إلى بريس حيث دخلها ونهب ما استطاع نهبه ، وكان أهالى المنطقة قد اتصلوا بمعاون الخارجة الذى استنجد بدوره بمديرية أسيوط فأرسلت له الجند لتهدئة روع الأهالى ، وخصصت الحكومة خمسة آلاف جنيه لتنفق على حماية الواحات فبنى العساكر طابية بريس وطابية فى الخارجة ، ومد خط تلغرافى من الخارجة إلى جرجا ، وأقيمت نقطة من قبائل الكبابيش فى بير الشب غربى حلفا على طريق الأربعين(٥٥) .

بقى الخليفة يتحين الفرص للقضاء على زعيم المليكاب العبابدة صالح بك ، وتوجه الأزرق أمير دنقلة بستمائة مقاتل إلى آبار المرات لضرب صالح بك الذى كان معه عشرة رجال مسلحون بالبنادق ، وقتل صالح بك فى المعركة وتولى أخوه عبدالحفيظ قيادة العبابدة الذين استطاعوا الصمود حتى الليل وانسحب الدراويش إلى دنقلة ، وقد أوصت الحكومة المصرية بعائلة صالح بك وأجرت لها مرتبا حتى بلوغ أولاده سن الرشد ، وبنت طابية حصينة فى المرات فى ديسمبر ١٨٩٣ (٥٦) . وفى هذا الموقف يظهر لنا حسن رعاية الحكومة المصرية لأبنائها على حدودها الجنوبية وحفاظها على مصالح رعاياها .

فى الطريق إلى دنقلة ١٨٩٦ :(٥٧)

الظروف المؤدية للحملة :

كانت حالة مصر السياسية والاقتصادية من ضمن العوامل المهمة فى انتشار ثورة المهدى ، وكانت إنجلترا ترى أن مصلحتها تقتضى عدم التدخل فى السودان ؛ لأنها لا تريد أن تدخل نفسها فى إرباكات جديدة خاصة وأنها كانت تود الخروج من مصر التى كانت بوضع الإفلاس ، والأهم من ذلك أن بوادر التكالب الاستعمارى على القارة الإفريقية لم تكن قد ظهرت بعد .

وعندما بدأت ألمانيا تنافس إنجلترا فى صناعتها ، وارتبط التوسع التجارى بالتوسع الصناعى ، واستتبع ذلك التوسع فى السياسة الاستعمارية ، هنا رأت إنجلترا أن من مصلحتها تغيير سياستها نحو مصر ، وبالرغم من وعودها المتعددة بالجلاء صممت على الاحتلال الدائم بعد أن ازداد الخطر الاستعمارى على وادى النيل من الجنوب والشرق ، فمن الجنوب فرنسا فى إفريقيا الاستوائية ، ومن الشرق إيطاليا فى إريتريا وكسلا .

وعندما نشبت الحرب بين إيطاليا والحبشة ، وانتصرت الحبشة فى ١٨٩٦/٣/١ فى موقعة عدوة ، استنجدت إيطاليا بإنجلترا لكى يقوم الجيش المصرى بمناورة عسكرية من حلفا أو سواكن لجذب أنظار الخليفة بعيدا عن كسلا ولمنع اتحاد دولتين إفريقيتين من القضاء على نفوذ دولة أوروبية ، لذلك رأت السياسة البريطانية أن تلبى النداء وتصطاد عصفورين بحجر واحد ، وذلك بالقيام بحملة تسترجع بها دنقلة وفى الوقت نفسه تساعد إيطاليا(٥٨) .

كان الدراويش يتحينون الفرص للإغارة والغزو على المنطقة الحدودية ، ويرجعون قبل أن تدركهم العساكر المصرية ، فأقلقوا سكان المنطقة الحدودية شرقا وغربا(٥٩) ، استعد قائد الجيش المصرى كتشنر حربيا وهندسيا ، وسخر كل القوى لإعادة فتح السودان وذلك ببناء خط حديدى(٦٠) يمتد من حلفا ويتجه جنوبا ليستعيض به عن نقل الجمال البطيء ويؤمن خطوط تموين مواصلاته .

قام كتشنر سردار الجيش المصرى بقيادة الحملة بنفسه ، وكان الجيش يتكون من وحدات مصرية وأخرى سودانية ، واستعرض الخديوى آخر فوج يرحل إلى الحدود فى القاهرة يوم ١٥ مارس ١٨٩٦ ، ومن هنا تتضح السرعة التى اتسمت بها العمليات الحربية لاستعادة السودان ، فبينما كان رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها اللورد سالسبرى يصرح فى آخر فبراير ١٨٩٦ بأن أسلم سياسة لبريطانيا فيما يتعلق بالسودان هى الانتظار والترقب نجد أن موقف بريطانيا بعد هزيمة إيطاليا فى الحبشة يؤدى بها إلى بدء العمليات الحربية فى فترة نصف شهر من حادثة عدوة .

وفى ١٨ مارس ١٨٩٦ صدرت الأوامر بإرسال العساكر إلى عكاشة وتأسيس نقط حربية بينها وبين حلفا ، وبدأ الخط الحديدى بطريق الصحراء ، وفى ٢٩ مارس وصل قائد الجيش إلى حلفا بأركان حربه وبدأ يستعد للمعركة .

ولما علم الدراويش بتحرك الجيش إلى عكاشة ، تقدموا من سواردة إلى كوشة واحتلوها في ١٢ أبريل ١٨٩٦ ، ثم تقدموا إلى فركة واحتلوها في ٢٨ منه ، وأرسل أمير دنقلة محمد بشارة المساعدات إلى الدراويش في فركة فأصبح عددهم ألف وستمائة وخمسين رجلا .

ولما صدر الأمر بالحملة على دنقلة كان مجموع قوة الجيش المصرى ١٦٦٨٠(٦١) رجلا منهم نحو سبعمائة ضابط ، كما كان في خدمة الجيش نفر من قبائل العبابدة والكبابيش والعليقات زاد عددهم على أكثر من ألف شخص وحصنت بهم فقط الصحراء الشرقية والغربية(٦٢) .

وكان ود بشارة مقيما في دنقلة له الإدارة المدنية والعسكرية في حين كان في فركة قوة مرابطة قابعة له تحت قيادة حمودة إدريس ، وكانوا قابعين في فركة ينتظرون ملاقاة كتشنر ولم يسمحوا لأنفسهم بغارات خاطفة على قوة كتشنر وهي تمد الخط الحديدى لتسهيل خط مواصلاته ، وذلك أن قوة حمودة لم تتعد الثلاثة آلاف معظمهم من قبائل الغرب(٦٣) .

ظل المهندسون يعملون في تمديد الخط والذخائر والمؤن تتجمع في حلفا ، والجيوش الهندية تحل محل الجيش المصرى في سواكن ، وتسنى بذلك لكتشنر أن يحشد قوة تبلغ العشرة آلاف رجل على أتم الاستعداد من حيث التدريب والأسلحة والمؤن .

وفي أول مايو تحرك كتشنر من حلفا إلى عكاشة ، واشتبكت دورية من الجيش مع قوة كبيرة من الأنصار جنوبي عكاشة وكان غرض الأنصار جر عساكر عكاشة إلى الصحراء للإيقاع بهم ، واستطاعت العساكر المصرية أن تتخلص من هذا الكمين وترجع إلى معسكرها بعد إصابات قليلة نسبية(٦٤) .

ويقال بأن قائد الدراويش في المنطقة حمودة إدريس أظهر بعض الجبن فشكاه الأمراء إلى أمير دنقلة محمد بشارة فعزله وسمي عثمان الأزرق مكانه .

موقعة فركة :

قرر السردار المصرى طرد الدراويش من فركة لاعتراضهم حملات النقل ومحاولاتهم منع العمل في سكة الحديد ، وقد صمم على مهاجمتهم بطريق الصحراء وطريق النيل معا .

تحرك كل الجيش من عكاشة فى ٦ يونيو ليباغت الأنصار فى فركة ، ولا يترك لهم مجالا للانسحاب ، وكانت الانظار متجهة لهذا اللقاء الأول ، فهو الامتحان الثانى بعد واقعة طوشكى للجيش الجديد(٦٥) ، وكانت الظروف كلها تدل على أن النصر سيكون فى صالح الجيش المصرى(٦٦) . وفى فجر السابع من يونيو ١٨٩٦ اقترب الجيش من فركة ، والدراويش إذ ذاك يؤدون صلاة الصبح فما شعروا إلا والقنابل تنصب عليهم من كل جهة ونشب قتال عنيف دام حوالى ساعتين ، وحوالى الساعة السابعة انتهى الأمر وتغلب الجيش المصرى على جند المهدية ، وتنفس كتشنر الصعداء فقد كسب الجيش الجديد المعركة .

بعد هذه المعركة أقام قائد الجيش المصرى معسكرا فى جنوب فركة ثم انتقل إلى كوشة وجعلها مركز الجيش واهتم بإتمام سكة الحديد إليها ، ونقل البواخر وأرسل من فركة إلى أهل السودان منشورا مبينا فيه بطلان الدعوة المهدية وأن الحكومة المصرية أتت لانتشالهم من الظلم الذى أوقعهم به التعايشى ذلك الخليفة الذى كان لا يملك شروى نقير .. استأثر بأموال الرعية كلها وسكن القصور المشيدة واتخذ نساء المؤمنيين سرارى له واستحل وطأهن بلا عقد ولا ملك يمين . ويبين ايضا السياسة الخاطئة التى اتبعها التعايشى بإقصاء آل المهدى عن الحكم وتعيين عشيرته وأقاربه : " .. وقد سجن الخليفة شريفا وأهان الخليفة ودحلو وأولاد المهدى وقتل إبراهيم عدلان وأقارب المهدى مثل عبدالقادر ودساتى ومحمد عبدالكريم " .

فى هذا الوقت هاجمت الكوليرا الزاحفة عليهم جنوبا من مصر مارة بأسوان وحلفا ثم عبرت محطات الخط الحديدى وحلت بالمعسكر الذى انتقل جنوب فركة وحصدت ثمانمائة من الجنود والمدنيين ، ثم تفشى فى الجيش حمى التيفود وأخذت نصيبها منه .

وفى أوائل أغسطس اهتم السردار بإتمام السكة الحديدية إلى كوشة وأخذ الجيش ينقل عليها المؤن والذخائر واكتملت سلسلة المآسى التى أصابت الجيش بدءا بالكوليرا ثم التيفود وانتهت بانفجار خزان باخرة جديدة أنزلت إلى الماء قصد تجربتها فتأخر فى كوشة مدة(٦٧) .

وفى ٢٧ اغسطس هطلت الأمطار بغزارة شمالى عكاشة وخربت عشرين ميلا من سكة الحديد بين المرات وسرس وأمر السردار جميع من توفر لديه من العساكر بإعادة بناء الخط واستأنف السردار ترحيل العساكر جنوبا ، واجتمع الجيش كله مع البواخر فى دلقو فى ١٣ سبتمبر ١٨٩٦ .

موقعة الحفير :

وفى ١٦ سبتمبر تحرك الجيش المصرى باتجاه الكرمة ووقف مقابل الحفير ، حيث علمت استخباراته أن ود بشارة ينوى الصمود والمنازلة ، ولكنه عبر إلى الضفة الغربية ، حين علم أن قوة الجيش المصرى تفوقه عددا وعدة ، فتحصن فى الحفير عند الشلال الثالث .

اجتازت البواخر المصرية حصون الأنصار بعد ما جرى تغطيتها بنيران كثيفة ، واستطاعت هذه البواخر أن تسير باتجاه دنقلة الأمر الذى جعل ود بشارة يظن أن كتشنر ينوى الزحف جنوبا بالضفة الشرقية ، وتحت حراسة جنوده وحماية بواخره يعبر إلى دنقلة فى الضفة الغربية فأخلى بشارة الحفير بسرعة ليرابط ويدافع عن دنقلة عاصمته .

وفى هذا يقول شقير : " وكان مرورنا بالحفير تحت قنابل العدو ورصاصة مخاطرة شديدة لكن السردار رأى أنه لابد من هذه المخاطرة لأنه أراد أن يزحزح الدراويش من الحفير ويعبر إليها بالجيش فيهاجمهم فى ديمهم وقد فاز فى تدبيره هذا كل الفوز ، فإن الدراويش لما رأوا البواخر تجاوزت الحفير قلقوا أشد القلق على ديمهم وعيالهم التى تركوها فيه ، وكان مدير المخابرات قد أرسل إليهم رسلا من أهل البلاد فأشاعوا أن الجيش لاحق بالوابورات فى البر الشرقى ليعبر بها إلى دنقلة ويستولى على الديم ، وأنه لم يبق إلا الطوبجية لمشاغلتهم فازداد قلقهم وما أرخى الليل سدوله حتى أخلوا الخفير وأسرعوا إلى ديمهم فى دنقلة فوصلوه فى صباح ٢٠ سبتمبر "(٦٨) .

فى فجر هذا اليوم عبر الجيش المصرى إلى الحفير فى الضفة الغربية وواصل زحفه جنوبا نحو دنقلة ليحاصرها من الجانب الصحراوى وتصلها البواخر من الناحية النهرية ، وقبل أن يطل الجيش البرى الزاحف على دنقلة كان أسطول الخديوى يطلق قذائفه على أنصار المهدى ، ثم ظهرت بشائر الجيش وبدا كأن المدينة ستقع بين فكى كماشة ، وعندما تبين لود بشارة ضعف موقفه بعد لقائه مع أمراء جيشه وعدم قدرته على رد الجيش المصرى إلى مصر ، كان قرار الانسحاب إلى الدبة تمهيدا لطلب النجدة من أم درمان(٦٩) .

الدخول إلى دنقلة :

قرر ود بشارة الانسحاب إلى الدبة ومنها تراجع فى ٢٤ سبتمبر عبر صحراء البيوضة للوصول إلى المتمة٧٠ ، ودخل الجيش المصرى إلى دنقلة ورفع العلم المصرى على بناء

المديرية ، وكان قد طوى قبل أحد عشرة سنة ، وتعقب الجيش المصرى الأنصار وتقدم إلى جهات دنقلة يحتلها دون مقاومة حتى وصل مروة .

الدخول إلى مروة :

وانتهت مهمة الجيش المصرى باسترجاع مديرية دنقلة ، وغادر كتشنر دنقلة إلى إنجلترا ليدافع عن قضية استمرار الزحف ومحاربة المهدية فى عاصمتها أم درمان ؛ لأن الخطط الحربية تقضى بالاستمرار ولأن الجيش قد ابتعد عن قواعده ، وسوف تتعرض خطوط مواصلاته لهجمات من الأنصار ، بل إن مواقعه فى دنقلة أصبحت مهددة أكثر بالانقضاض عليهم من جهات عدة ، وبهذا بدأ كتشنر حملته الهادفة للقضاء على المهدية فى السودان ، وتابع طريقه باحتلال الدبة فى ٢٤ سبتمبر ١٨٩٦ ، وكان ود بشارة قد أرسل مشايخ السكوت والمحاس إلى الدبة بنية إرسالهم إلى أم درمان خوفا من انضمامهم إلى الجيش ، فلما رأوا الجيش المصرى أقبلوا عليه يرحبون به ، وفى ٣٠ سبتمبر وصل السردار كتشنر مع نجيب بك وسلاطين باشا إلى المروة .

وقد امتاز فى هذه الحملة من الضباط المصريين : القائمقام محمد بك بكير من الطوبجية وعبدالجواد بك برهان قائد الأورطة الخامسة ومحمد بك خلوصى قومندان الأورطة الثامنة وسليم بك موصللى من القسم الطبى .

ومن رتبة بكباشى : أحمد أفندى زكى وإسماعيل أفندى همت ، وعبدالسلام أفندى زكى من أركان حرب ، وحسين أفندى شريف من السوارى ، ومحمد أفندى مختار من الطوبجية وإبراهيم أفندى صبرى من الأورطة الأولى ، ومحمد أفندى رفعت من الأورطة الخامسة وعثمان أفندى عفت من الأورطة السابعة ، ومصطفى أفندى فكرى من الأورطة الثامنة ، وإبراهيم أفندى ذهنى من الورطة الخامسة عشر .

وامتاز من القسم الطبى أحمد أفندى فضلى والصاغ حسين أفندى طلعت ومحمد أفندى المهدى ، عند انتشار الكوليرا(٧١) .

هناك عامل آخر لعب دوره المهم أيضا فى التاريخ العسكرى لجنوب مصر ، وهم القبائل الذين انتشروا فى المنطقة الحدودية ، ومنهم قبائل البجة ومنها البشاريون ، وكذلك قبائل

الكبابيش والهواوير إلا أن أهمها قبائل صحراء النوبة ومنها النديجة والكنوز وكذلك قبائل العبابدة .

ولهذه القبائل دور مهم تعدى مرحلة إمداد الحملات بالجمال ، وتأمين المواصلات ، إلى مرحلة سياسية كتولى الوظائف القيادية أو القيام بعمليات عسكرية مساندة ، أو إنقاذ أسرى سياسيين كانت المهدية تحتفظ بهم ، وباستعراض بسيط لبعض هذه القبائل أذكر :

البشاريون :

البشاريون : وهم قسمان : بشاريو الشمال (أم على) وبشاريو الجنوب (أم ناجى) ويعيش بشاريو الشمال بين البحر الأحمر وأسوان ، ولهم تجارة مع مصر فى الإبل التى يبيعونها لكى يشتروا حاجتهم من الجنوب وبعضهم يشتغل فى مناجم الذهب بوادى العلاقى .

فيقول ساندرز فى مقالته عنهم إن الحكم المصرى كان رفيقا لهم ولم يحاول قهرهم أو السيطرة التامة عليهم ، بل كان يكثر من مجاراتهم على أهوائهم ما داموا مسالمين بعيدين عن كل عدوان والضرائب المفروضة عليهم كانت خفيفة .

وفى عهد المهدية كانت أوضاع بشاريى الشمال الموجودين فى مصر مختلفة عن أوضاع بشاريى الجنوب التابعين للحكم المهدى والذى حاول إخضاعهم ونجح فى ذلك . وحاولت المهدية توحيد بشاريى الشمال والجنوب تحت سلطة رجل واحد ولكن ذلك لم يتم ؛ لأن رؤساء العشائر لم يكونوا متحمسين لذلك(٧٢) .

كما شهد جنوب مصر هجرات نوبية وخاصة من المحس والسكوت هربا من الإرهاق فى زمن الدولة المهدية ، واتجهوا شمالا إلى وادى حلفا ونزلوا بينها وبين كروسكو ، وهؤلاء هم الفيدجة . وبفضل هذه الهجرة أصبح للمحس والسكوت أوطان داخل حدود مصر كما هى حال قبائل الكنوز(٧٣) الذين يعيشون فى الجزء الممتدد من كروسكو لأسوان .

الكبابيش :

وكان لقبيلة الكبابيش التى عاشت فى الصحراء شمالى كردفان موقف معارض للمهدية ، وكان المهديون قد أعدموا شيخهم السابق فقام أخوه الشيخ صالح فضل الله وسالم الكباشى

بالثورة على المهدية ، وقدموا المساعدة لحملة إنقاذ جوردون ١٨٨٤ . وكان الكبابيش يطمعون فى الاستيلاء على مديرية دنقلة أكثر من الثورة لإسقاط الخليفة . وقد تلقى ثوار الكبابيش مساعدة من الحكومة المصرية عبارة عن قافلة محملة بالبنادق والذخيرة .

العبابدة :

إن أهم القبائل التى لعبت دورا فى التاريخ العسكرى جنوب مصر قبائل العبابدة الذين اخترتهم كمثال لقبائل المنطقة لولائها للحكم المصرى ، فالعبابدة كان لهم دورهم فى بناء الخط الحديدى حلفا – أبى حمد الصحراوى . فهم الذين يسيطرون على آبار المرات وقواتهم بقيادة عبدالعظيم بك حسين خليفة بقيت موالية للحكومة المصرية . فقد ساهم عبدالعظيم بك فى موقعة أبى حمد فى ١٧ أغسطس ١٨٩٧ . حيث طلب منه السردار أن يوافى هنتر باشا فى أبى حمد فوافاه إليها بأربعين رجلا(٧٤) . كما أن تمركز العبابدة بين مصر والسودان جاء فى موقع استراتيجى هو منطقة بربر التى كانت محطة تموين ومركز حشد لمعدات الحرب .

لعب العبابدة دورهم بحنكة عندما وجدوا أنفسهم فى خضم أحداث الثورة المهدية وفى موقف لا يحسدون عليه . وكان زعيمهم آنذاك حسين باشا خليفة الذى كان يدين بالولاء للإدارة المصرية ، فإذا به يجد نفسه أمام تيار جارف للمهدية يكتسح السودان ويصل إلى شماله حيث معتقل العبابدة ، وأنه لا محالة أن يكون من الغارقين فيه " وللحقيقة التاريخية نقرر أن حسين باشا خليفة العبابدة قد أثبت إخلاصه للإدارة المصرية رغم هزيمته فى بربر على يد رجال المهدية ، وسوقه إلى المهدي ليلاقى جزاء إخلاصه لهذه الإدارة .

وقد استطاع هذا الرجل بما أوتى من دربة وحنكة أن يقنع رجال المهدى بإخلاصه لهم وأنه سوف يحاول تقديم خدماته لهم ، لكنه لم يفعل ، وحين قدم للمحاكمة لم يجدوا ما يدينه فبرئ بل وأعيد للعمل فى الإدارة المصرية حتى وفاته .

يمكننا أن نعتبر العبابدة مفتاحا لفهم الشخصية المصرية والسودانية وعاملا مهما للتقارب بين الشعبين المصرى والسودانى ... فالعبابدة من خلال مصالحهم التجارية ومصاهرتهم للسودانيين ووجود عائلات منهم مشتركة بين مصر والسودان على امتداد التاريخ يمكنهم أن يلعبوا دورا مهما لايجاد لغة حوار مشتركة (٧٥) .

أختم بالقول بأن الضربة التى تلقاها الجسم العسكرى المصرى بعد أحداث عرابى من تسريح لعناصره ونفى لضباطه ، جعل الكثير يعتقد بأن إعادة بناء هذا الجسم هى مهمة صعبة ؛ لأن العقلية الفلاحية لهذا الشعب لا تسمح ببناء هيكلية عسكرية قوية وبصورة سريعة. وثبت العكس عندما أعيد بناء الجيش المصرى فى فترة قد تزيد عن السنتين ، واستطاع هذا الجيش أن يخوض غمار حرب السودان عام ١٨٨٤ .

وإذا اعتقدت القيادة البريطانية بأن هذا الشيء تم بقدرتها ، إلا أننا لا نستطيع أن نتغاضى عن تصريحات هذه القيادة بكفاءة الجندى المصرى والتزامه تنفيذ الأوامر وصموده .

الهوامـــــش

١- الأمير عمر طوسون : بطولة الأورطة السودانية المصرية فى حرب المكسيك - الإسكندرية ١٩٣٣ . وقد ورد فى ص ١١ رسالة قائد فيراكروز إلى القائد العام عن معركة نشبت فى ١٢ أكتوبر ١٨٦٣ : لقد كلل هذا القتال رؤوس السودانيين المصريين الذين قاموا بأعبائه بأسمى أكاليل الفخر فإنهم لم يبالوا بالنار المنصبة عليهم من الأعداء وردوهم وهم يزيدون فى العدد عليهم تسع مرات على أعقابهم مدحورين .
والجدير بالذكر أن عدد هذه الأورطة كان ٤٥٣ وعادت وعددها ٣١٣ - وقد استعرضها بعد عودتها الإمبراطور نابليون الثالث فى ٢ مايو ١٨٦٧ .

٢- حسبنا فى تأييد هذا القول أن نورد البراءة التى أصدرتها المحكمة العسكرية البريطانية فى قضية تسليم الخرطوم ومحاكمة قائد الألاى الخامس المصرى فى الخرطوم حول مسئوليته فى سقوط الخرطوم فقد جاء فى قرار المحكمة : " أنه لم تكن هناك أية خيانة ، وأن رجال جوردون البسطاء من المصريين والسودانيين الموالين لمصر قد قاسوا معه أشد أنواع المقاساة دون أن يثوروا - راجع جلال يحيى : مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٤٣٣ .
وأن ننوه ثانية بشهادة جهر به اللورد كتشنر بعد زيارته الخرطوم عام ١٩٠٢ تلبية لدعوة الضباط المصريين فى السودان ، خطب كتشنر يصف المآزق التى مر بها فى حرب البوير ويقول : " كثيرا ما فكرت وأنا فى تلك المآزق فى شجعانى المصريين وتمنيت أن

يكونوا إلى جنبى عبدالرحمن زكى : تاريخ الجيش المصرى ؛ وزارة الدفاع ، المتحف الحربى ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ١٢ .

٣- عن حملة إسماعيل ومساعدة قبائل أولاد على والعبابدة له لفتح السودان راجع عبدالرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٠ ، ص ٩٨ وما بعدها .

٤- HOiT.P.M : A Modern History of the Sudan (From the FUNJ Sultanate to the present day); Weidenfeld and Nicolson, London 1961, Second ed., Part II, ch : 6 , pp . 77 - 91 .

وكذلك راجع .

Obert Voil . John : The Sudan ; Unity and Diversity in a Multicultural state , Croom Helm, London 1985, pp. 39 - 17 .

٥- محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ - ١٨٨٥ ، دار الفكر العربى ١٩٤٧ ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ .

٦- " The Egyptian fellaheen had been metamorphosed by the British officers into a reliable and courageous solidiery " Alford : Henry . 5 . L. the Egyptian soudan its loss and Recovery Negro Universities press . New york 1969 . P . 34

٧- مكى شبيكة : تاريخ شعوب وادى النيل ، مصر والسودان فى القرن التاسع عشر دار الثقافى بيروت ١٩٦٥ ص ٦٦٤ ، انظر أيضا للمؤلف : مختصر تاريخ السودان ، ص ٥٣.

٨- جلال يحيى : مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٤١٢ .

٩- المرجع السابق ، ص ٤١٦ .

١٠- مكى شبيكة : تاريخ شعوب .. مرجع سابق ، ص ٦٧٠ .

١١- سلاطين باشا : السيف والنار فى السودان . والذى أورد فيه قصة أسره عند المهدى ثم عند خليفته وبعد ذلك قصة فراره . ويعتبر هذا الكتاب مصدرا لتاريخ السودان فى عصر المهدية - ص ١٢٧ .

١٢- جلال يحيى : مصر الأفريقية ، مرجع سابق ، ص ٤٢٣ .

١٣- بلغ الغضب بجوردون منتهاه وأمر بحرق هدية الجبة بعد أن ركلها برجله وأملى خطابا ترجم بالعربية إلى محمد أحمد المهدى تهجم فيها عليه وهدده . وزاد جوردون على ذلك بأن أمر حشدا من علماء المسلمين ليكتبوا تكذيبا لدعواه المهدية .

١٤- ميمونة حمزة : حصار وسقوط الخرطوم : جامعة الخرطوم ١٩٧٢ ، ص ١٠٤ ، وما بعدها.

١٥- وكان جوردون يحتقر سلاطين باشا ورجال حملة هكس الذين اعتنقوا الإسلام والموجودين عند المهدى ولم يرد على مراسلاتهم العديدة له للتعاون معه .

١٦- المتمة تقع على النيل غربى شندى جنوبى بربر شمالى أم درمان .

١٧- أورد سلاطين باشا فى كتابه السيف والنار ... أن المهدى كان يريد جوردون حيا ليفتدى بعرابى . ولم ترد هذه الرواية فى أى مصدر آخر . وعن الانعكاسات الناتجة عن موت جوردون راجع :

- Fabunmil . A : The Sudan IN Anglo - Egyptions . (A Scse Study IN Power Pplitics) 1800 - 1956 Longmans - London - 1960 P : 11

- Magnus . Philp : Kitchener : Poruait of an I mperialist . London : John Murray 1958 P . 61 .

١٨- مكى شبيكة مختصر تاريخ السودان ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٦٨ .

١٩- عن العلاقات الدولية لهذه الفترة راجع Magnus : Kitchener . p . 61

٢٠- جلال يحيى ، مصر الأفريقية ، مرجع سابق ، ص ٤٧٢ .

٢١- نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ .

٢٢- عن موت المهدى راجع : Fabunmi , L . A : The Sudan .... p . - 16

٢٣- مكى شبيكة : مختصر تاريخ مصر والسودان ، مرجع سابق ، ص ٧٠ .

٢٤- حمدنا الله مصطفى حسن : العبابدة تحت الإدارة المصرية فى السودان ١٨٢٠ - ١٨٩٧ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٩١ ص ص ٧١ - ٧٢ .

٢٥- Holt . P . M .: A Modern History ... pp . 92 to 108

٢٦- - HOLT . P . M : A Modern History ... pp. 92 . ff.

٢٧- Wingate F . R : Mahdism and The Egyptian Sudan second . Cass London 1968 . pp . 307 ff .

٢٨- راجع هذه التشكيلة وتفاصيل المعركة فى شقير : مرجع سابق ، ص ٩٩٨ وما بعدها .

٢٩- محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان وتاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

٣٠- الكلابشة تقع جنوبى أسوان على مدار السرطان مباشرة .

٣١- نعوم شقير : مرجع سابق ص ١١٠٥ .

٣٢- تقع آبار المرات فى صحراء العيتمور فى منتصف طريق أبى حمد - كورسكو تقريبا.

٣٣- نعوم شقير : مرجع سابق ص ١١٠٦ .

٣٤- تقع أرمنة على بعد ٥٠ ميلا شمالى حلفا .

٣٥- التوفيقة : مدينة استحكامات فى حلفا ، سميت بهذا الاسم نسبة إلى مسجد فيها بناء الخديو توفيق . راجع نعوم شقير : مرجع سابق ، ص ٩٤ .

٣٦- نعوم شقير : مرجع سابق ، ص ١١٠٦ .

٣٧- أرجين : بلدة مستطيلة على الجهة الغربية من النيل شمال وادى حلفا تمتد على النيل أربعة أميال فى وسط غابة من النخيل فى طرفها الجنوبى طابية صغيرة على نحو ٣ أميال من حلفا وفى طرفها الشمالى بيت العمدة ، راجع شقير : مرجع سابق ، ص ١١١٢ ، كذلك ضرار صالح ضرار ، : تاريخ السودان الحديث ؛ بيروت - دار الحياة ١٩٦٥ ص ١٨٤ .

٣٨- نعوم شقير : مرجع سابق ، ص ١١١٢ راجع أيضا مكى شبيكة : تاريخ شعوب ، مرجع سابق ، ص ٧٢٢ .

٣٩- محمد فؤاد شكرى مصر والسودان ، مرجع سابق ، ص ٣٩٣ .

٤٠- ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ؛ بيروت - دار الحياة ، ص ١٨٤ ، نعوم شقير : مرجع سابق ، ص ١١١٦ وحول هذا الموضوع راجع أيضا محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ؛ مرجع سابق ، ص ٣٩٣ - ومكى شبيكة : تاريخ شعوب ، مرجع سابق ، ص ٧٢٣ وما بعدها وشبيكة أيضا مختصر تاريخ السودان ، ص ٨٧ .

٤١- نعوم شقير : مرجع سابق ، ص ١١٢٨ .

٤٢- المرجع السابق ، ص ١١١٧ .

٤٣- المرجع السابق ، ص ١١١٠ .

٤٤- شكرى : مصر والسودان ، مرجع سابق ، ص ٣٩٤ ، وكذلك شقير : مرجع سابق ، ص ١١١٨ .

٤٥- طوشكى : بلدة غربى النيل تبعد ٦٠ ميلا شمالى حلفا فيها نخل كثير وإلى جنوبها جبال

تبعد رابعة أميال عن طوشكى . راجع أيضا Alford . Henry .SL:The Egyptian Sudan ... P . 33 .

٤٦- شقير : مرجع سابق ، ص ١١٢٠ ، وشكرى : مصر والسودان ، مرجع سابق ، ص ٣٤٩.

٤٧- راجع تشكيلات الجيش المصرى الإنكليزى المجتمعة فى طوشكى بالتفصيل فى نعوم شقير ، مرجع سابق ، ص ١١٢١ .

٤٨- راجع تشكيلات الجيوش القتالية والخطة التى اعتمدها جرانفيل لهذه المعركة ساعة بساعة مع الإحصائيات للقتلى والجرحى والغنائم والأسرى عند شقير ، مرجع سابق ، ص ١١٢٢ - ١١٢٧ .

٤٩- Wingate : F . R : Mahdism ... Book 10 pp . - 128 - 131

٥٠- شقير : مرجع سابق ، ص ١١٢٧ .

٥١- حمدنا الله مصطفى - العبابدة ... مرجع سابق ، ص ٧٣ .

٥٢- محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان ، مرجع سابق ، ص ٣٩٤ .

٥٣- شقير : مرجع سابق ، ص ١١٣٠ .

٥٤- تقع بريس فى الوادى الجديد على طريق الأربعين .

٥٥- شقير : مرجع سابق ، ص ١١٩٢ .

٥٦- المرجع السابق ، ص ١١٩٣ .

٥٧- Magnus . Kitchener .... P . 101

٥٨- شبيكة : مختصر تاريخ .... مرجع سابق ، ص ص ٩٥ - ٩٦ .

٥٩- Alford . Henry : The Egyptian Sudan pp . 134 ff

٦٠- ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث . بيروت دار مكتبة الحياة ، ١٩٦٥ ص ٢٠٠ وما بعدها ، وكذلك مكى سبيكة : تاريخ شعوب ، ص ص ٧٥٧ - ٧٥٨ .

٦١- شقير : مرجع سابق ، ص ١١٩٩ .

٦٢- المرجع السابق ، ص ١٢٠٠ .

٦٣- شبيكة تاريخ شعوب ، مرجع سابق ، ص ٧٥٧ .

٦٤- المرجع السابق ، ص ٧٥٨ .

٦٥- Magnus : Kitchener . P . 97 انظر أيضا .

نعوم شقير : مرجع سابق ، ص ١١٩٣ حتى ١٢٠٦ ، وفيه ذكر الخطط والوقائع وتأليف إدارة الجيش كذلك والقبلى والأسرى والغنايم . لذلك راجع عن الموقعة مكى شبيكة :

تاريخ شعوب ، مرجع سابق ، ص ٧٥٨ وشبيكة أيضا مختصر تاريخ السودان ص ٤٣٥ - ٤٣٦ .

٦٦- ضرار : مرجع سابق ، ص ٢٠٠ وما بعدها ، والجدير ذكره أن سلاطين باشا الذى كان قد استطاع الفرار من الأسر شارك فى هذه الحملة وكانت بينه وبين الخليفة مراسلات . راجع شقير : مرجع سابق ، ص ١٢١٩ - ١٢١١ .

٦٧- لمعرفة أسماء الوابورات التى عبرت الشلالات فى هذه الفترة ، راجع شقير ، مرجع سابق ، ص ١٢١٠ .

٦٨- نعوم شقير ، مرجع سابق ، ص ١٢١٤ .

٦٩- حول هذا الموضوع راجع شقير ، مرجع سابق ، ١٢١٧ .

٧٠- المتمة تقع غربى شندى .

٧١- عبدالرحمن زكى : أعلام الجيش والبحرية فى مصر أثناء القرن التاسع عشر ، الجزء الأول ، مطبعة الرسالة ، وكذلك شقير ، مرجع سابق ، ص ١٢٢٢ .

٧٢- محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله ، القاهرة ١٩٥٦ ، لجنة التأليف والنشر والترجمة ، ط ٢ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

٧٣- المرجع السابق ، ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

٧٤- حمدنا الله مصطفى حسن . العبابدة ، مرجع سابق ، ص ٧٤ .

٧٥- المرجع السابق ، ص ١٧٧ .

المصادر والمراجع

باللغة العربية

٦- الأمير عمر طوسون : بطولة الأورطة السودانية المصرية فى حرب المكسيك - الاسكندرية ، ١٩٣٣ .

١- جلال يحيى : مصر الأفريقية والأطماع الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

٤- عبدالرحمن زكى : تاريخ الجيش المصرى : وزارة الدفاع المتحف الحربى القاهرة ١٩٣٩ .

٥- عبدالرحمن زكى : التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٠.

٨- محمد فؤاد شكرى : الحكم المصرى فى السودان ١٨٢٠ - ١٨٨٥ ، دار الفكر العربى ، ١٩٤٧ .

١٠- مكى شبيكة- تاريخ شعوب وادى النيل ؛ مصر والسودان فى القرن التاسع عشر ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥ .

١١- مكى شبيكة - مختصر تاريخ السودان ، معهد الدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٣- سلاطين باشا : السيف والنار فى السودان ، تعريب جريدة البلاغ ، مكتبة الحرية أم درمان - ١٩٣٠ .

١٢- ميمونة حمزة : حصار وسقوط الخرطوم ، جامعة الخرطوم ، ١٩٧٢ .

١٣- نعوم شقير : جغرافية وتاريخ السودان ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٧ .

٢- حمدنا الله مصطفى حسن : العبابدة تحت الإدارة المصرية فى السودان ١٨٢٠ - ١٨٩٧، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٩١ .

٩- محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان وتاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر - القاهرة ، ١٩٥٨ .

٧- محمد عوض محمد : السودان الشمالى سكانه وقبائله لجنة التأليف والنشر والترجمة ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

باللغةالأجنبية

1- Alford, Henry S. L. The Egyptin Soudan, its Loss and Recover; Nekro Universities Press. New York 1969

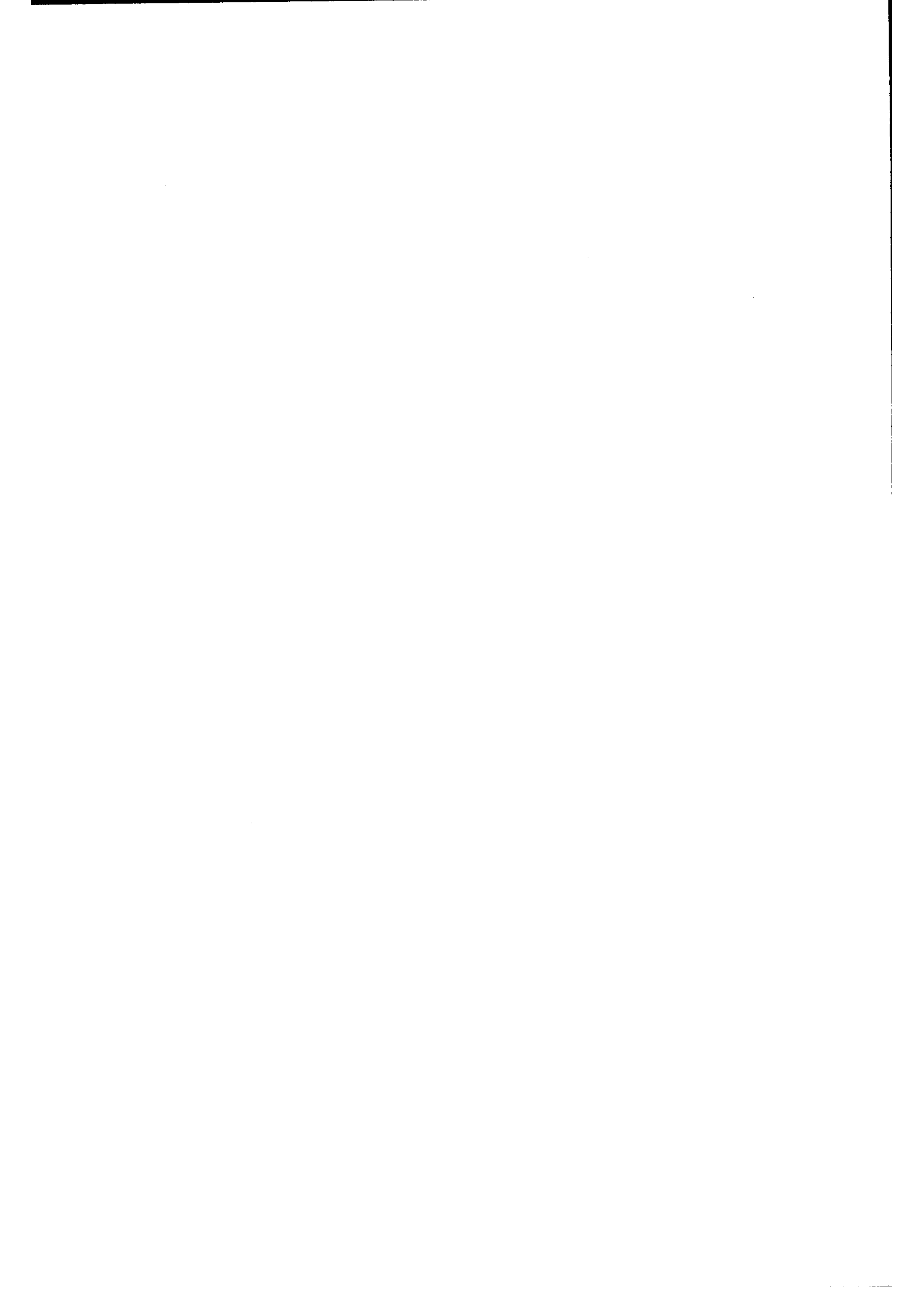
2- Fabunmi L.A: The Sudan in Anglo - Egyptian Relaions (Acase Study in Power Politics) 1800 - 1956; Longmans - London - 1960 .

3- Holt: PM. A Modern History of The Sudan (From The Fuxj Sulanate to The Present Day) ; Weidenfeld And Nicolson - London 1961 Second ED .

4- Magnus , Philip: Kitchener, Portrait of an Imperialist ; London : John Murray Imperialst 1958 .

5- Obert : Voll John : The Sudan Unity and Diversity in a Multicultural State ; Croom Helm - London - 1985 .

6- Wingate: F.R: Mahdism and The Egyptian Sudan; Aecond ed Cass - London 1968 .



مهام دفاعية
لأشهر الطرق الآثرية عبر صعيد مصر
زمن الحروب الصليبية

دكتور/ جمال محمود مرسى
أستاذ الآثار الاسلامية المساعد ورئيس قسم الآثار
كلية الآداب - جامعة جنوب الوادى

لعبت طرق مصر البرية والمائية دورا حربيا هاما ، فى زمن كان الانتقال فيه غير ميسر إلا عن طريق الإبل والدواب والقوارب وخفاف المراكب ، ويتمثل هذا الدور فى الدفاع عن مصر ضد الأخطار الخارجية ، وإحكام السيطرة على المعاقل المناوئة لها داخل حدودها ، وتأمين حركة السفر والتجارة والحج والرحالة عبر ربوعها ، فضلا عن دورها الحضارى البارز فى تسهيل اتصالها بشعوب العالم ، واكتشاف مناطق آثرية لاتزال مجهولة ، وتعميق ثقافات المؤرخين والآثريين .

ويتناول بحثى هذا تقييما حقيقيا لبعض المهام الدفاعية التى اضطلعت بها أشهر الطرق الآثرية فى صعيد مصر وظلت تنبض بالحياة ، ابان الحروب الصليبية فى الشرق الأوسط (٤٨٩-٦٤٨هـ/١٠٩-١٢٥٠م) ، وكفلت حماية مصر مما كانت تتعرض له من أخطار ، والسيطرة على مناطقها النائية ، وتوفير الأمن والأمان لمن كان يسلكها من المسافرين والتجار والحجاج والرحالة ، وتمكنت من مسحها ميدانيا وتحقيقها أثريا ، معتمدا على المشاهدة والرؤية الذاتية ، إلى جانب مصادرها ومراجعها المتخصصة .

وقد كان نهر النيل مسرحا للمعارك التى دارت رحاها بين الصليبيين وجيش السلطان نور الدين محمود بن زنكى ، صاحب حلب ودمشق (٥٤١-٥٦٩هـ/١١٤٦- ١١٧٣م) ، بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتحركات جيوشهم ومراكبهم ، إذ خرجت حملة شيركوه الثانية إلى مصر ، فى مستهل عام (٥٦٢هـ/١١٦٧م) بعد ان تبين غدر الوزير الفاطمى شاور بن مجير السعدى الذى كان قد استنجد بنور الدين محمود ، ضد أبى الأشبال ضرغام الذى كان ينافسه فى الوزارة ، ووعده بثلث خراج مصر كجزية سنوية ،

مكافأة له ، وعبر شيركوه النيل عند أطفيح ، ونزل بجهة الجيزة (خريطة رقم-١) (١) ، غير أن شاور أرسل يستنجد بالصليبيين الذين لم يترددوا في مساعدته ، ولتحقيق أعظم آمالهم ، وهو القضاء على القوة الدفاعية لمصر ، مركز الثقل في منطقة الشرق الأدنى الإسلامي ، ومناط الأمل للمسلمين في الشرق والغرب ، لتحرير الشام من ربقة السيطرة الصليبية ، ووقوعها في ملتقى القارتين الأسيوية والإفريقية ، وبين بحرين من أهم بحار العالم في التجارة العالمية .

وخرج عموري ملك بيت المقدس ، في (٦ربيع آخر عام ٥٦٢هـ/٣٠يناير عام ١١٦٧م) ، بحملة قاصدا مصر ، ووصل إلى بلبيس دون أن يلقى مقاومة ، والتقاه شاور بجيشه ، واستعدت تلك القوات المشتركة لمجابهة جيش شيركوه على الصليبيين وحلفائهم ، واستطاع أن يقتل منهم عددا كبيرا ، ويأسر نحو سبعين أسيرا ، وانتهى الصراع في نهاية الأمر بانسحاب الصليبيين عن مصر في عام (٥٦٤هـ/١١٦٩ م) (٢)

---

(١) المقريزي : الخطط-جـ١ ، ص٣٧٤ .
محمد حلمي محمد أحمد (دكتور) : مصر والشام والصليبيون ، ص٩٧ .
- Wiet, G., L'egypte Arabe, P. 295 .
- Grousset, R., Histoire des Croissades, Vol, 2, P. 478 .
- Saunders, J., A History of Medieval Islam, P. 164 .
- أطفيح : بلد بالصعيد الأدنى من ارض مصر على شاطيء النيل في شرقيه (أنظر ابن مماتي : قوانين الدواوين - ص١٠٢ ، ياقوت : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٥١٨) .
- الجيزة : هي الناحية من كل شيء أو جانب الوادي وجمعها جيز ، والجيزة من الماء ، ومقدارما يجوز به المسافر من منهل إلى منهل ، ويقال اسقني جيزة وجائزة وجوزة ، ولعل تلك التسمية راجعة إلى وقوع الجهات المسماه بهذا الاسم عند مجاز النهر ، كجيزة دمياط (انظر : ابن واصل : مفرج الكروب - جـ٢ - ص١٦ - حاشية (٢) ، أحمد المقرى : المصباح المنير - جـ ١ - ص ١٢٦ ، ابن منظور : لسان العرب - جـ ١ - ص ٧٣٨ ، المقريزي : السلوك - جـ ١ - ق ١ - ص ١٨٨ - حاشية (١) ، ص ٢٢٣ ، الخطط - جـ ١ - ص ٢٠٥ ، ٢١٦ ، ابن الجيعان : التحفة السنية - ص ٦٣ ، جمال الدين الشيال (دكتور): مجمل تاريخ دمياط - ص ٢٠ ، تاريخ مصر الإسلامية - جـ ٢ - ص ١٠٢ ، محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية جـ ٢ - ق ٢ - ص ٧٧) .
- أعدت خرائط هذا البحث (خريطة ١ ، ٢ ، ٣) استنادا على المصادر والمراجع والأطالس والخرائط الواردة في ثبت مصادره ومراجعه العربية والأوربية ، فضلا عن دراستي الميدانية .

(٢) ابن واصل المصدر السابق - جـ ١ - ص ١٥١ .
المقريزي : اتعاظ الحنفاء في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - جـ ٣ - ص ٢٨٤ .
محمد مصطفى زياد (دكتور) : الغزوة الكبرى الأولى لاستيلاء الصليبيين على مصر ، كفاحنا ضد ا لغزاة - ص ٢٠٥ .
السيد الباز العريني (دكتور) : الشرق الأدنى في العصور الوسطى (الأيوبيون) - ص ٢٦-٢٧ ، ٣٠ ، ٣٤-٣٥ .
محمد حلمي محمد أحمد (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٩٣ .
- Lane - poole , S., Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem , P . 79 .
- Schlumberger , G ., Campagnes du poi Amaury , P. 116 .
- wiet , G ., Op . cit ., P . 286 .

كما أبدت السياسة المصرية اهتماما كبيرا بمملكة النوبة المسيحية فى أعالى النيل (خريطة - ٢) (١) الصعيد ، ويتمكن من الاستيلاء على قلعة بلدة أبريم (٢) ، ثم مضى بحملته داخل بلاد النوبة حتى دنقلة ، وأنفذ جماعة من جنوده الأكراد بقيادة الأمير إبراهيم الكردى ، للعبور إلى جزيرة دندان ، ولكنهم غرقوا جميعا ، ثم عاد توران شاه إلى أسوان (٣) ، بعد أن أخضع شمال النوبة ، وترك حامية أيوبية فى قلعة أبريم ، وقد ترتب على جهود توران شاه الحربية فى النوبة ، أن حصل على قطاع ضم الجهات الواقعة بين قوص وأسوان وعيذاب ، وكان قوامه مائتى ألف وستة وستين ألف دينار سنويا (٤) .

- William of tyre , A History of Deeds Done Beynal the Sea - Trans Babcock & Krey , vol . 2 , PP . 319 - 323 .
- Baldwin , Crusedes I . P . 550 .

== قرية البابين ، تعرف حاليا بقرية (دلجة) ، وتقع شمال غرب مدينة ديروط بنحو (١٥ كم) وغرب مدينة دير مواس بنحو (١٠ كم) ، وكانت تتبع من الناحية الإدارية مركز ديروط بمحافظة أسيوط ، ولكنها تتبع حاليا مركز دير مواس بمحافظة المنيا .

(١) كان النوبيون يدينون بالمسيحية على مذهب الكنيسة المصرية - كنيسة الإسكندرية - وبالولاء والطاعة لسلطان مصر ، منذ معاهدة البقط التى عقدها معهم القائد العربى عبدالله بن سعد بن أبى السرح ، عام (٣١ هـ / ٦٥١ م) إلا أنهم لم يحافظوا دائما على هذا العهد ، فكثيرا ما إمتنعوا عما كان يؤخذ منهم سنويا بقرية القصر الواقعة على بعد خمسة أميال جنوبى أسوان (البقط) ، وشنوا الغارات على صعيد مصر برا وبحرا وكثر ايذاؤهم لمصريين ، واضطر ولاة مصر نتيجة لذلك إلى توجيه الحملات التأديبية الى بلاد النوبة ، تمسكا منهم بشروط هذا البقط الذى يرمز للنفوذ المصرى فى تلك البلاد ، ولفظ البقط مأخوذ من الكلمة المصرية القديمة (باق Bak) بمعنى عبد ، أو من الكلمة اللاتينية (Pactum) بمعنى عقد أو اتفاق ، أو انها عربية الأصل بمعنى الجماعة المتفرقة أو بقعة من الأرض (انظر ، المسعودى : مروج الذهب - جـ ٢ - ص ٢٩ ، سيدة الكاشف (دكتورة) : مصر فى فجر الإسلام - ص ١٥ ، مصطفى محمد مسعد (دكتور) : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى - ص ١١٢ ، ١٧٦ ، سعيد عبدالفتاح عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام - ص ٧٥ - ٧٨ ، ٨١) .

(٢) ابريم بلدة قديمة على الضفة الشرقية للنيل فى شمال النوبة ، عرفت فى العصر الرومانى باسم (Nubatai ، وفى المراجع القديمة باسم (مريس) .

(٣) اشتق اسم (أسوان) من الاسم المصرى القديم (سونو) - أى السوق - وذلك لشهرة حركتها التجارية بين مصر وبلاد النوبة والسودان ، ثم حرفت الكلمة وأصبحت أسوان ، كما يقول بعض المؤرخين أنها مشتقة من كلمة (صوان) ، لكثرة محاجرها من الصوان والجرانيت ، وكانت أسوان فى العصر الإسلامى ثغرا من ثغور كوره القوصية (انظر : ياقوت : المصدر السابق - جـ ، ١ - ص ٢٤٨ ، أبو المحاسن : النجوم الزاهرة - جـ ٥ - ، ص ٢٩٢ - (الحاشية) .

(٤) أبو شامة : الروضتين - جـ ١ - ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

- wiet G ., Op . Cit ., P . 314 .

- قوص : مدينة هامى على الشاطىء الشرقى لنهر النيل ، توجد قرب خط عرض ٥٥ - ٢٥ شمالا وخط طول ٤٥ - ٣٢ شرقا ، وكان لها فى العصور الوسطى شأن عظيم فى الصعيد ، وكان بها ست مدارس ودار للحديث وكثير من الزوايا والأضرحة وفندق للتجار ، إذ كانت مركزا لهم ولرجال المال والعلماء ، ولا تزال تحتفظ بالجامع العتيق الفاطمى (انظر : الادفوى : الطالع السعيد - ص ١١ ، المقريزى : الخطط - جـ ١ - ص ٣٨٢ ، على مبارك : الخطط التوفيقية - جـ ١٤ - ص ١٢٨ . Geswell The Muslim Architecture of Egypt , Vol . III . P . 23 . , Garcin , J . C ., Un Center . Musulman de la Haute Egypte Mediedal : Qus , PP . 95 , 99 , 134 , 140 , 206 , 275 ,

- عيذاب ؛ بلدة صغيرة على الساحل الغربى للبحر الأحمر ، تقع قرب خط عرض (٢١ - ٢٢ شمالا) وخط طول (٢٨ - ٣٦ شرقا) وتقابل القضيبة على الساحل الشرقى للبحرالأحمر ، وأبى سنبل على نهر النيل ، عرفت باسم سواكن القديمة ، واسمها الرومى Myos - Hormos ، وتسكنها قبائل البجاه البشارية

هذا بالاضافة إلى تحول مسار مسافرى وتجار وحجاج مصر والمغرب الإسلامي والأندلس ووسط وغرب أفريقيا وبعض جزر البحر المتوسط والبلقان (١) ، عن طريق سيناء

== التي تشكل كثرة عددية بها ، وتنطق اسمها (يدياب) - (كلمة البجاه محرفة من الكلمة - المجا - المشتقة من كلمة الماجوى - ومعناها فى اللغة المصرية القديمة ، الحارث أو المحارب) ، وقد تأثرت قبائل البجاه بفرعيها الكبيرين (العبابدة والبشارية) بالإسلام والثقافة العربية ، ولكنهم احتفظوا بلغة تخاطبهم الحامية التى تسمى (البتداوى) أو (بداويت) ، كما سكن عيذاب خليط من العربان والهنود والفرس والأحباش والمغاربة، وقد شيدوا بها أضرحة وزوايا ومساجد ومدارس ودور للحديث والشريعة وعلم اللغة ، كماا كان من بين سكانها يهود ونصارى يعملون فى التجارة ، وقليل من كان ينتمى الى عيذاب من أهلها المستقرين ، ومعظمهم إما تاجر متنقل أو غواص يستخرج اللؤلؤ أو مرشد للقوافل أو صاحب جلبات أو يعمل بتربية الماشية أو صيد الأسماك أو اعمال النخاسة ، فضلا عن صناعة المراكب ، وكان في عيذاب دارا لصناعتها، كما كانت تتخذ عيذاب منفي للمغضوب عليهم ، وكانت بيوتها أخصاصا وبعضها مجصص ، ويحمل إليها الزرع والثمر من الصعيد ، وليس بها غير ماء المطر ، وكانت مواردها تعتمد على التجارة والحج واللؤلؤ واستيراد المواد الضرورية وقد برزت أهمية عيذاب كميناء هام للتجارة الشرقية والحج ، فيما بين القرنين الخامس والثامن الهجريين (١١ - ١٤ م) ، تصل اليه البضائع من الهند واليمن والحبشة ، وقوامها تجارة العنبر الأصفر (الكارم) والتوابل والخلنجان والجنزبيل والروائد والعود الهندى والزعفران والمسك والخشب الصندل والذهب والزمرد والعاج والحديد الخام والأسلحة ، وكان به تفتيش دقيق على التجار والحجاج ، وتؤخذ منهم ضرائب وفق أحوالهم ، فضلا عن تأجير القوارب والمركب ، فكان يتحصل من ذلك مال كثير ، وكان يوجد بميناء عيذاب عامل من قبل سلطان الديار المصرية وأخر من قبل بطران البجاه (كانت تدعى العائلة الحاكمة فى قبائل البشارية - بطرانات - نسبة إلى العمدة بطران علي تويف) وقاضى ، كما كان يتولى خدمة المسجد الجامع بعيذاب ، عدد من العاملين والقومة ، ولم تخل مدينة عيذاب من الشيوخ والعلماء والأدباء والشعراء ، حيث كان يقيم معظمهم بها فترات طويلة (أنظر ، اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى - ص ٣٣٣ - ٣٣٥ ، المسعودى : المصدر السابق، جـ ١ - ص ١٨ ، الأصطخرى : مسالك الممالك - ص ٤٢ ، ناصرى خسرو : سفرنامة - ص ١١٧ ، ابن مماتى : المصدر السابق - ص ٣٢٧ ، ابن جبير : الرحلة - ص ٢٩ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥٢ - ٥٥ وما بعدها ، ٦٢ - ٦٤ ، ياقوت : المصدر السابق - جـ ٦ - ص ٢٤٦ ، أبوشامة : المصدر السابق - جـ ٢ - ص ٣ ، ٢٧ ، القاسم التيجيبى : مستفاد الرحلة - ص ٢٠٥ ، ٢٠٨ ، الأدفوى : المصدر السابق - ص ١٣٤ ، ٢٦٤ ، ابن بطوطه : تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار - ص٥٣ ، ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات - جـ٧ - ص١٢ ، القلقشندى : صبح الاعشى - جـ٣ - ص٤٦٤-٤٦٨ ، المقريزى : المصدر السابق جـ١ - ص٢٠٢ ، السلوك - جـ١ - ص٥٧ ، ٦٤ ، ٧٤ ، أبو المحاسن : المصدر السابق - ص٤٨ ، محمد بن عبدالمنعم الحميرى : الروض المعطار ، ص٤٨٥ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ١ ، ص١٧٦ ، على مبارك : المصدر السابق ، جـ١٤ ، ص٥٤ ، محمد رمزى : المرجع السابق - ق١ - ص٥٧ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، حسنين ربيع (دكتور) : النظم المالية فيمصر زمن الايوبيين - ص١٦ ، أمين محمود عبدالله (دكتور) : الجغرافيا التاريخية لحوض البحرالاحمر ، ص١٩٤ ، رفعت الجوهرى : ساحل المرجان - ص٢٣٦ ، نعيم زكى (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها ، ص٣٠٠ - ٣٠٥ ، عطية القوصى (دكتور) : أضواء جديدة على تجارة الكارم (المجلة التاريخية المصرية - مجلد ٢٢) - ص١٧ - ٣٣ ، بشير ابرهيم بشير (دكتور) : عيذاب حياتها الدينية والادبية - ص٧٤ ، السيد عبدالعزيز سالم (دكتور) : البحر الاحمر فى التاريخ الاسلامى ، ص٣١ - ٣٢ - ٤٤ - ٤٧ ، ١١٠ - ١١٣ ،

- Dozy : Suppl Aux Dic . Arabes II . P . 460 . , Garcin , J . C . , Op . Cit ., PP . 83 , 93 , 134 , 171 - Note 1,342) .

(١) على مبارك : المصر السابق ، جـ١٥ ، ص٩٤ ، ٩٥ .
بوركهارت : رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان ، ص٣٩ ، ٤٠ .
فولنى : ثلاثة أعوام في مصر والشام - ص١٣٥ - ١٣٦ .
محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية ، ص٢٧ - ٢٨ .
محمد طاهر الكردى : التاريخ القويم - جـ٢ - ص٢٤٨ ، ٢٥١ .
نعوم شقير : تاريخ السودان - جـ٢ - ص٢٤٨ ، ٢٥١ ، تاريخ سيناء ، ص٢٦٢ .

والعقبة (١) ، المحفوف بالمخاطر التى تمثلها الإمارات الصليبية الربع (أنطاكية - الرها - طرابلس - بيت المقدس) فى بلاد الشام وفلسطين ، إلى سلوك طريق جنوب مصر النهرى أو البرى من الفسطاط إلى قوص أو قفط ، ويعبرون وديان الصحراء الشرقية للوصول إلى عيذاب أو القصير (خريطة - ٣) ، ثم يستقلون عبر البحر الأحمر الذى شهد نشاطا واسع النطاق فى مجال التجارة الشرقية ، مراكب شراعية ضعيفة واهية ، لا تقاوم عصف الرياح أو غضب البحر وأنواءه ، تعرف باسم الجلاب (٢) ، للوصول إلى شبه الجزيرة العربية ثم إلى بلاد الهند الصين عبر المحيط الهندى (٣)

---

(١) العقبة : مفرد عقبات ، وهى المرقى الصعب من الجبال ، وقيل العقبة ، الجبل الطويل يعرض للطريق ليؤخذ منه ، وهو طريق صعب شاق ، ونقصد بالعقبة هنا ، عقبة أيلة ، بالفتح ، وقد عرفت بهذا الإسم ، لمجاورة أيلة لعقبة جبلية يصعب ارتقاؤها ، وأيلة هى المدينة القديمة التى اندثرت وقامت العقبة على أنقاضها ، وكانت مدينة صغيرة جليلة القدر ، تقع على ساحل بحر القلزم مما يلى الشام ، وتعتبر آخر الحجاز وأول الشام فى طريق مكة من مصر ، وبها يجتمع تجار وحجاج مصر والشام ، وأهلها أخلاط من الناس ، وهى كثيرة النخيل والزروع ، وعامرة بالمساجد والأسواق والعلوم والآداب (انظر ؛ مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط - جـ ٢ - ص ٧١٣ ، ياقوت : المصدر السابق - جـ ١ - ص ٢٩٢ ، محمد بن عبدالمنعم الحميرى : المصدر السابق - ص ٧٠ - ٧١ ، محمد رمزى : المرجع السابق - جـ ١ - ص ٨٥ ، حمود بن ضاوى القثامى : الآثار فى شمال الحجاو - جـ١ - ص ٢٣٨) .

(٢) جلاب أو جلب أو جلبات ، مفردها جلبه بفتح الجيم والباء ولام ساكنة بينهما ، وهى نوع من المراكب التى تسير فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وقد استخدمها أهل مصر والحجاز واليمن فى نقل الحجاج والأزواد ، وهى عبارة عن قارب كبير (جندول) مصنوع من ألواح الساج المخيط بأمراس من القنبار أو القنبر ، بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والراء ، وهو ليف جوز النار جيل ، يدبغ فى حفر على الساحل ثم يضرب بالمرازب ثم يغزل وتصنع منه الجبال لخياطة المراكب ، ولا يستعمل فيها مسمار البتة ، ثم تطلى بالسمن أو بدهن الخروج أو بدهن سمك القرش ليلين عودها ويرطب ، وكانت تجلب أعواد هذه الجلب والقنبار من الهند واليمن ، وتنسج أشرعتها من خوص شجر المقل (الدوم) وعادة ما يكون فى الجلبة أربعة غطاسين لمعالجة الثقوب ، إذا زاد الماء فيها ، وكان أهل عيذاب يشحنون الحجاج فى الجلاب دون مراعاة لحمولتها ، فضل عن جهل الملاحين بالرياح وطبيعة الملاحة فى البحر الأحمر ، مما أدى إلى غرق بعض المراكب أو الوصول إلى مراسى فى جنوب ميناء عيذاب عند العودة ، واخبار تعرض السفن للغرق فى البحر الأحمر عديدة ، بسبب كثرة الصخور الناتئة والتروش الطافية والشعاب المرجانية التى تعترض طريق السفن ، من ذلك غرق أربعة جلاب كانت تحمل (١٣٠٠) حاج ، فى ٢٢ من المحرم عام (٥٨٠هـ / ٥ مايو ١١٨٤م) - (انظر : المسعودى : المصدر السابق : جـ١ - ص١٥٣ ، ابن جبير : المصدر السابق - ص٤٦ - ٤٨ ، ٧٠ ، ابن بطوطة : المصدر السابق - جـ٤ -ص١٢١ ، محمد بن عبدالمنعم الحميرى : المصدر السابق - ص٤٦٦ ،٤٦٧ ، المقريزى : المصدر السابق - جـ ١ - ص٨٧ ، سعاد ماهر (دكتورة) : البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية - ص١٩٣ ، ١٩٦ ، درويش النخيلى (دكتور) : السفن الإسلامية على حروف المعجم - ص٢٧ - ٢٩ .

(٣) ابن جبير : المصدر السابق - ص ٣٢ - ٤٥ .

المقريزى :المصدر السابق - جـ ١ - ص ٢٨ ، ٢٠٢ ، ٣٥٦ .

مصطفى محمد مسعد : (دكتور) : المرجع الأسبق - ١٤٢ - ١٤٥ .

السيد الباز العرينى (دكتور) : المرجع السابق - ص ٣٠ .

السيد عبدالعزيز سالم (دكتور) : مرجع سابق - ص ١ .

- Lane - Poole : Op . Cit ., P 79 .

- وممن سلك هذا الطريق من الرحالة والمؤرخين والعلماء والأدباء والشعراء والشخصيات الهامة ، ناصرى خسرو الذى حج فى عام (٤٤٢هـ / ١٠٥٠ م) وعاصره فى أول عهده ، والشاعر أبو الفتوح نصر الله بن عبدالله المعروف بأبى قلاقس السكندرى الذى توفى بعيذاب فى عام (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) ، كما نقل تابوتى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، وأسد الدين شيركوه عمه ، عبر هذا الطريق فى (٤ صفر ٥٨٠ هـ / ١٧ مايو ١١٨٤ م) ودفنا بالمدينة المنورة ، والرحالة الأندلسى ابن جبير الذى شاهد أوج =

وكان ذلك مرورا بالعديد من المحطات النهرية والمنازل البرية ، إذ تصل الرحلة النهرية بعد يومين من مغادرتها لميناء الفسطاط إلى مرسى كبير بقرية أسكر أو السكرية المشهورة (١) ، ثم منية الخصيب أو المنيا بعد خمسة أيام ، ثم مرسى جبل المقلا على الضفة الشرقية للنيل ، بعد مسيرة يومين من المنيا ، وكان به أسواق عامرة (٢) ، ثم منفلوط الواقعة على الشاطىء الغربى لنهر النيل ، والتى كانت تعتبر محطة للطريقين النهرى والبرى الذى كان يستخدم أيضا بين الفسطاط وقوص (٣) ثم أسيوط ، وهى من أهم مدن جنوب مصر (٤)،

إزدهاره عند حجه فى عام (٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م) ، والمسعود بن الكامل محمد فى عام (٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) ، والشيخ أبى الحسن على بن عبدالله بن عبدالجبار بن يوسف الشاذلى الذى توفى بحميثراء وهو فى طريقه الى عيذاب فى (١٠٩ ذى القعدة ٦٥٦ هـ / ٨ نوفمبر ١٢٥٨ م) ، وله ضريح بالمنطقة، كما حج القاسم بن يوسف التيجيبى السبتى ، عام (٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م) فى بداية اضمحلال هذا الطريق، وشاهد ابن بطوطو فترة تداعية ، عندما سار فيه حتى عيذاب عام (٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م) - (انظر : المسعودى : المصدر اسابق - جـ ١ - ص ١٢٣ ، ناصرى خسرو : المصدر السابق - ص ٧٢ - ٧٣ ، ١٣٦ ، ابن جبير : المصدر السابق - ص ٣٣ ، ٦٦ - ٦٧ ، ٦٩ - ٧٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان - ص ٣٨٥ - ٣٨٨ ، القاسم التيجيبى : المصدر السابق - ص ١٦٨ ، محمد بن شاكر الكتبى : عيون التواريخ - جـ ٢٠ - ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، ابن بطوطة : المصدر السابق - ص ٢٥ ، ٥٣ ، ١١٧ ، النويرى السكندرى : الإلمام بالإعلام فيما جرت بـه الأحكام - جـ ٥ - ص ٢٢٠ ، محمد بن عبدالمنعم الحميرى : المصدر السابق ، ص = ٤٢٣ ، ٤٦٧ ، المقريزى : البيان والأعراب ص ٣٥ ، الخطط - جـ ١ - ص ٣١٣ ، ٣٥٧ ، اتعاظ الحنفاء فى اخبار الائمة الفاطميين الخلفاء - جـ ٣ - ص ١٢٦ ، السلوك - جـ ١ ص ٨٧ وما بعدها ص ٢١٩ ، سعاد ماهر (دكتورة) : محافظات الجمهورية - ص ٢٠٥ - ٢٠٨) .

(١) محمد رمزى : المرجع السابق - جـ ٢ - ص ٢٥ .
صفى الدين البغدادى : مراصد الاطلاع - ص ٧٧ .

(٢) ابن جبير : المصدر السابق - ص ٣٢ .
- المنيا : مدينة مصرية قديمة وكبيرة ، وهى منية الخصيب نسبة الى الخصيب بن عبدالحميد صاحب خراج مصر من قبل هارون الرشيد ، تقع على شاطىء غربى النيل فى الصعيد الادنى بمصر ، بالقرب من خط عرض (٢٨) شمالا وخط طول (٥٠ - ٣٠) شرقا وهى ذات مرائى جميلة ، ومرافق حسان عديدة ، كالمدارس والحمامات والأسواق ، فضلا عن المساجد الأثرية ، من ذلك مسجد الملطى الذى يرجع إلى العصر اليوبى ، إذ عثر على نص كتابى على عتب المدخل الأعلى ، المؤرخ بعام (٥٧٨هـ/١١٨٢م)، يشبه إلى حد كبير المساجد الفاطمية من حيث التخطيط والعقود والزخارف الجصية ، إذ يذكرنا بمسجد الصالح طلائع بالقاهرة (٥٥٥هـ/١١٦٠م) - (أنظر : الإدريسى نزهة المشتاق - ص٩٧ ، ياقوت : المصدر السابق - جـ٨ - ص١٨٨ ، المقريزى : المصدر السابق ، جـ١ - ص٣٣١ ، محمد رمزى : المرجع السابق - جـ٣ - ص٢٥ ، كمال الدين سامح (دكتور) : العمارة الإسلامية فى مصر - ص٦٤ ، ٦٩) .

(٣) ابن جبير : المصدر السابق - ٣٣ .
محمد رمزى : المرجع السابق - جـ٤ - ص٧٨ .
- منفلوط مدينة قديمة ، وتقع بالقرب من خط عرض (١٧-٢٧) شمالا وخط طول (٣١) شرقا ، وكانت تسمى (منبالوط) وهى كلمة قبطية معناها الحمر الوحشية ، وكانت ذات اسواق (انظر : سعاد ماهر (دكتورة) : المرجع السابق - ص٤٧) .

(٤) أسيوط : بلدة قديمة ، قرب خط عرض (١٢-٢٧) شمالا وخط طول (١٢-٣١) شرقا ، عرفت من أقدم العصور بخصوبة أرضها وكثرة خيراتها ، وظلت طوال العصر الإسلامى وحتى نهاية العصر المملوكى ، قاعدة لأعمال الأسيوطية ، وكانت غاصة بالبضائع المحلية - كالتوابل وقصب السكر والكتان والنيلة والحبوب والبقول ، فضلا عن بعض البضائع المستوردة ، ولعل إزدهار تجارتها هذه يرجع إلى وقوعها عند نهاية درب الأربعين الذى يمتد من دارفورد جنوبا وإليها شمالا ، (انظر : ياقوت : المصدر السابق

فأبى تيج (١) وهما على الشاطىء الغربى للنيل ، ثم اخميم فى جانبه الشرقى (٢) ، وكانت عامرة بالأسواق ، واتصفت برخائها الاقتصادى ، فالبلينا على الشاطىء الغربى ، وكانت من القرى الحسنة وكثيرة النخيل ، ثم دشنا ذات البساتين والنخيل ، ثم قنا وهى من المدن الهامة فى جنوب مصر (٣) ، وتنتهى الرحلة النهرية بمرسى قوص ، الواقعة على الشاطىء الشرقى لنهر النيل كسابقيها ، وكان لها فى العصور الوسطى ، شأن عظيم فى صعيد مصر ، إذ كانت مدينة هامة تحفل بالأسواق ، كما كانت ملتقى الحجاج والتجار من اليمنيين والهنود والأحباش وكانت تكثر بها الخانات (٤) ، لمبيت التجار والوافدين إليها من الحجيج والرحالة ، ويصل طول هذه المرحلة نحو (٦٤٠) كم ، وكانت تستغرق ثمانية عشر يوما (٥) .

== اجـ١٢ ص٢٥١ ، المقريزى : المصدر السابق - جـ٢ - ص١١٧ ، ابو المحاسن : المصدر السابق - جـ٢ - ٣١٣ (الحاشية) .

(١) أبو تيج : مدينة قديمة اسمها (باشنا) أى المخزن أو الشونة ، وترجمها الرومان إلى بوتيكى ، ومنه اشتق اسمها العربى (أبو تيج) . وكانت نزهة عامرة ذات نخيل وشجر وثير ، تضم مدارس وحمام وقيسارية ، وكان بها جامع أثرى كبير إندثر حاليا (انظر : ياقوت : المصدر السابق - جـ٩ - ص١٠٩ ، المقريزى : المصدر السابق - جـ٣ - ص٤٠٩ ، محمد رمزى : المرجع السابق - جـ٢ - ص١٥٧ ، سعاد ماهر (دكتورة) : المرجع السابق - ص٤٦) .

(٢) اخميم : بلدة قديمة ، توجد قرب خط عرض (٣٣-٢٦) شمالا وخط طول (٤١--٣١) شرقا ، وهى من اشهر مدن الصعيد الأوسط فى صناعة المنسوجات الكتانية والصوفية فى العصرين القبطى والإسلامى ، وكانت بها مصانع نسيج اهلية وأخرى حكومية تعرف بالطراز ، كما اشتهرت اخميم بتمرها وغلالها ومعاصر زيوتها ، وكانت فى العصر الفاطمى قاعدة كورة الاخميمية ، واستمرت كذلك حتى نهاية العصر == المملوكى (انظر ياقوت : المصدر السابق - جـ١ - ص١٥٣ ، المقريزى : المصدر السابق - جـ١ - ص٣٨٧ ، ابو المحاسن : المصدر السابق - جـ٩ - ص٤٠ (الحاشية) .

(٣) قنا مدينة قديمة شهيرة بالصعيد الأعلى ، توجد قرب خط عرض (٩ - ٢٦) شمالا وخط طول (٤٤ - ٣٢) شرقا ، وكانت ذات مبانى أنيقة مشيدة بالأجر واللبن ويغلب عليها اللون الأبيض ، وأكثرها مكون منطابقين ، ويوجد طريق برى يربط بينها وبين القصير ، يمر بين الجبل والساحل متجها إلى الجنوب حتى يصل إلى بئر عنبر شرقى قفط ، ثم يستقيم نحو الشرق حتى يصل إلى القصير (انظر ؛ ابن جبير : المصدر السابق - ص ٣٤ ، ياقوت : المصدر السابق - جـ ٧ - ص ١٦٣ ، أبوالمحاسن : المصدرالسابق - جـ ٥ - ص ٢٩٢ ، على مبارك : المصدر السابق - جـ ١٤ - ص ١٢١) وقد كان بمدينة قنا ، قطعة أرض تقرب مساحتها من الفدان تؤخذ منها طينة طفلية ، تصنع منها الأوانى الفخارية التى تشتهر بها ، إذ كانت مياه الفيضان ترسب فيها كل سنة كمية من الطمى تعادل تقريبا ما كان يؤخذ منه، وتحمل السيول التى تنساب من جبال البحر الأحمر ، طينة طفلية ترسبها فى الفدان قبل أن تتجمع فى المصرف القريب منه (انظر : سعاد ماهر (دكتورة) : المرجع السابق - ص ٢٥ - ٢٦) .

(٤) الخانات : جمع خان ، والخان كلمة فارسية الأصل بمعنى منزل أو نزل ، والخانات تشبه الفنادق حاليا ، إلا أنها تضم اصطبلات الدواب ومخازن البضائع ، ومن أشهرها خان الخليلى بالقاهرة الذى استمد اسمه من سيف الدين جركسى الخليلى ، أحد أمراء المماليك فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى (١٤م) - انظر ك كمال الدين سامح (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٥٤ ، العمارة فى صدر الاسلام - ص ١٣٨ - ١٤٢ ، شكل ٦٧ ، ٦٨ ، محمد عبدالعزيز مرزوق (دكتور) : الفنون الزخرفية الاسلامية فى العصر العثمانى - ص ٥٦ ، تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الثانى -ص ٥٩٠ ، محمد على الأنسى: قاموس اللغة العثمانية المسمى " الدرارى اللامعات فى منتخبات اللغات " ص ٢٣٤ ، سعيد عبدالفتاح عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام - ص ٤١١ ، عبدالرحمن زكى (دكتور) : قلعة صلاح الدين الأيوبى وما حولها من الآثار - ص ٦٧) .

(٥) ابن جبير : المصدر السابق - ص ٣٥ ، ٤٠ - ٤١ .
القاسم التيجيبى : المصدر السابق - ص ١٧٣ .
المقريزى : المصدر السابق - جـ ١ - ص ٣٨١ .

ثم تبدأ مسيرة المرحلة البرية الشاقة ، لنحو (٦٠٠) كم فى صحراء مصر الشرقية ، أو فيما يعرف بصحراء عيذاب الواقعة بين النيل والبحر الأحمر ، من قوص إلى عيذاب ، متجهة من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى (١) ، وذلك بسبب نقص المياه العذبة ، وقسوة قبائل البجاة أو البجة (البشارية) ، سكان بادية المنطقة ، واستغلالهم للقوافل التى كانت تقطع هذه المرحلة فى حوالى سبعة عشر يوما ، مرورا بالمبرز وهو موضع فسيح ، محاط بأشجار النخيل ، وفيه يجتمع الركب وتكتمل الإستعدادات لرحلة القوافل ، ويقع فى شماله مسجد الشيخ البواب ، ثم الحاجز ، فواحة اللقيطة (٢) ، وكانت تتوفر بها أشجار النخيل والآبار العذبة ، فوادى دندان ، ثم المحدث ، وهو بئر زيدون حاليا (٣) ، ثم وادى منيح ، فوادى الشلول ، فمحطة الدغيج ، ثم بئر الجندى (٤) ، فدنقاش ، وهى محطة رئيسية على مسيرة أربعة أيام من اللقيطة ، ويتوافر بها الماء (٥) ، ثم بئر أم قبور (٦) ، ثم يقطع الطريق وادى نتش ، ثم وادى عثر ، ثم وادى خشب الوعر (٧) ، ثم يصل الطريق إلى حميثراء (حميثرة) التى تحدد مسيرة الطريق بالقرب من سفوح مرتفعات البحر الأحمر (٨) ، ثم يقطع الطريق منابع وادى الخريط ، ويصل إلى جبل سلاعى ، الواقع شمال وادى كوان (٩) ، وفى هذه المنطقة يخترق الطريق مرتفعات البحر الأحمر ، متجها إلى السهول الساحلية ، مارا بوادى بتان ، وهو أحد روافد وادى حوضين ، ثم الحسا ، وتتغير المسيرة فى أرض مضرسة إلى سهول رسوبية الذى يصب شمال مرسى شعب ، فمجاج ، فالشعراء التى تبعد عن أمتان مسيرة أربعة أيام وعن عيذاب مسيرة يومين ، فالخبيث ، ثم عيذاب ، ومنها يركب قاصدوا هذا الطريق ، الجلاب عبر البحر الأحمر إلى أن يصلوا جدة ، بعد ثمانية أيام ، إذا كانت الرياح

== أبو المحاسن : المصدر السابق – جـ ٥ – ص ٢٩٢ (حاشية) ، جـ ٦ – ص ٣٨٢ .
محمد رمزى : المرجع السابق – جـ ٤ – ص ١٤ ، ٢٥ – ٢٦ ، ٩٠ ، ١٦٨ ، ١٧٨ ، ١٨٨ .

(١) كانت تضبط المسافات البرية بالمراحل ، وهى غير متساوية المسافات ، وكان التجار والحجاج يقطعون عادة فى كل يوم وليلة مرحلتين بسير الأثقال ودبيب الأقدام وسرعة القافلة = ٤ كم / الساعة ، ويقطع الجمل بمفرده ٦ كم / الساعة (انظر : القلقشندى : المصدر السابق – جـ ١٤ – ص ٣٧٦ ، حمد الجاسر: رحلتا == محمد بن عبدالسلام بن عبدالله الناصرى الدرعى ، ص ٧٩ ، محمد طاهر الكردى : المرجع السابق – جـ ٢ ص ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، نعوم شقير : المرجع السابق – ص ٢٤٩) .

(٢) قرب خط عرض (٥٣ – ٢٥) شمالا ، وخط طول (٧ – ٣٣) شرقا .

(٣) قرب خط عرض (٤٣ – ٢٥) شمالا ، وخط طول (٤٤ – ٣٣) شرقا .

(٤) قرب خط عرض (٢٠ – ٢٥) شمالا ، وخط طول (٢٣ – ٣٣) شرقا .

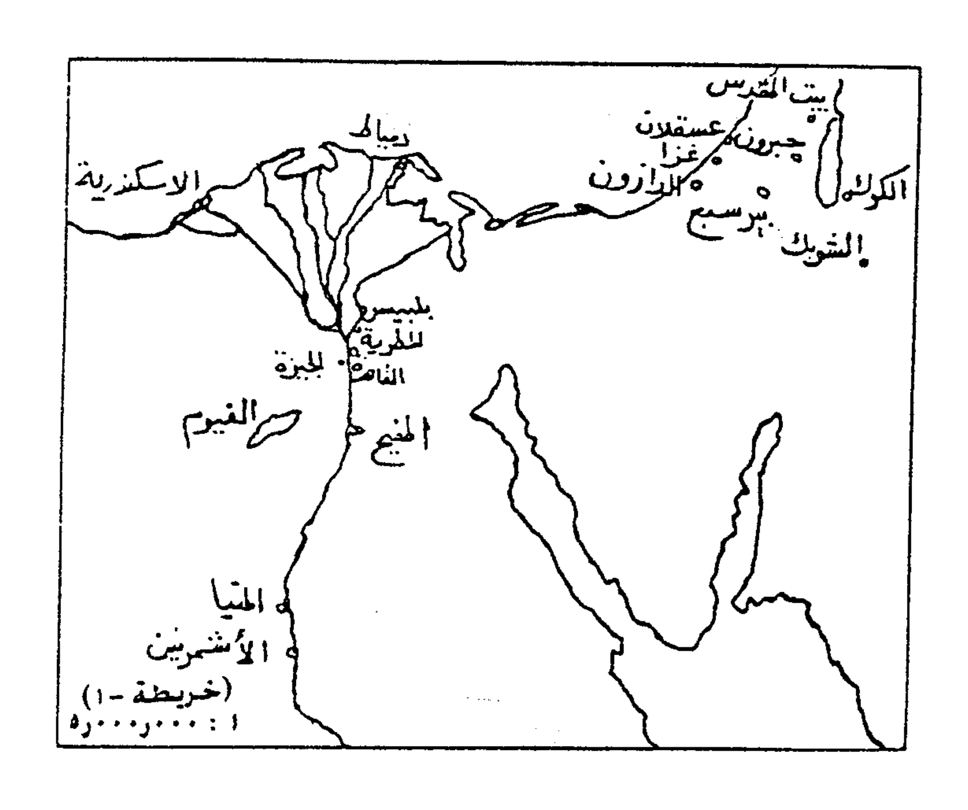
(٥) قرب خط عرض (٥٤ – ٢٤) شمالا ، وخط طول (٥٣ – ٣٣) شرقا .

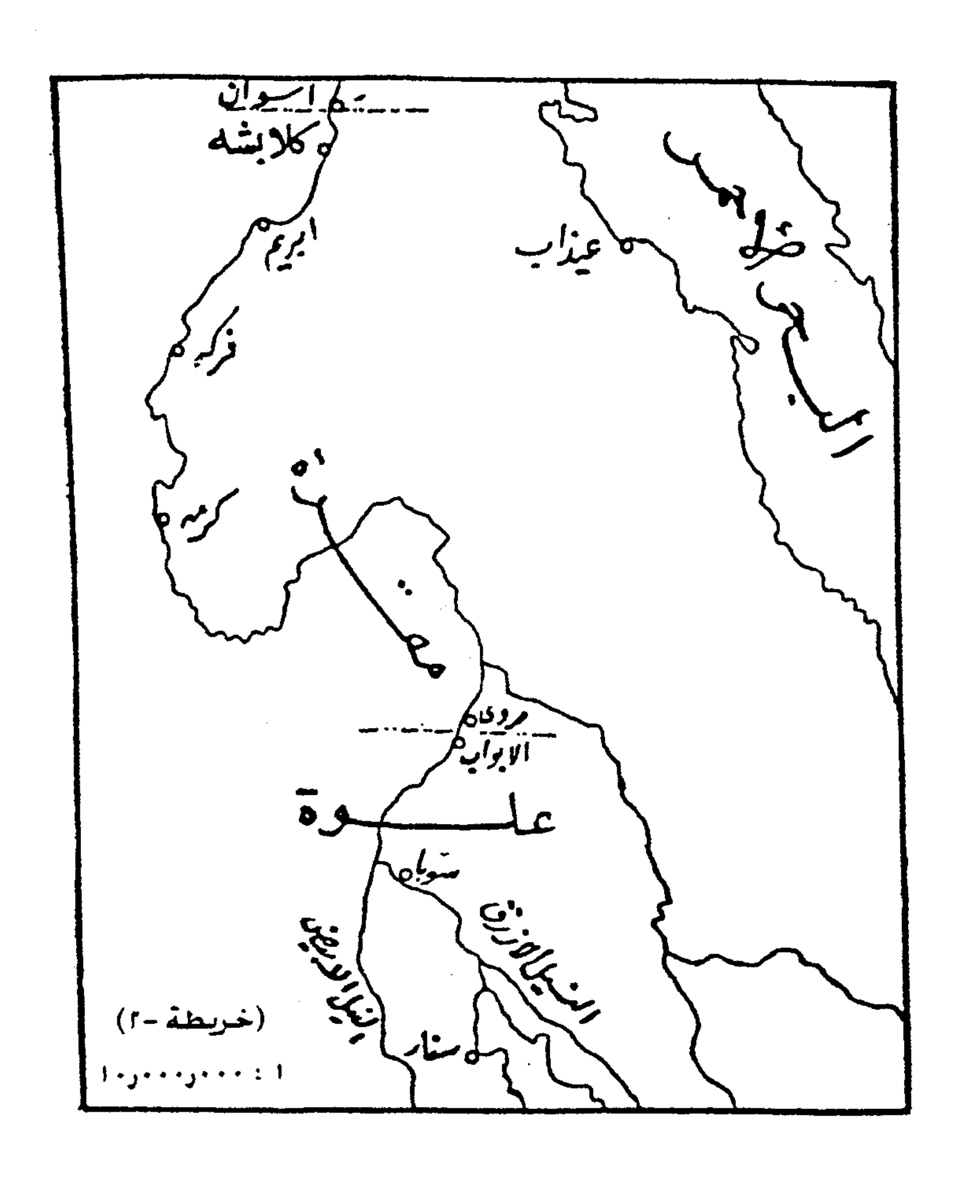
(٦) قرب خط عرض (٣٥ – ٢٤) شمالا ، وخط طول (٥٣ – ٣٢) شرقا .

(٧) ابن جبير : المصدر السابق ، ص٤١ ، ٦٧ ، ١٨٦ .
القاسم التيجيبى : المصدر السابق ، ص١٩٧ ، ٢٠٠ .
رفعت الجوهرى : المرجع السابق ، ص٢٧٤ .
- Garcin , J . C ., Op . Cit . P . 275 .

(٨) قرب خط عرض (١٠ – ٢٤) شمالا ، وخط طول (٤٠ – ٣٤) شرقا .

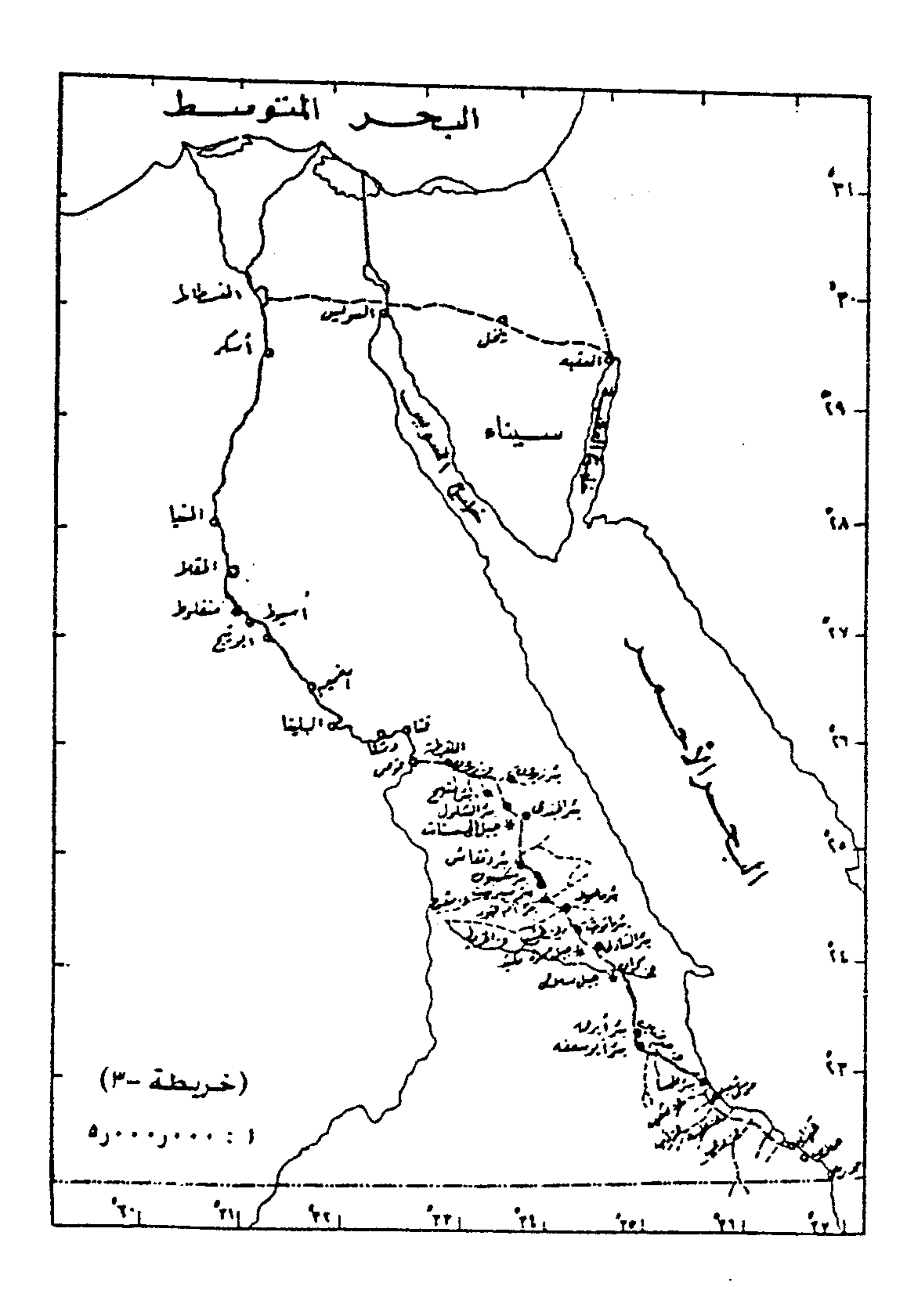
(٩) قرب خط عرض (٥٧ – ٢٣) شمالا ، وخط طول (٥٣ – ٣٤) شرقا .


بيت المقدس
عسقلان
غزا
الشوبك
الإسكندرية
بلبيس
الجيزة
الفيوم
المنيا
الأشمرين
(خريطة - ١)
١ : ٠٠٠ر٠٠٠ر٥



(خريطة -٢)

١ : ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠



البحر المتوسط
سيناء
البحر الأحمر
٣١
٣٠
٢٩
٢٨
٢٧
٢٦
٢٥
٢٤
٢٣
٢٠
٢١
٢٢
٢٣
٢٤
٢٥
٢٦
٢٧
(خريطة -٣)
١ : ٠٠٠ر٠٠٠ر٥

مواتية والبحارة ماهرين ، ومن شبه الجزيرة العربية إلى بـلاد الشـرق الأقصـى عبر المحيط الهندى (١) .

ومما تقدم يتضح لنا حقيقة الدور الدفـاعي البـارز الـذى قـامت بـه طـرق صـعيد مصـر ، البرية والمائية لحماية مصر من الخطر الصليبى ، وإحكام السيطرة على أراضيها النائية ، والمحافظة على تواصل حركة المسافرين والتجار والحجاج والرحالة ، عبر مناطقها الأثرية ذات الطبوغرافية المتباينة ، والتى تيسر لى تحقيقها أثريا وعلى نحو عملى .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر المنشورة :

- ابن الجيعان (شرف الدين يحى بن المقر) – المتوفى عام (٨٨٥هـ / ١٤٨٠م) : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية – القاهرة (١٣١٦هـ/١٨٩٨م) .
- ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم بن على) – المتوفى عام (٨٠٧هـ/١٠٤٥م) : تاريخ ابن الفرات – الأجزاء من ٧ – ٩ – تحقيق قسطنطين زريق (دكتور) ، نجلاء عزالدين – بيروت (١٣٦١هـ/١٩٤٢م) .
- ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم) – المتوفى عام (٦٨١هـ/١٢٨٢م) ، وفيات العيان وأنباء وأبناء الزمان – (٨) أجزاء – تحقيق احسان عباس (دكتور) – بيروت (١٣٩١هـ/١٩٧١م) .
  ابن مماتى (الأسعد بن المهذب) – المتوفى عام (٦٠٦هـ/١٢٠٩م) : قوانين الدواوين ، تحقيق عزيز سوريال عطيه (دكتور) – القاهرة (١٣٦٢هـ/١٩٤٣م) .
- ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل) – المتوفى عام (٦٩٧هـ/١٢٩٧-١٢٩٨م) ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب – تحقيق جمال الدين الشيال (دكتور) – القاهرة (١٣٧٣هـ/١٩٥٣م) .
- أبو المحاسن (جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى) – المتوفى عام (٨٧٤هـ/١٤٦٩م) : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة – نشر دار الكتب المصرية – عام (١٣٨٣هـ/١٩٦٣م) .
- أبو شامة (عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم شهاب الدين الشافعي الدمشقى) – المتوفى عام (٦٦٥هـ/١٢٦٨م) : الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية – جزءان – القاهرة (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م) .
- الإدفوى (أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب) – المتوفى عام (٧٤٨هـ/١٣٤٧م) : الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد – تحقيق الأستاذ سعد محمد حسن ، القاهرة (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) .

---

(١) ناصرى خسرو : المصدر السابق – ص١١٧ .
ابن جبير : المصدر السابق – ص٣٢ – ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠ – ٥٢ .
القاسم التيجيبى : المصدر السابق – ص٢٠٢ ، ٢٠٨ .
ابن بطوطة : المصدر السابق – ص٥٣ .
المقريزى : المصدر السابق – جـ١ ، ص٢٠٣ .

- الاصطخرى (أبو اسحاق إبراهيم محمد الفارسى الاصطخرى) ، المتوفى عام (٣٤٦ هـ/١٩٥٧ م) : مسالك الممالك - ليدن (١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م) .
- البغدادى (صفى الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادى) مراصد الاطلاع - تحقيق محمد البجاوى البابلى - القاهرة - (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) .
- السيوطى (عبدالرحمن أبى بكر جلال الدين) - المتوفى عام (٩١١هـ/١٥٠٥م) : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة - جزءان - القاهرة (١٣٢١هـ/١٩٠٣م) .
- القلقشندى (أبو العباس احمد بن على بن أحمد) - المتوفى عام (٨٢١هـ/١٤١٨م) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا - طبعة تراثنا - نسخة مصوة عن الطبعة الأميرية - (١٤) جزء - القاهرة (١٣٣٤هـ/١٩١٥م) .
- الكتبى (محمد بن شاكر الكتبى) - المتوفى عام (٧٦٤هـ/١٣٦٣م) : عيون التواريخ - جـ٢٠ - تحقيق فيصل السامر (دكتور) ، الأستاذة نبيلة داود - بغداد (١٤٠٢هـ/١٩٨٠م).
- المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين) المتوفى عام (٣٤٦هـ/٩٥٧م) : مروج الذهب - طبعة محيى الدين عبدالحميد - القاهرة - (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م) .
- المقريزى (تقى الدين أبى العباس أحمد بن على بن عبدالقادر محمد المقريزى) - المتوفى عام (٨٤٥هـ/١٤٤١م) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية - أربعة أجزاء - القاهرة (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م) .
- ــــــــ ، السلوك لمعرفة دول الملوك - لجنة التأليف والترجمة والنشر - (عام ١٣٧٦-١٣٧٨هـ/١٩٥٦-١٩٥٨م) .
- ــــــــ ، البيان والأعراب - تحقيق عبدالمجيد عابدين - القاهرة (١٣٨١هـ / ١٩٦١ م) .
- ــــــــ ، اتعاظ الحنفاء فى أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء - الجزء الأول - تحقيق جمال الدين الشيال (دكتور) - القاهرة (١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨ م) الجزءان الثانى والثالث - تحقيق محمد حلمى أحمد (دكتور) - القاهرة (١٣٩١ - ١٣٩٣ هـ / ١٩٧١ - ١٩٧٣ م).
- النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمد الملكى السكندرى) - المتوفى بعد عام (٧٧٩هـ/١٣٧٦م) : الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الإسكندرية - (٧) أجزاء - تحقيق عزيز سوريال عطية (دكتور) - حيدر آباد - الدكن (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) .
- اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح) : تاريخ اليعقوبى - جزءان - دار صادر بيروت .
- على مبارك : الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمةوالشهيرة - بولاق - (١٣٠٥هـ/١٨٨٧م) .
- محمد بن عبد المنعم الحميرى : الروض المعطار فى خبر الأقطار (معجم جغرافى مع فهارس شاملة - حققه احسان عباس (دكتور) - بيروت- الطبعة الأولى (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).
- ياقوت (شهاب الدين أبى عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى البغدادى) - المتوفى عام (٦٢٦هـ/١٢٢٩م) : معجم البلدان ، (١٠) أجزاء - القاهرة (١٣٢٤هـ/١٩٠٦م) .

ثانيا : كتب الرحلات :

- ابـن بطوطـة (أبـو عبدالله محمـد بـن عبدالله اللواتـي الطنجـي) ، المتوفـي عـام (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) : رحلة ابن بطوطة المسماه (تحفة النظـار فـي غرائـب الأمصـار وعجائب الأسفار) - دار صادر - بيروت (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م) .
- ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد البلنسى) - المتوفى عام (٦١٤هـ/١٢١٧م) : رحلة ابن جبير - تحقيق وليم رايت - ليدن (١٩٠٧م) .
- الإدريسى (الشريف أبو عبدالله محمد بن عبدالعزيز) - المتوفى عام (٥٤٨هـ/١١٥٤م) : كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق - جزءان - نشر مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة (بدون تاريخ) .
- الدرعـى (محمـد بـن عبدالسـلام بـن عبدالله النـاصرى المغربـى) رحلتـه الكـبرى (عام ١١٩٦هـ/١٧٨١م) ورحلته الصغرى عام (١٢١١هـ/١٧٩٦م) - عرض وتلخيص حمد الجاسر - منشورات دار الرفاعى للنشر والطباعة والتوزيع بالرياض - المملكة العربية السعودية - الطبعة الثانية (رمضان ١٤٠٣هـ/يونيو ١٩٨٣م) .
- القاسم بن يوسف التيجيبى السبتى : مستفاد الرحلة والاغتراب - تحقيق عبد الحفيظ منصور - الدار العربية للكتاب - تونس (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م) .
- جون لويس بوركهارت : رحلات بوركهارت فى بلاد النوبة والسودان (١٧١٤-١٨١٧م) - ترجمـة فـؤاد أنـدراوس - الجمعيـة المصريـة للدراسـات التاريخيـة - القـاهرة - (١٣٧٩هـ/١٩٥٩م) .
- س . ف فولنى : ثلاثة أعوام فـى مصـر والشـام - ترجمـة ادوارد البسـتانى - بـيروت (١٣٦٩هـ/١٩٤٩م) .
- محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازيـة - الطبعـة الثالثـة - (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) - الناشر مكتبة المعارف بالطائف - المملكة العربية السعودية .
- ناصرى خسرو علوى - المتوفى بعد عام (٤٤٤هـ/١٥٠٢م) : سفر نامة - ترجمة يحى الخشاب (دكتور) - القاهرة (١٣٧٤هـ/١٩٥٤م) .

ثالثا : القواميس والمعاجم :

- ابـن منظـور (جمـال الديـن محمـد بـن جـلال الديـن الأنصـارى) - المتوفـى عـام (٧٧١هـ/١٣٦٩م) : لسان العرب - تحقيق عبدالله على الكبير وآخرون - دار المعارف - القاهرة ، بدون تاريخ .
- أحمد بن محمد بن على المقرى الفيومـى - المتوفـى عـام (٧٧٠هـ/١٣٦٨م) : المصباح المنير فى غريب الشرح الكبير للرافعى - مطبعة مصطفى الحلبى بمصر - بدون تاريخ .
- مجمـع اللغـة العربيـة : المعجـم الوسـيط - مطـابع دار المعـارف - مصـر - (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م) .
- محمد على الأنسى : قاموس اللغة العثمانية المسمى (الدارى اللامعات فى منتخبات اللغات - بيروت (١٣١٨هـ/١٩٠٠م) .

رابعا : المؤلفات المنشورة :

- السيد الباز العرينى (دكتور) : الشرق الأدنى فى العصور الوسطى (الأيوبيون) - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت (رمضان ١٣٨٦هـ/يناير ١٩٦٧م) .
- السيد عبدالعزيز سالم (دكتور) : البحر الأحمر فـى التـاريخ الإسـلامى - مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية - (١٤١٤هـ/١٩٩٣م) .

- أمين محمود عبدالله (دكتور) : الجغرافيا التاريخية لحوض البحر الأحمر - المطبعة الحديثة - أسيوط (١٣٩١هـ/١٩٧١م) .
- بشير ابراهيم بشير (دكتور) : عيذاب حياتها الدينية والأدبية ، مجلة نهضة افريقية .
- جمال الدين الشيال (دكتور) : مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا - الاسكندرية (١٣٦٩هـ/١٩٤٩م) .
- ــــــــ ، تاريخ مصر الإسلامية - جزءان - دار المعارف - الإسكندرية (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) .
- حسنين ربيع (دكتور) : النظم المالية فى مصر زمن الايوبيين - القاهرة (١٣٨٤هـ/١٩٦٤م) .
- حمود بن ضاوى القثامي : الآثار فى شمال الحجاز - جزءان - الهيئة المصرية العامة للكتاب (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م) .
- درويش النخيلى (دكتور) : السفن الإسلامية على حروف المعجم - دار المعارف (١٤٠٠هـ/١٩٧٩م) .
- رفعت الجوهرى : ساحل المرجان - الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة (١٣٩١هـ/١٩٧١م) .
- سعاد ماهر (دكتورة) : محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقيه فى مالعصر الإسلامى (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة - لجنة الخبراء) الكتاب الرابع (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م) .
- ــــــــ ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر (١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م) .
- سعيد عبدالفتاح عاشور (دكتور) : العصر المماليكى فى مصر والشام - النهضة العربية - القاهرة (١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م) .
- سيدة إسماعيل الكاشف (دكتورة) : مصر فى فجر الإسلام - القاهرة (١٣٧٠هـ / ١٩٥٠ م) .
- عبدالرحمن زكى (دكتور) : قلعة صلاح الدين الأيوبى وما حولها من الآثار - القاهرة (١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م) .
- عطية القوصى (دكتور) : أضواء جديدة على تجارة الكارم - المجلة التاريخية المصرية - مجلد (٢٢) - القاهرة (١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م) .
- ف . وستنفلد : جدول السنين الهجرية بلياليها وشهورها بما يوافقها من السنين الميلادية بأيامها وشهورها ، ترجمة عبدالمنعم ماجد (دكتور) ، عبدالمحسن رمضان - مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة (١٤٠١ هـ / ١٩٨٠ م) .
- كمال الدين سامح (دكتور) : العمارة الإسلامية فى مصر ، الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية - مطبعة جامعة القاهرة (١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) .
- ــــــــ ، العمارة فى صدر الإسلام - الهيئة العامة للكتب والأجهزة العلمية - مطبعة جامعة القاهرة (١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م) .
- نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته - القاهرة (١٣٢١ هـ / ١٩٠٣ م).
- ــــــــ ، تاريخ سيناء القديم والحديث وجغرافيتها - مطبعة المعارف بمصر (١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م) .
- نعيم زكى فهمى (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م) .

- محمد حلمى محمد أحمد (دكتور) : مصر والشام والصليبيون - القاهرة (١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م) .
- محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية - مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) - أربعة أجزاء .
- محمد طاهر بن عبدالقادر بن محمود الكردى المكى الشافعى الخطاط : التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم - أربعة أجزاء - مكتبة النهضة الحديثة بمكة المكرمة - سوق الليل - الطبعة الأولى (٣٠ ربيع الثانى ١٣٨٥ هـ / ٢٧ أغسطس ١٩٦٥ م) ز
- محمد عبدالعزيز مرزوق (دكتور) : الحياة الفنية فى مصر الإسلامية من الفتح العربى إلى الفتح التركى (تاريخ الحضارة المصرية - العصر اليونانى والرومانى والعصر الإسلامى - المجلد الثانى) ، مكتبة مصر .
- ـــــــــــ : الفنون الزخرفية الإسلامية فى العصر العثمانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ، (١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م) .
- محمد مصطفى زيادة (دكتور) : الغزوة الكبرى الأولى لإستيلاء الصليبيين على مصر (كتاب كفاحنا ضد الغزاة) .
- مصطفى محمد مسعد (دكتور) : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى - القاهرة (١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م) .
- مطلق بن بادى العتيدى : ملخص التاريخ الإسلامى - الجزء الأول - الطابعة الأولى - شركة مطابع المطوع - الدمام / السعودية (جمادى الأول ١٣٩٤ هـ / مايو ١٩٧٤ م) .

خامسا : الأطالس والخرائط :

- اجلال السباعى ، محمد صبحى عبدالحكيم (دكتور) : اطلس الشرق الأوسط - مكتبة مصر القاهرة (١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م) .
- أطلس مجموعة خرائط القطر المصرى الطبوغرافية (مقياس ١ : ١٠٠٠٠٠) مصلحة المساحة المصرية - الجيزة (١٣٤٨ هـ / ١٩٢٩ م) .
- محمد سيد نصر وآخرون : أطلس العالم - الناشر مكتبة لبنان - ساحة رياض الصلح - بيروت .

سادسا : المصادر والمراجع الأوربية :

- Baldwin , Grusades I. Philadellphia 1955.
- Creswell , K. A. C. , The Muslim Architecture of Egypt , Oxford .
- Dozy , R. , Supplement aux dictionnaires arabes , Beyrout , T. 2, 1968 .
- Garcin , J. C. , Un Center Musulman de la haute Egypte Medieval : Qus , Pub. Institut . Francais d'Archeologie Orientale , du Caire , T. VI, 1976 .
- Grousset , R. Histoire des Croissades et du Royoume Franc de Jerusalem , 3tombes , Paris 1943 - 6 .
- John Bartholomew and Son LTD , Edinburgh , World Travel Map . Egypt (Scale 1 : 1000000) and Middle East (Scale 1 : 4000000) .
- Lane - Poole , S., Saladin and the Fall of the kingdom of Jerusalem , New York 1898
- Saunders , J., A History of Medieval Islam , London .
- Schlumberger , G., Campagnes du Roi Amoury 1 er de Jerusalem en Egypte Au XIIe Siecle . Paris 1906 .
- Wiet , G., L'Egypte Arabe , dans " Hisoire dela nation egyptianne " , dirigee Par Gabriel Hanataux , T, IV, Paris , 1937 .
- William of Tyre , A History of Deeds Done Beynal the Sea , Trans : Babcock & Krey. 2. Vols . Columbia 1943 .

توصيات الندوة

توصيات النـــدوة

احتفالا بذكرى المقاومة الشعبية الباسلة لقرية بنى عدى بأسيوط ضد جحافل الحملة العسكرية الفرنسية على صعيد مصر عقد مركز دراسات المستقبل بجامعة أسيوط ندوته العلمية الأولى حول الدور الحربى والتاريخ العسكرى لجنوب مصر عبر العصور يومى الأربعاء والخميس ١٧-١٨ أبريل ١٩٩٦ بقاعة المؤتمرات الدولية للجامعة .

وقد شارك فى هذه الندوة عدد كبير من المؤرخين والباحثين من الجامعات المصرية والعربية ومن قيادة المنطقة العسكرية الجنوبية التى مثلت بوفد عسكرى رفيع المستوى .

وقد ناقش الأساتذة والباحثون خلال أربع جلسات ممتدة على يومين ستة عشر بحثا تناولت الجوانب المختلفة لتاريخ مصر الجنوبية عبر العصور تبدأ من العصور القديمة وحتى بدايات العصر الحديث .

وقد أوصى أعضاء الندوة فى الجلسة الختامية لأعمالها بما يلى :

أولا : تجميع بحوث الندوة ومناقشاتها فى كتاب يصدر عن التاريخ العسكرى لجنوب مصر ودوره فى الدفاع عن التراب الوطنى المصرى وحماية الأمن القومى للبلاد .

ثانيا : تبادل هذه البحوث والكتابات مع الجامعات العربية ومراكز البحوث العلمية فى الداخل والخارج .

ثالثا : توسيع دائرة الاهتمام بالمنطقة محل الدراسة بحيث لا تقتصر فقط على التاريخ العسكرى بل يجب تجاوزها للكشف عن التاريخ الحضارى للمنطقة الذى تعتبر أساسا لتقدمها الاقتصادى والاجتماعى ومنطلقا لتطورها الحضارى .

رابعا : تقدير الجهود القومية الحالية التى تبذلها الدولة للأخذ بيد الصعيد والعمل على تطويره من خلال الاستراتيجية التى لا ترمى فقط إلى انعاش المنطقة اقتصاديا وإنما تستهدف احياء الدور الحضارى للصعيد الذى عرف به عبر التاريخ .

خامسا : التأكيد على انتماء حلايب وشلاتين وأبو رماد إلى التراب الوطنى المصرى ودفع افتراءات النظام السودانى ومزاعمه فى هذا الجزء العزيز من أرض الوطن الذى كان وسيظل جزءا لا يتجزأ من أرض مصر بشهادة التاريخ والجغرافيا ويحيى اعضاء الندوة موقف الحكومة المصرية الصارم لتأكيد السيادة على هذه المنطقة والجهود التى تبذل فى

تنميتها بالوطن الأم ويدعو اعضاء الندوة إلى نشر الوثائق التاريخية التى تثبت مصرية المنطقة أرضا وبشرا .

سادسا : الاهتمام بالتراث الآثرى لمحافظة أسيوط الذى يعبر جانب كبير منه عن الدور الحضارى لجنوب مصر ووقف عمليات التعدى على هذه الآثار واستئناف عمليات الحفائر والاهتمام بعمليات تسجيل ونشر هذه الآثار .

سابعا : توصى الندوة بانشاء مكتبة للدراسات السياسية والتاريخية التى تهتم بأوضاع مصر الجنوبية ، وإنشاء قسم للآثار بكلية الآداب بجامعة أسيوط .

ثامنا : تطوير الدراسات العليا فى فروع علم التاريخ وخاصة ما يتعلق بالمناهج وتدريس اللغات التى تخدم هذه الفروع مثل الفارسية أو التركية أو الأسبانية لطلاب التاريخ الاسلامى واللغات الأوروبية لطلاب التاريخ الوسيط والحديث مع إدخال مادة علم البارد ى العربى الاسلامى .

تاسعا : الحفاظ على الثروة المائية فى مصر عموما وفى جنوب مصر على وجه الخصوص من التلوث وترشيد استخدام الموارد المائية المتاحة وبخاصة الخزان الجنوبى واجراء الدراسات اللازمة لاستغلال هذا الخزان بأمان يحول دون تأثير المياه الجوفية على المبانى والآثار التاريخية فى الوادى والصحراء .

إن مركز دراسات المستقبل الذى شرف بتنظيمه لهذه الندوة وانطلاقا من مسئولياته الحضارية والثقافية ومن ايمانه بأن المستقبل جنين يتشكل فى رحم التاريخ ليتوجه إلى كل الذين شاركوه فى هذه المناسبة العلمية والقومية بالتحية والتقدير متطلعا إلى تعاون أوثق مع كل المؤمنين بتقدم الوطن وازدهاره ويمد يده لكل الخبراء والباحثين على امتداد الوطن لكى يشاركوا معه فى المهمة الجلية التى أخذها على عاتقه – من أجل بناء غد أفضل لنا ولأجيالنا من بعدنا .